

الإصدار السابع

الأسباب التي تصد عن قبول الحق وسبل الوقاية منها في القرآن الكريم

تأليف
نايف بن يوسف بن سعيد العتيبي

كرسي القرآن الكريم وعلومه
جامعة الملك سعود





ح كرسي القرآن الكريم وعلومه بجامعة الملك سعود، ١٤٣٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العتيبي، نايف يوسف
الأسباب التي تصد عن قبول الحق وسبل الوقاية منها في القرآن الكريم./ نايف يوسف العتيبي .- الرياض، ١٤٣٥هـ
٣٥٢ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ١ ـ ٠ ـ ٩٠٥٩٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ مباحث عامة ٢ ـ الحق والباطل
٣ ـ الوعظ والإرشاد أ. العنوان
ديوي ٢٢٩ ١٤٣٥/٧٧٧٢

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ

يهتم الكرسي بنشر البحوث المتميزة والجادة
في التفسير وعلومه تحقيقاً ودراسة

جامعة الملك سعود. كلية التربية. قسم الثقافة الإسلامية - مبنى ١٥
هاتف: ٠٠٩٦٦١١٤٦٧٤٧٤٤ - جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٢٣٥٥٢١٣ - ص.ب. ٢٤٢١٩٩ الرياض ١١٣٢٢
بريد إلكتروني: quranchair@ksu.edu.sa - الموقع: http://c.ksu.edu.sa/quranchair
تويتر: @quranchair

منافذ البيع
الرياض: ٤٤٥٦٢٢٩ / ٠١١ - مكة المكرمة: ٠١٢/٥٧٦١٣٧٧ - المدينة النبوية: ٠١٤/٨٤٦٧٩٩٩



مُقَدِّمَةُ كرسِيِّ القُرْآنِ الكَرِيمِ وَعُلُومِهِ

يختلِفُ التفسيرُ الموضوعيُّ عن التفسيرِ التحليليِّ؛ في أنَّ التفسيرَ الموضوعيَّ ينظُرُ للموضوعِ نظرةً كُلِّيَّةً شاملةً مِن خلالِ القرآنِ الكريمِ كُلِّه أو مِن خلالِ سورةٍ مِن سُوَرِه، بخلافِ التحليليِّ الذي يتوقَّفُ عندَ المفرداتِ والجُمَلِ والآياتِ. وقد دَرَسَ الباحثونَ المعاصِرُون كثيرًا مِن الموضوعاتِ مِن خلالِ القرآنِ الكريمِ، وقدَّمُوا للمكتبةِ القرآنيةِ الكثيرَ مِن الدراساتِ النافعةِ، التي أضافَتْ للمكتبَةِ الكثيرَ مِن العلمِ والفوائدِ.

وتأتي هذه الدراسةُ التي بين أيدِينا بعُنوانِ: (الأسبابُ التي تَصُدُّ عَنْ قَبُولِ الحَقِّ وسُبُلُ الوِقَايَةِ مِنْهَا فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ) ضِمْنَ هذه الدِّراساتِ القَيِّمةِ في التفسيرِ الموضوعيِّ للقرآنِ الكريمِ؛ حيثُ جَمَعَ الباحثُ كلَّ ما يتصِلُ بموضوعِه مِن خلالِ القرآنِ، وكَرَّرَ النظَرَ في آياتِ القرآنِ حتى لا يفوتَه سببٌ مِن هذه الأسبابِ، ثم رتَّبَها وبَنَى بحثَه بناءً منطقِيًّا موفَّقًا، تناوَلَ فيه ـ بعدَ المقدماتِ ـ الأسبابَ الخارجيَّةَ التي تَصُدُّ عن قَبُولِ الحقِّ، وهي عَدَاوَةُ الشيطانِ، والفِتَنُ بأنواعِها، وقُرَنَاءُ السُّوءِ، ثم أتبعَه بسُبُلِ الوقايةِ مِن هذه الأسبابِ التي تَصُدُّ عن قَبُولِ الحقِّ. وفي البابِ الثاني تناوَلَ الأسبابَ الداخليَّةَ التي تصُدُّ عن قبولِ الحقِّ كالشِّرْكِ

باللهِ، واتِّبَاعِ الهَوَى، والغَفْلَةِ، وغيرِ ذلك، وأتبَعَها ببيانِ سُبُلِ الوقايةِ منها.

وقد جمَعَ البحثُ بين حُسْنِ الترتيبِ، وجمعِ أقوالِ المفسِّرين في بيانِ الآياتِ التي تناولَتْ بيانَ هذه الأسبابِ، مع بيانِ سُبُلِ الوقايةِ منها، وهي رسالةٌ تفسيريَّةٌ دعويَّةٌ، تصلُحُ للمفسِّرِ في بيانِ هذه الآياتِ، وللداعيةِ في بيانِ سبلِ الوقايةِ منها، يستفيدُ منها المعلِّمُ والمفسِّرُ والخطيبُ وغيرُهم.

وقد أردْنا في كرسِيِّ القرآنِ الكريمِ وعلومِه نَشْرَ هذه الرسالةِ القيّمةِ خدمةً لطلابِ العلمِ والدُّعاةِ، وإضافةً للمكتبةِ القرآنيّةِ في حَقْلِ التفسيرِ الموضوعيِّ ودراساتِه الجادَّة.

أ.د. عبدالرحمن بن معاضة الشهري

المشرف على الكرسي

المُقَدِّمَة

إنَّ الحمدَ للهِ، نَحمَدُهُ ونَستَعِينُهُ ونَستَغفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ من شُرورِ أنفُسِنا وسَيِّئاتِ أعمالِنا، مَن يَّهدِهِ اللهُ، فَلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلِلْ، فَلَن تَجِدَ له وَلِيًّا مُرشِدًا.

وَأشهَدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ؛ وحدَهُ لا شَرِيكَ له، وَأشهَدُ أنَّ مُحمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ، وعلى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلَّمَ تَسلِيمًا كثيرًا إلى يومِ الدِّينِ.

«الحمْدُ للهِ الَّذي أنزَلَ على عبدِهِ الفُرقانَ الفارقَ بينَ الحلالِ والحرامِ، والسُّعداءِ والأشقياءِ، والحقِّ والباطلِ، وجَعَلَهُ ـ برَحمَتِهِ ـ هُدًى للنَّاسِ عُمومًا، وللمُتَّقِينَ خُصوصًا، من ضلالِ الكُفرِ والمعاصِي والجهلِ، إلى نُورِ الإيمانِ والتَّقوَى والعِلمِ، وأنزلَهُ شِفاءً للصُّدورِ من أمراضِ الشُّبُهاتِ والشَّهواتْ، ويَحصُلُ به اليقينُ والعِلمُ في المطالِبِ العالياتْ، وشفاءً للأبدانِ من أمراضِها وعِلَلِها وآلامِها وسَقَمِها، وأخبرَ أنَّه لا رَيبَ فيه ولا شَكَّ بوجهٍ منَ الوُجوهِ؛ وذلكَ لاشتمالِهِ على الحقِّ العظيمِ في أخبارِهِ، وأوامرِهِ، ونواهِيهِ، وأنزلَهُ مباركًا، فيه الخيرُ الكثيرْ، والعلمُ الغزيرْ، والأسرارُ البديعهْ، والمطالِبُ الرفيعهْ؛ فكُلُّ بَركةٍ وسعادةٍ تُنالُ في الدُّنيا والآخرةِ؛ فسَبَبُها الاهتداءُ به واتِّباعُهُ، وأخبرَ أنَّهُ مُصَدِّقٌ ومُهيمِنٌ على الكُتُبِ السَّابقةِ؛ فما يَشهَدُ له، فهو الحقُّ، وما رَدَّهُ، فهو المردودُ؛ لأنَّهُ تَضَمَّنَها وزادَ عليها، وقالَ تعالى فيه: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ

رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦] فهو هادٍ لدارِ السَّلامِ، مُبينٌ لطريقِ الوُصولِ إليها، وحاثٌّ عَلَيْها، كاشفٌ عنِ الطَّريقِ المُوصِلَةِ إلى دارِ الآلامِ ومُحَذِّرٌ منها، وقالَ تعالى ـ مُخبِرًا عنه ـ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]؛ فبَيَّنَ آياتِهِ أكمَلَ تَبيينٍ، وأتقَنَها أيَّ إتقانٍ، وفَصَّلَها بِتَبيينِ الحقِّ منَ الباطلِ والرُّشدِ منَ الضَّلالِ، تَفصيلًا كاشفًا لِلَّبْسِ؛ لكونِهِ صادِرًا من حكيمٍ خبيرٍ، فلا يُخبِرُ إلَّا بالصِّدقِ والحقِّ واليقينِ، ولا يأمُرُ إلَّا بالعَدلِ والإحسانِ والبِرِّ، ولا يَنهَى إلَّا عنِ المضارِّ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ»[1].

إنَّ الكلامَ على هذا الكتابِ العظيمِ وما فيه منَ العِبَرِ والعِظاتِ، والحِكَمِ والأحكامِ، والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، والقَصَصِ والأمثالِ: يحتاجُ إلى وقتٍ طويلٍ لبيانِ عَظَمتِهِ ومزاياهُ.

وإنَّ كتابًا بهذه المثابةِ لَـهُوَ حقيقٌ بأن تَفنَى فيه الأعمارُ، وتُقضَى في تَعَلُّمِهِ الأوقاتُ، وتُصرَفَ فيه العزائمُ والهِمَمُ.

والواجبُ على الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ أن ترجِعَ إلى هذا الكتابِ المَجيدِ والنُّورِ المُبينِ، وتَجعلَهُ دُستورَها ومنهجَ حياتِها؛ إذ هو سببُ رِفعَتِها وعنوانُ عِزتِهَا؛ فيَجِبُ عليها أن تَعتَصِمَ به؛ حتَّى تنالَ الفوزَ في الدُّنيا والآخرةِ؛ قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥].

ومنَ الواجبِ على أهلِ العِلمِ وخاصَّةً أهلَ القُرآنِ؛ الَّذِينَ شَرَّفَهُمُ اللهُ ﷻ بأن يكونوا من أهلِهِ: أن يَهتَمُّوا بهذا الكتابِ؛ تَعلُّمًا

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٣).

وتَعلِيمًا، وتَدَبُّرًا واستنباطًا، وأن يُبرِزُوا للنَّاسِ ما اشتَمَلَ عليه هذا القرآنُ منَ الخيرِ، وما فيه منَ الهِدَاياتِ، فالقُرآنُ الكريمُ هادٍ للبَشَرِيَّةِ في كُلِّ شُؤونِ حياتِها؛ قالَ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وإنَّ ممَّا يُعِينُ على فَهمِ كتابِ اللهِ واستخراجِ كُنوزِهِ ودُرَرِهِ، والوُقوفِ على خيراتِهِ وهداياتِهِ: التَّفسيرَ الموضوعيَّ الَّذي اهتَمَّ به العُلماءُ قديمًا وحديثًا.

مِن هذا المنطلَقِ وبَينَما كُنتُ أبحَثُ عن موضوعٍ لنَيلِ درجةِ الماجستير، كانَ خاطِري يجُولُ هنا وهناكَ، وكنتُ أميلُ إلى التَّفسيرِ الموضوعيِّ؛ لِمَا ذكرتُ من أهميَّتِهِ، فبَحَثْتُ عن موضوعٍ أُفِيدُ به نفسِي، وأُقدِّمُ به خدمةً للمكتبةِ القُرآنيَّةِ، وأنفَعُ به أُمَّتَنا الإسلاميَّةَ؛ فاستقَرَّ رأيي على هذا الموضوعِ؛ **وهو بعنوانِ:**

« الأَسْبَابُ الَّتِي تَصُدُّ عَنْ قَبُولِ الحَقِّ وَسُبُلُ الوِقَايَةِ مِنْهَا فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ »

ولا يَخفَى ما لهذا الموضوعِ من أهميَّةٍ بالغةٍ؛ إذ إنَّ الأسبابَ الَّتِي تواجِهُ الإنسانَ وتَصُدُّهُ عن قبولِ الحقِّ كثيرةٌ جِدًّا، يَتَعَرَّضُ لها كلُّ أحدٍ؛ الصَّغيرُ والكبيرُ، والذَّكَرُ والأُنثَى، والعالِمُ والمتعلِّمُ.

ولقد أفاضَ القُرآنُ الكريمُ في ذِكرِ هذه الأسبابِ لخُطُورتِها وانتشارِها؛ وخفائِها في بعضِ الأحيانِ.

والأسبابُ الَّتِي تَصُدُّ عنِ الحَقِّ كثيرةٌ ومُتَنَوِّعةٌ ومُتعدِّدةٌ:

منها ما يَتَعَلَّقُ بالشَّيطانِ؛ الَّذي أقسَمَ على إغواءِ بنِي آدَمَ؛ قالَ تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]؛ فهو يَعمَلُ ليلَ نهارَ على إضلالِ العبادِ وصَدِّهِم عنِ الحَقِّ.

ومنها ما يَتَعَلَّقُ بالفِتَنِ على اختلافِ أنواعِها؛ كفِتنةِ المالِ، وفِتنةِ النِّساءِ، وفِتنةِ الأزواجِ والأولادِ، وفِتنةِ المِلكِ والجَاهِ، وفِتنةِ البِيئةِ الَّتي يعيشُ فيها الإنسانُ، ولقد كَثُرَتْ وعَظُمَتْ هذه الفتنُ في هذا الزَّمانِ فأصبحَتْ سَبَبًا في صَدِّ الإنسانِ عنِ الحَقِّ.

وكذلكَ منَ الأسبابِ الَّتي تَصُدُّ عنِ الحَقِّ: قُرناءُ السُّوءِ، والإشراكُ باللهِ، ورِقَّةُ الدِّينِ، وضَعفُ تعظيمِ اللهِ في القُلوبِ وَعَدَم قَدْرِهِ حقَّ قَدرِهِ، والتَّقليدُ المذمومُ، واتِّباعُ الهَوَى، واتِّباعُ الشُّبُهاتِ والشَّهواتِ، والنَّفسُ الأمَّارةُ بالسُّوءِ، والتَّكَبُّرُ، والغَفلَةُ.

وقد بَيَّنَ القُرآنُ الكريمُ هذه الأسبابَ أكمَلَ بيانٍ، وحَذَّرَ منها بني آدمَ؛ حتَّى لا تَصُدَّهُم عنِ الحقِّ.

ومِن رحمةِ اللهِ ﷻ وفَضْلِهِ على عبادِهِ ـ: أن هَيَّأَ لهم سُبُلًا تكونُ بإذنِهِ واقيةً لِمَنْ عَمِلَ بها من تِلكَ الأسبابِ، وقد ذَكَرَ اللهُ ﷻ كثيرًا من تلكَ السُّبُلِ في كتابِهِ الكريمِ.

فأحبَبْتُ مُستَعِينًا باللهِ ﷻ مع اعترافي بعَجزِي وتقصيرِي أن أجمَعَ تلكَ الأسبابَ وتلكَ السُّبُلَ وحديثَ القرآنِ عنها، مُستَنِدًا في ذلكَ إلى أقوالِ العُلماءِ منَ المُفَسِّرِينَ وغيرِهم إذا كانَ كلامُهُ له صلةٌ بتفسيرِ الآيةِ.



أسبابُ اختيارِ المَوضُوعِ

١ ـ الرَّغبةُ في خدمةِ كتابِ اللهِ ﷻ.

٢ ـ الرَّغبةُ في إثراءِ المادَّةِ العلميَّةِ لعُلومِ التَّفسيرِ.

٣ ـ صِلتُهُ بالتَّفسيرِ الموضوعيِّ الَّذي هو أحدُ ألوانِ التَّفسيرِ.

٤ ـ صِلَةُ هذا الموضوعِ بالدَّعوةِ إلى اللهِ ﷻ.

٥ ـ وَفرَةُ المادَّةِ العلميَّةِ لهذا الموضوعِ.

٦ ـ انتشارُ أسبابِ الصَّدِّ عن قَبولِ الحَقِّ بينَ كثيرٍ منَ النَّاسِ.

٧ ـ حاجةُ النَّاسِ الماسَّةُ إلى طَرقِ مِثلِ هذا الموضوعِ.

٨ ـ عدمُ الكتابةِ في هذا الموضوعِ من قبلُ فيما وَقفْتُ عليهِ.

٩ ـ ثناءُ كثيرٍ من مشايخي على هذا الموضوعِ، وحثِّي على الكتابةِ فيه.

١٠ ـ التَّعرُّفُ على المصادرِ، والتَّمرُّسُ في الرُّجوعِ إليها في علمِ التَّفسيرِ.



الدِّراساتُ السَّابقةُ للمَوضُوعِ

١ ـ «عداوةُ الشَّيطانِ للإنسانِ كما جاءتْ في القُرآنِ»: أ. د. عبد العزيز بن صالح العبيد.

٢ ـ «عداوةُ الشَّيطانِ للإنسانِ وعلاجُها في ضَوءِ القُرآنِ الكريمِ»: عبد المنعم بن حواس الحواس، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعودٍ الإسلاميَّة.

٣ ـ «مسالكُ الشَّيطانِ إلى بني الإنسانِ في ضَوءِ القُرآنِ والسُّنَّةِ. دراسةٌ موضوعيَّةٌ»: حورية دغيم، رسالة ماجستير، جامعة الكويت.

٤ ـ «الفتنةُ ومَوقِفُ المسلمِ منها في ضَوءِ القُرآنِ»: عبد الحميد بن عبد الرحمٰن السحيباني.

٥ ـ «موقفُ المسلمِ منَ الفِتَنِ في ضَوءِ الكتابِ والسُّنَّةِ»: حسين بن محسن الحازمي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى.

٦ ـ «الاتِّباعُ أنواعُهُ وآثارُهُ في بيانِ القُرآنِ»: محمد بن مصطفى السيد، رسالة ماجستير، جامعة الإمام.

٧ ـ «دوافعُ إنكارِ دعوةِ الحقِّ في العَهدِ النَّبويِّ وسُبُلُ علاجِها»: عبد الرحمٰن بن يوسف الملاحي، رسالة ماجستير.

هذه هي الدِّراساتُ السَّابقةُ لهذا الموضوعِ، وهي تَختلِفُ اختلافًا كبيرًا عن دراسَتي؛ وبيانُ ذلكَ:

أوَّلًا: أنَّ الدِّراساتِ الَّتِي تَحدَّثتْ عنِ الشَّيطانِ تحدَّثَتْ عن جزئيَّةٍ من أجزاءِ البحثِ وهو ما يَتَعَلَّقُ بالكلامِ عنِ الشَّيطانِ، ثمَّ إنَّ هذه الدِّراسةَ تختلفُ عن تلكَ الدِّراساتِ؛ ببيانِ أساليبِ الشَّيطانِ في الصَّدِّ عنِ الحَقِّ.

ثانيًا: أنَّ الدِّراساتِ الَّتِي تحدَّثَتْ عنِ الفتنةِ إنَّما تَتَعَلَّقُ بجزئيَّةٍ من أجزاءِ البَحثِ وهي الكلامُ عنِ الفتنةِ، وتختلفُ هذه الدِّراسةُ عن تلكَ الدِّراساتِ؛ من حيثُ إنَّها تَبْحَثُ عنِ الفتنةِ من جهةِ كَونِها سببًا في الصَّدِّ عنِ الحَقِّ.

ثالثًا: أمَّا ما يَتَعَلَّقُ بالدِّراسةِ عن الاتِّباعِ؛ فقدِ اختَلَفَتْ عنه هذه الدِّراسةُ ببيانِ أنَّ الاتِّباعَ المذمومَ سببٌ من أسبابِ الصَّدِّ عنِ الحَقِّ.

رابعًا: **أمَّا الدِّراسةُ الأخيرةُ فتَختَلِفُ عن هذه الدِّراسةِ من ناحيتَينِ:**

- أنَّها تَتَعَلَّقُ بالأسبابِ الَّتِي تَصُدُّ عن قَبولِ الحَقِّ في العَهدِ النَّبويِّ، وهذه الدِّراسةُ ليسَتْ مُتعلِّقَةً بوَقتٍ مُعيَّنٍ.
- أنَّها تختلفُ عن هذه الدِّراسةِ؛ حيثُ إنَّ هذه الدِّراسةَ تَتعلَّقُ بالقُرآنِ الكريمِ واستخراجِ تلكَ الأسبابِ منه.

خامسًا: أنَّ هذه الدِّراسةَ تَمَيَّزَتْ ببيانِ كثيرٍ من سُبُلِ الوِقايةِ الَّتِي تَقِي - بإذنِ اللهِ - من أسبابِ الصَّدِّ عنِ الحَقِّ.



خُطَّةُ البَحثِ

قَسَّمْتُ البَحثَ إلى مُقدِّمَةٍ وتمهيدٍ وبابَينِ وخاتمةٍ وفهارِسَ:

أمَّا المقدِّمةُ، فتَشتَمِلُ على:

- أهميَّةِ الموضوعِ، وأسبابِ اختيارِهِ، والدِّراساتِ السَّابقةِ للمَوضوعِ.
- خُطَّةِ البَحثِ.
- منهجِ البحثِ.

التَّمهيدُ: في التَّعريفِ بمُفرداتِ العنوانِ؛ **ويَشتَمِلُ على سَبعَةِ مباحِثَ:**

المبحثُ الأوَّلُ: الأسبابُ.

المبحثُ الثَّاني: الصَّدُّ.

المبحثُ الثَّالثُ: القَبولُ.

المبحثُ الرَّابعُ: الحَقُّ.

المبحثُ الخامسُ: السُّبُلُ.

المبحثُ السَّادسُ: الوقايةُ.

المبحثُ السَّابعُ: القُرآنُ.

* **البابُ الأوَّلُ:** الأسبابُ الخارجيَّةُ وسُبُلُ الوِقايةِ منها؛ **ويَحتوِي على تمهيدٍ وفَصلَينِ:**

التَّمهيدُ: يَشتَمِلُ على بيانِ المرادِ بالأسبابِ الخارجيَّةِ.

الفصلُ الأوَّلُ: الأسبابُ الخارجيَّةُ؛ **ويَحتَوِي على ثلاثةِ مباحِثَ:**

المَبحثُ الأوَّلُ: عداوةُ الشَّيطانِ وأساليبُهُ في الصَّدِّ عنِ الحَقِّ؛ **ويحتوِي على مَطلَبينِ:**

المطلبُ الأوَّلُ: عَداوةُ الشَّيطانِ.

المطلبُ الثَّاني: أساليبُهُ في الصَّدِّ عنِ الحَقِّ.

المبحثُ الثَّاني: الفِتَنُ؛ **ويَحتَوِي على تقديمٍ وثلاثةِ مطالِبَ:**

تقديمٌ: الفِتَنُ ماهيَّتُها وأنواعُها.

المطلبُ الأوَّلُ: فُشُوُّ الشِّركِ والمعاصي.

المطلبُ الثَّاني: فِتَنُ الحياةِ الدُّنيا.

أوَّلًا: فتنةُ النِّساءِ.

ثانيًا: فتنةُ المالِ.

ثالثًا: فتنةُ الأزواجِ والأولادِ.

المطلبُ الثَّالثُ: فتنةُ الملكِ والجاهِ.

المبحثُ الثَّالثُ: قُرناءُ السُّوءِ.

الفَصلُ الثَّاني: سُبُلُ الوِقايةِ منَ الأسبابِ الخارجيَّةِ؛ **ويَحتَوِي على مَبحثَينِ:**

المبحثُ الأوَّلُ: سُبُلُ الوِقايةِ من عداوةِ الشَّيطانِ؛ **ويَحتَوِي على تِسعَةِ مطالِبَ:**

المطلبُ الأوَّلُ: اتِّخاذُهُ عَدُوًّا.

المطلبُ الثَّاني: الإيمانُ باللهِ ﷻ.

المطلبُ الثَّـالثُ: التَّوكُّلُ على اللهِ ﷻ.

المطلبُ الرَّابعُ: الإخلاصُ للهِ ﷻ.

المطلبُ الخامسُ: طاعةُ اللهِ ﷻ.

المطلبُ السَّادسُ: التَّحصُّنُ بذِكرِ اللهِ ﷻ.

المطلبُ السَّابعُ: الاستعاذةُ باللهِ ﷻ منَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ.

المطلبُ الثَّـامنُ: الحَذَرُ من معصيةِ اللهِ.

المطلبُ التَّـاسعُ: عدمُ اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ.

المبحثُ الثَّاني: سُبُلُ الوقايةِ منَ الفِتَنِ؛ **ويَحتَوِي على ثلاثةِ مَطالِبَ:**

المطلبُ الأوَّلُ: سُبُلُ الوقايةِ من فُشُوِّ الشِّركِ والمعاصي.

المطلبُ الثَّـاني: سُبُلُ الوقـايةِ من فِتَنِ الحياةِ الدُّنيا؛ **ويَحتَوِي على ثلاثِ مسائِلَ:**

أوَّلًا: سُبُلُ الوقايةِ من فتنةِ النِّساءِ.

ثانيًا: سُبُلُ الوقايةِ من فِتنةِ المالِ.

ثالثًا: سُبُلُ الوقايةِ من فتنةِ الأزواجِ والأولادِ.

المطلبُ الثَّالثُ: سُبُلُ الوقايةِ من فتنةِ الملكِ والجاهِ.

المبحثُ الثَّالثُ: سُبُلُ الوقايةِ من قُرناءِ السُّوءِ.

* البابُ الثَّاني: الأسبابُ الدَّاخليَّةُ وسُبُلُ الوقايةِ منها؛ **ويَحتَوِي على تمهيدٍ وفَصلَينِ:**

تمهيدٌ: ويَشتَمِلُ على بيانِ المرادِ بالأسبابِ الدَّاخليَّةِ.

الفصلُ الأوَّلُ: الأسبابُ الداخليَّةُ؛ **ويَحتَوِي على تِسعَةِ مباحِثَ:**

المبحثُ الأوَّلُ: الإشراكُ باللهِ.

المبحثُ الثَّـاني: عَدَمُ قَدْرِ اللهِ حقَّ قَدرِهِ.

المبحثُ الثَّـالثُ: التَّقليدُ المَذمُومُ.

المبحثُ الـرَّابـعُ: اتِّباعُ الهَوَى.

المبحثُ الخامسُ: اتِّباعُ الشُّبُهاتِ.

المبحثُ السَّادسُ: اتِّباعُ الشَّهَواتِ.

المبحثُ السَّـابعُ: النَّفسُ الأمَّارةُ بالسُّوءِ.

المبحثُ الثَّـامنُ: التَّكبُّرُ والغُرورُ والعُجْبُ.

المبحثُ التَّـاسعُ: الغَفلَةُ.

الفَصلُ الثَّاني: سُبُلُ الوقايةِ منَ الأسبابِ الدَّاخليَّةِ؛ **ويَحتَوِي على تِسعَةِ مباحِثَ:**

المبحثُ الأوَّلُ: سُبُلُ الوقايةِ منَ الإشراكِ باللهِ.

المبحثُ الثَّـاني: سُبُلُ الوقايةِ من عَدَمِ قَدرِ اللهِ حقَّ قَدرِهِ.

المبحثُ الثَّـالثُ: سُبُلُ الوقايةِ منَ التَّقليدِ المذمومِ.

المبحثُ الـرَّابعُ: سُبُلُ الوقايةِ منِ اتِّباعِ الهَوَى.

المبحثُ الخامسُ: سُبُلُ الوِقايةِ منَ الشُّبُهاتِ.

المبحثُ السَّادسُ: سُبُلُ الوقايةِ منَ الشَّهواتِ.

المبحثُ السَّـابعُ: سُبُلُ الوقايةِ منَ النَّفسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ.

المبحثُ الثَّـامنُ: سُبُلُ الوقايةِ منَ التَّكبُّرِ والغُرورِ والعُجْبِ.

المبحثُ التَّـاسعُ: سُبُلُ الوِقايةِ منَ الغَفلةِ.

الخاتمةُ؛ وتَشتَمِلُ على أهمِّ نتائجِ البَحثِ.

* الفهارسُ:

- فهرسُ المصادرِ والمراجعِ.

- فهرسُ الموضوعاتِ.



مَنهَجُ كتابةِ البَحثِ

١ ـ جمعُ الآياتِ المتعلِّقةِ بالموضوعِ، وترتيبُها تَرتيبًا مَوضوعيًّا، تحتَ كُلِّ فصلٍ ومبحثٍ ما يناسِبُهُ منَ الآياتِ.

٢ ـ استخراجُ الأسبابِ وسُبُلِ الوقايةِ منها من هذه الآياتِ؛ بالرُّجوعِ إلى كُتبِ التَّفسيرِ وأقوالِ المفسِّرينَ في الآيةِ، أو غيرِهم منَ العُلماءِ إذا كانَ كلامُهُم له صِلَةٌ بالمَوضُوعِ.

٣ ـ ترتيبُ الأبوابِ في البَحثِ بطريقةٍ مُناسِبَةٍ تُناسِبُ عنوانَ البَحثِ؛ **حيثُ يَحتَوِي كلُّ بابٍ على فَصلَينِ: أحدُهُما**: يَتَضَمَّنُ ذِكرَ الأسبابِ، **والآخَرُ**: يَتَضَمَّنُ ذِكرَ سُبُلِ الوِقايةِ منها.

٤ ـ تقسيمُ الفُصولِ إلى مباحِثَ ومَطالِبَ، تَتَضَمَّنُ مَا له عَلاقةٌ بالموضوعِ منَ الأسبابِ وسُبُلِ الوقايةِ منها بطريقةٍ موضوعيَّةٍ تَتَّفِقُ مع مناهجِ البحثِ.

٥ ـ تفسيرُ الآياتِ تَفسِيرًا إجماليًّا.

٦ ـ عَزوُ الآيةِ القرآنيَّةِ إلى السُّورةِ الَّتِي ذُكِرَتْ فيها، وذِكرُ أرقامِها، وكتابتُها بالرَّسمِ العثمانيِّ.

٧ ـ تخريجُ الأحاديثِ النَّبويَّةِ والآثارِ تخريجًا يَتَضَمَّنُ بيانَ درجتِها، فما كانَ في الصَّحيحَينِ أو في أحدِهما، اكتفَيتُ بالعَزوِ إليهِ، وما كانَ في غيرِهما من كُتبِ السُّنَّةِ، عَزَوْتُهُ إلى مصدرِهِ، مع بيانِ درجتِهِ، مُعتَمِدًا في ذلكَ على أقوالِ أهلِ العلمِ المحقِّقِينَ.

٨ ـ توثيقُ الأبياتِ الشِّعريَّةِ؛ بنِسبَتِها إلى قائلِيها ومصادِرِها.

٩ ـ التَّرجمةُ للأعلامِ غيرِ المشهورِينَ.

١٠ ـ شرحُ المفرداتِ الغريبةِ الَّتِي تحتاجُ إلى بيانٍ.

١١ ـ وضعُ خاتمةٍ تَتَضَمَّنُ أهمَّ النَّتائجِ الَّتِي تَوصَّلت إليها مِنْ خِلَال البحث.

١٢ ـ القيامُ بوَضعِ الفهارسِ اللَّازمةِ كما هو مُوضَّحٌ في الخُطَّةِ.

١٣ ـ الالتزامُ بعلاماتِ التَّرقِيمِ، وضبطِ ما يحتاجُ إلى ضَبطٍ.



شُكرٌ وتَقدِيرٌ

هذا وأحمدُ ربي وأشكُرُهُ وأُثنِي عليه سبحانه؛ بما أَسدَى إِليَّ من نِعَمِهِ العظيمةِ وآلائِهِ الجسيمةِ، وأحمَدُ ربِّي أن وَفَّقَنِي وأعانَنِي على إتمامِ هذه الرسالةِ، فما كانَ فيها من حقٍّ وصوابٍ، فهو منَ الحَقِّ سبحانَهُ وتَوفيقِهِ؛ فهو المُتفضِّلُ جلَّ وعَلَا، وما كانَ فيها من خطإٍ وتقصيرٍ، فهو من نفسي والشَّيطانِ؛ فللَّهِ الحمدُ أوَّلًا وآخِرًا.

ثُمَّ أَشكُرُ والِدَيَّ العزيزَينِ اللَّذينِ كانا نِعْمَ المُعِينُ لي منذُ أن بدأتُ في مراحلِ التَّعليمِ، فأسألُ اللهَ تعالى أن يَجزِيَهُما خيرَ الجزاءِ، وأن يُوَفِّقَنِي لِبِرِّهِما.

ثُمَّ أَشكُرُ في هذا المقامِ قادةَ هذه البلادِ المباركةِ؛ الَّذين مَهَّدُوا لطُلَّابِ العلمِ جميعَ ما يحتاجُونَ إليه في طَلَبِ العلمِ؛ فأسألُ اللهَ ﷻ أن يَحفَظَ هذه البلادَ، وأن يحفَظَ وُلاةَ أمرِها وعُلماءَها ومشايخَها؛ إنَّه سميعٌ مجيبٌ.

كما أشكُرُ الجامعةَ الإسلاميَّةَ الَّتِي شَرَّفَنِي اللهُ ﷻ بالانتماءِ إليها والنَّهَلِ من عُلومِها الغزيرةِ المستَمَدَّةِ منَ الكتابِ والسُّنَّةِ.

كما أشكُرُ كليَّةَ القُرآنِ الكريمِ الَّتِي وفقني الله ﷻ أن أكونَ من طُلَّابِها منذُ المرحلةِ الجامعيَّة، حيثُ كانَ لها الأثرُ الكبيرُ على حياتي العلميَّةِ.

وأَخُصُّ بالشُّكرِ الجزيلِ شَيخِي العزيزَ فضيلةَ الدكتورَ: محمد بن عبد العزيز العواجي؛ الَّذي أشرَفَ عليَّ في عملي لهذه الرسالةِ،

فكانَ نِعمَ المُوَجِّهُ والمُعِينُ لي في رسالتِي، وقد بَذَلَ لي وَقتَهُ وجُهدَهُ ومَكتَبَتَهُ؛ فأسألُ اللهَ تعالى بِمَنِّهِ أن يحفظَهُ، وأن يُبارِكَ له في عِلمِهِ وعَمَلِهِ وعُمُرِهِ ووَقتِهِ وذُرِّيَّتِهِ؛ إنَّهُ جَوَادٌ كريمٌ.

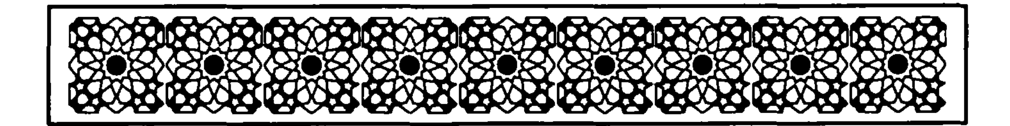
وأشكرُ شَيخَيَّ الكريمَينِ اللَّذينِ تَفَضَّلا بقراءةِ هذه الرِّسالةِ، فأسألُ اللهَ أن يجزِيَهُما على ذلكَ خيرَ الجزاءِ.

واسألُ اللهَ تعالى أن يَكتُبَ الأجرَ والثَّوابَ لكلِّ مَن أعانَنِي من إخوانِي وزملائي بمساعدةٍ أو مشاركةٍ أو فائدةٍ.

وصلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنَا مُحمَّدٍ، وعلى آلِهِ وصَحبِهِ.

المؤلف

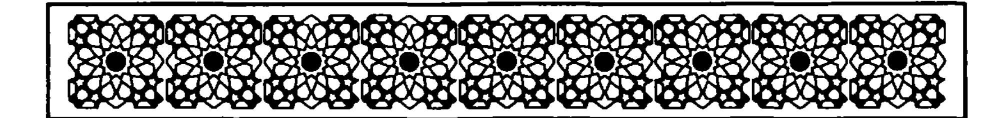


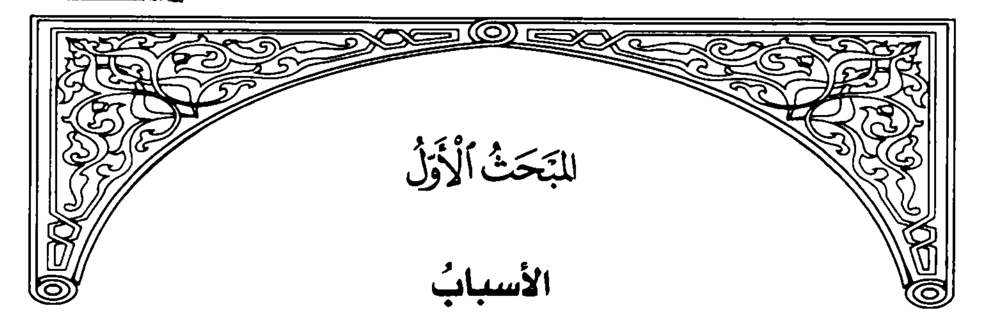


تَمْهِيدٌ
في
التعريفِ بمُفرداتِ العُنوانِ

وَيَشتَمِلُ على سبعةِ مباحِثَ:

- المبحثُ الأوَّلُ: الأسبابُ.
- المبحثُ الثَّاني: الصَّدُّ.
- المبحثُ الثَّالثُ: القَبولُ.
- المبحثُ الرَّابعُ: الحَقُّ.
- المبحثُ الخامسُ: السُّبُلُ.
- المبحثُ السَّادسُ: الوقايةُ.
- المبحثُ السَّابعُ: القُرآنُ الكريمُ.





المَبْحَثُ الأَوَّلُ

الأسبابُ

قال في «الصِّحاحِ»: «السَّبَبُ: الحَبْلُ، والسَّببُ أيضًا: كُلُّ شيءٍ يُتَوَصَّلُ به إلى غَيرِهِ»(١).

فالسَّببُ هو كُلُّ شَيءٍ يُتَوَصَّلُ به إلى غَيرِهِ، وهذا المعنَى يَتَّضِحُ من خلالِ البحثِ، حيثُ إنَّ هذه الأسبابَ الَّتِي ستُذكَرُ في هذا البحثِ تُوصِلُ صاحِبَها إلى حالةِ الإعراضِ والصُّدودِ عنِ الحَقِّ وعدمِ قَبُولِهِ.

من معانِي الأسبابِ في القُرآنِ الكريمِ:

• **الأبوابُ**: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ [ص: ١٠]؛ **يَعنِي**: الأبوابَ(٢).

• **المَنازِلُ**: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٥]؛ **يَعنِي**: مَنازِلَ الطُّرُقِ(٣).

• **العِلمُ**: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤]؛ **يَعنِي**: عِلمًا(٤).

---

(١) الصحاح: (١/ ١٤٥).

(٢) إصلاح الوجوه والنظائر: (١/ ٤٤٤)، وانظر: جامع البيان: (٢٠/ ٢٧).

(٣) إصلاح الوجوه والنظائر: (١/ ٤٤٥)، وانظر: جامع البيان: (١٥/ ٣٧٣).

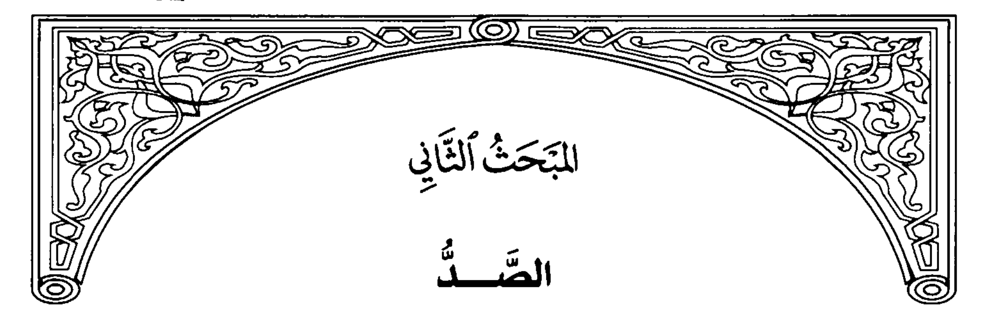
(٤) إصلاح الوجوه والنظائر: (١/ ٤٤٥)، وانظر: جامع البيان: (١٥/ ٣٧١ ـ ٣٧٢).

• **الحَبلُ**: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ١٥]؛ يعني: بِحَبْلٍ ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ إلى سَقفِ البيتِ(١).

• **المُوَاصَلَةُ والمَوَدَّةُ**: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾؛ أي: الوَصْلاتُ الَّتِي كانُوا يَتَوَاصَلُونَ بها في الدُّنيا(٢).



(١) إصلاح الوجوه والنظائر: (١/ ٤٤٥)، وانظر: جامع البيان: (١٦/ ٤٧٨ ـ ٤٧٩).
(٢) نزهة الأعين النواظر: (ص٤٠)، وانظر: جامع البيان: (٣/ ٢٦ ـ ٢٧).



المَبۡحَثُ ٱلثَّانِي

الصَّــدُّ

قال في الصَّحاحِ: «صَدَّ عنه يَصِدُّ صُدُودًا: أَعرَضَ، وَصَدَّهُ عنِ الأمرِ صَدًّا: مَنَعَهُ وصَرَفَهُ عنهُ»[١].

معاني الصَّـدِّ في القُرآنِ الكريمِ:

• **الإعراضُ:** ومنه قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]؛ **أي:** يُعرِضُونَ عنكَ إعراضًا كالمُستكبِرِينَ[٢].

• **المنعُ:** ومنه قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ١]؛ **أي:** كَفَرُوا باللهِ وصَدُّوا غيرَهُم عن دِينِ الإسلامِ[٣].

أمَّا في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧]؛ فمَن قَرَأَ ﴿يَصُدُّونَ﴾؛ بضَمِّ الصادِ، **فمعناهُ:** يُعرِضُونَ، ومَن قَرَأَ بكَسرِ الصَّادِ: ﴿يَصِدُّونَ﴾، **فمعناهُ:** يَضِجُّونَ[٤].

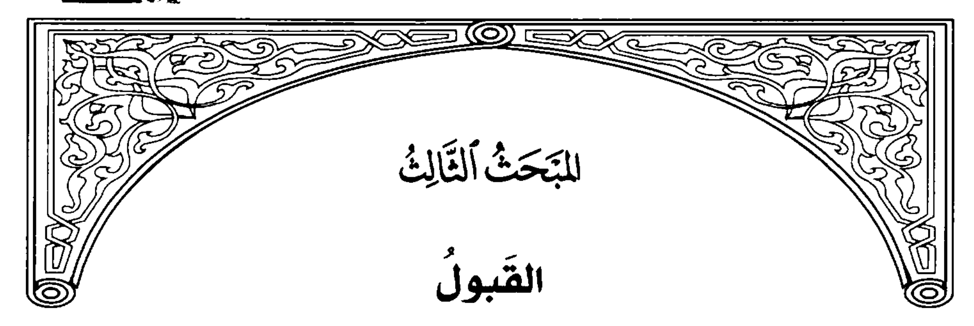
---

(١) الصحاح: (٢/ ٤٩٥).

(٢) نزهة الأعين النواظر: (١٧٣)، **وانظر:** تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٣٤٦).

(٣) نزهة الأعين النواظر: (١٧٣)، **وانظر:** جامع البيان: (١٢/ ١٨٠).

(٤) **انظر:** الجامع لأحكام القرآن: (١٩/ ٦٦)، وقد قرأ بضَمِّ الصادِ نافعٌ، وابنُ عامرٍ، والكسائيُّ، وأبو جعفر، وقرأ بكسر الصاد ابنُ كَثيرٍ، وأبو عمرٍو، وعاصمٌ، وحمزةُ، ويعقوبُ، وخَلَفٌ. **انظر:** إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربع عشر: (٢/ ٤٥٨).



المَبْحَثُ الثَّالِثُ

القَبولُ

قالَ في «اللِّسانِ»: «يقالُ: قَبِلْتُ الشَّيءَ قَبُولًا: إذا رَضِيتُهُ، وتَقَبَّلْتُ الشَّيءَ وقَبِلْتُهُ قَبولًا بفَتحِ القافِ، وهو مصدرٌ شاذٌّ»(١).

معنَى القَبولِ في القُرآنِ:

ورَدَتْ كلمةُ: «القَبولِ» في آياتٍ كثيرةٍ من آياتِ القُرآنِ الكريمِ بمَعنَى: أَخْذِ الشَّيءِ وقَبولِهِ ورِضاهُ(٢).

ومنه قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

وقولُهُ: ﴿يَقْبَلُ﴾؛ قالَ أبو عُبَيدَةَ(٣): أي: مِن عَبِيدِهِ؛ كقَولِكَ: أَخذْتُهُ منكَ، وأخَذْتُهُ عَنكَ(٤).

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

---

(١) لسان العرب: (١١/ ٢١).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن: (٢/ ٥٠٧).

(٣) أبو عبيدة: مَعمَرُ بنُ المُثنَّى التيميُّ مولاهم، البصري، النحوي، صاحب التصانيف، ولد في سنة: (١١٠هـ)، حَدَّثَ عنه عليُّ بنُ المَدِينيّ، وأبو عُبيدِ القاسمُ بن سَلَّامٍ... وغيرُهُم. تُوُفِّيَ سنةَ: (٢١٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء: (٩/ ٤٤٥ ـ ٤٤٧).

(٤) مجاز القرآن: (١/ ٢٦٨).

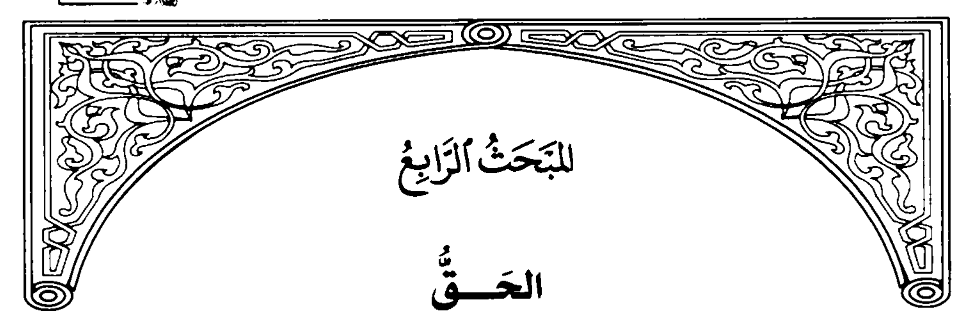
قال ابنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾؛ أي: ارضَ عنِّي في ذلك واجْعَلهُ فِعلًا مَقبولًا مُجازًى به»[(١)].

وقال أبو السُّعودِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «التَّقبُّلُ: أَخْذُ الشَّيءِ على وَجهِ الرِّضا»[(٢)].

❁ ❁ ❁

(١) المحرر الوجيز: (١/ ٤٢٤).

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: (١/ ٣٦٠).



المَبحَثُ الرَّابِعُ

الحَــقُّ

قالَ في «الصَّحاحِ»: «الحقُّ: خِلافُ الباطلِ، والحقُّ: واحدُ الحُقوقِ، والحِقَّةُ أخصُّ منه؛ يُقالُ: هذه حِقَّتي؛ أي: حَقِّي»[(١)].

من معاني الحقِّ في القُرآنِ الكريمِ:

• الحقُّ: اللهُ تعالى؛ ومنه قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١]، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ﴾؛ يعني: الله[(٢)].

• الحقُّ: الرَّسُولُ ﷺ؛ ومنه قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]؛ أي: الرَّسُولَ ﷺ[(٣)].

• الحقُّ: القُرآنُ؛ ومنه قولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ٥]؛ أي: بالقُرآنِ[(٤)].

• الحقُّ: الإسلامُ؛ ومنه قولُهُ تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ

---

(١) الصحاح: (٤/ ١٤٦٠).
(٢) نزهة الأعين النواظر: (ص١١٠)، وانظر: جامع البيان: (١٧/ ٨٩).
(٣) زاد المسير: (١/ ١٥٨)، وانظر: جامع البيان: (٢/ ١٤٦).
(٤) نزهة الأعين النواظر: (ص١١٠)، وانظر: الجامع لأحكام القرآن: (٨/ ٣٢٣).

كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨]؛ أي: لِيُعِزَّ الإسلامَ[(١)].

• الحقُّ: العَدلُ: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٢٢]؛ أي: بالعَدلِ[(٢)].

• الحقُّ: التَّوحيدُ: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠]؛ أي: بالتَّوحيدِ[(٣)].

• الحقُّ: الوُجُوبُ؛ ومنه قولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٦]؛ أي: وَجَبَتْ[(٤)].

• الحقُّ: الحاجةُ؛ ومنه قولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]؛ أي: حاجةٍ[(٥)].

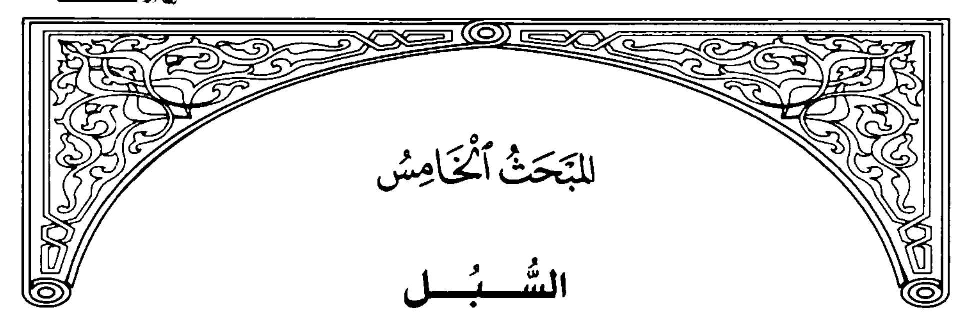
• الحقُّ: البيانُ: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]؛ أي: بَيَّنْتَ لنا[(٦)].

• الحقُّ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ ومنه قولُهُ تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤]؛ أي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ[(٧)].

ويُرادُ من كلمةِ (الحقِّ) في هذا البَحثِ: كلُّ ما هو داخلٌ تحتَ الحقِّ، سواءٌ أكانَ الإسلامَ، أم التَّوحيدَ، أم الاستقامةَ على دِينِ اللهِ، أم القَولَ الحقَّ منَ الأمرَينِ المختلَفِ فيهما.

---

(١) نزهة الأعين النواظر: (ص١١٠)، وانظر: جامع البيان: (١١/ ٥٠).
(٢) نزهة الأعين النواظر: (ص١١٠)، وانظر: جامع البيان: (٢٠/ ٥٦).
(٣) نزهة الأعين النواظر: (ص١١٠)، وانظر: الجامع لأحكام القرآن: (١٥/ ٧١).
(٤) نزهة الأعين النواظر: (ص١١١)، وانظر: جامع البيان: (٢٠/ ٢٨٢).
(٥) نزهة الأعين النواظر: (ص١١١)، وانظر: زاد المسير: (٤/ ١٣٩).
(٦) نزهة الأعين النواظر: (ص١١١)، وانظر: جامع البيان: (٢/ ١١١).
(٧) نزهة الأعين النواظر: (ص١١١)، وانظر: جامع البيان: (١٣/ ٤٨٥).



المَبْحَثُ الْخَامِسُ

السُّــبُــل

قالَ في «الصَّحاحِ»: «والسَّبيلُ: الطَّريقُ، يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ [يوسف: ١٠٨]؛ فأَنَّثَ، وقالَ تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦]؛ فذَكَّرَ»[١].

مِن معانِي السَّبِيلِ في القُرآنِ:

• **الطَّاعةُ**: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٦]؛ **أي**: في طاعةِ اللهِ[٢].

• **المَخرَجُ**: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨]؛ **أي**: مَخرَجًا[٣].

• **الطَّريقُ**: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٨]؛ **أي**: لا يعرِفُونَ طريقَ المدينةِ[٤].

• **الحُجَّةُ**: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن

---

(١) الصحاح: (٥/ ١٧٢٤).
(٢) نزهة الأعين النواظر: (ص١٦٣)، وانظر: جامع البيان: (٧/ ٢٢٩).
(٣) نزهة الأعين النواظر: (ص١٦٣)، وانظر: جامع البيان: (١٤/ ٦١٣).
(٤) نزهة الأعين النواظر: (ص١٦٣)، وانظر: جامع البيان: (٧/ ٣٩٠).

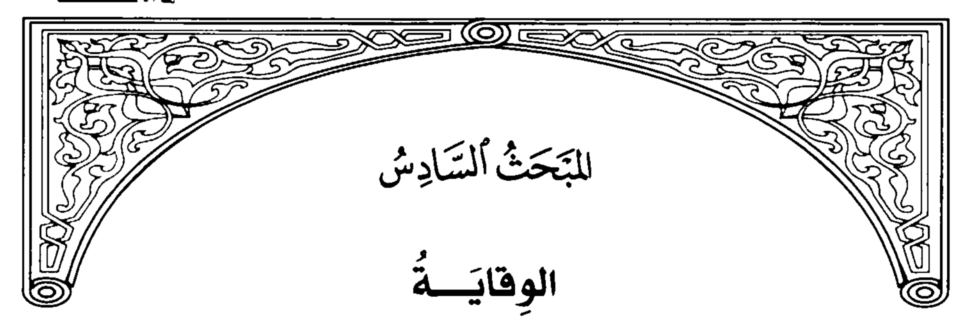
﴿يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]؛ **أي**: حُجَّةً[(١)].

● **الإثــمُ**: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]؛ **أيْ**: إثمٌ[(٢)].



(١) نزهة الأعين النواظر: (ص١٦٣)، **وانظر**: جامع البيان: (٧/ ٦١١).

(٢) نزهة الأعين النواظر: (ص١٦٤)، **وانظر**: زاد المسير: (١/ ٤٠٩).



المَبحثُ السَّادِسُ

الوِقايَــةُ

قالَ ـ في «القاموسِ المحيطِ» ـ: «وَقاهُ وَقْيًا ووِقايةً ووَاقِيةً: صانَهُ؛ كوَقَّاهُ، والوَقاءُ، ويُكسَرُ، والوَقايةُ مُثَلَّثَة: ما وَقَيْتَ به، والتَّوقِيَةُ: الكَلاءةُ، والحِفظُ»(١).

معنَى الوِقايةِ في القُرآنِ الكريمِ:

وَرَدَ لفظُ: (الوِقايةِ) في آياتِ القُرآنِ الكريمِ بمَعنَى حِفظِ الشَّيءِ مما يُؤذِيهِ ويَضُرُّهُ(٢).

فمنها قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ قال البَغَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾؛ يَعنِي: الدُّرُوعَ، والبأسُ: الحَربُ؛ يَعنِي: تَقِيكُمْ في بأسِكُم السِّلاحَ؛ أن يُصِيبَكُم(٣).

وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ [الإنسان: ١١]؛ قالَ

---

(١) القاموس المحيط: (ص١٢٣٣).

(٢) المفردات في غريب القرآن: (٢/ ٦٨٨).

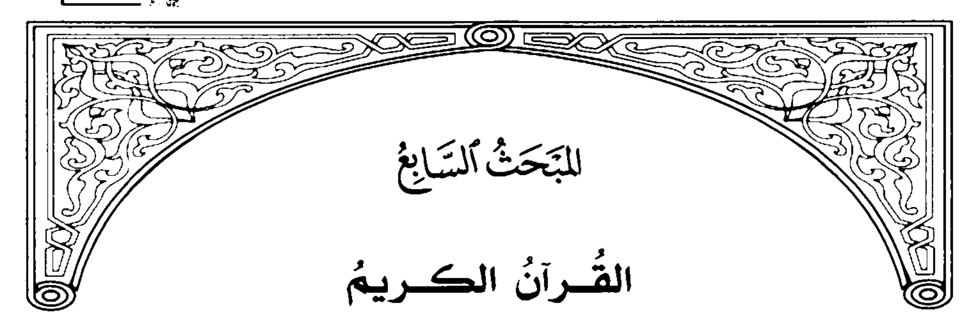
(٣) معالم التنزيل: (٢/ ٦٢٩).

القُرطبيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أي: دفَعَ عنهُم ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾؛ أي: بأسَهُ وشِدَّتَهُ وعَذابَهُ»[1].

فهذه السُّبُلُ الَّتي ستُذكَرُ في هذا البحثِ ستكونُ بعدَ توفيقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حافظةً لِمَنِ اتَّخَذَها منَ الوُقوعِ في الأسبابِ الَّتي تَصُدُّ عن قَبولِ الحَقِّ.



(١) الجامع لأحكام القرآن: (٢١/٤٦٨).



المَبْحَثُ السَّابِعُ

القُرآنُ الكريمُ

القُرآنُ في اللُّغةِ: اختُلِفَ فيه:

١ ـ **فقيلَ**: هو اسمٌ غيرُ مُشتَقٍّ من شَيءٍ؛ بل هو اسمٌ خاصٌّ بكلامِ اللهِ المُنزَّلِ على النَّبيِّ ﷺ المُتعبَّدِ بتِلاوَتِهِ.

٢ ـ **وقيلَ**: مُشتَقٌّ مِنَ القَرْيِ؛ وهو الجَمعُ؛ ومنه: قَرَيْتُ الماءَ في الحَوضِ؛ أي: جَمَعْتُهُ، وسَبَبُ تَسميتِهِ بذلكَ: **قيلَ**: لأنَّهُ جَمَعَ السُّوَرَ بعضَها إلى بعضٍ، **وقيلَ**: لِكَونِهِ جَمَعَ ثَمَراتِ الكُتُبِ المُنزَّلةِ السَّابقةِ، **وقيلَ**: لأنَّهُ جَمَعَ أنواعَ العُلومِ.

٣ ـ **وقيلَ**: بمعنَى: أظهَرَ وبَيَّنَ؛ مِن مادَّةِ: «قَرَأَ».

٤ ـ **وقيلَ**: سُمِّيَ قُرآنًا؛ لأنَّ القِراءةَ عنه والتِّلاوةَ منه.

٥ ـ **وقيلَ**: سُمِّيَ القُرانَ بغَيرِ هَمزٍ؛ مأخوذٌ مِنَ القَرائنِ؛ لأنَّ الآياتِ يُصَدِّقُ بعضُها بعضًا، ويُشبِهُ بعضُها بعضًا[١].

القُرآنُ شَرعًا: كلامُ اللهِ تعالى المُنَزَّلُ على رسولِهِ وخاتَمِ أنبيائِهِ مُحمَّدٍ ﷺ، المَبدُوءُ بسُورةِ الفاتحةِ، المختومُ بسُورَةِ النَّاسِ[٢].

❁ ❁ ❁

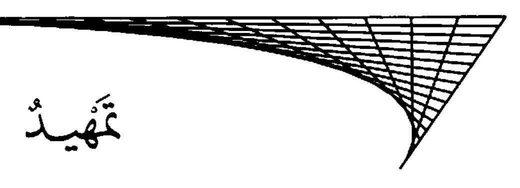
(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي: (١/ ٤٠٦ ـ ٤٠٨) بتصرف.

(٢) انظر: أصول في التفسير: (ص٨).



البَابُ ٱلْأَوَّلُ

الأسبابُ الخارجيَّةُ وسُبُلُ الوِقايةِ منها



تَمْهِيدٌ

بيانُ المرادِ بالأسبابِ الخارجيَّةِ

خَلَقَ اللهُ ﷻ الإنسانَ، وبَيَّنَ له طريقَ الخيرِ وطريقَ الشَّرِّ؛ قالَ تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «ثُمَّ أرسَلَ إليه الرُّسُلَ، وأنزَلَ عليه الكُتُبَ، وهداهُ الطَّريقَ المُوْصِلَةَ، ورَغَّبَهُ فيها، وأخبَرَهُ بما له عندَ الوُصولِ إليهِ، ثُمَّ أخبَرَهُ بالطَّريقِ المُوْصِلَةِ إلى الهلاكِ، ورَهَّبَهُ منها، وأخبَرَهُ بما له إذا سَلَكَهَا، وابتَلاهُ بذلِكَ، فانقَسَمَ النَّاسُ إلى شاكرٍ لِنعمَةِ اللهِ عليه، قائم بما حَمَّلَهُ اللهُ من حقوقِهِ، وإلى كَفُورٍ للنِّعَمِ، أنعَمَ اللهُ عليه بالنِّعَمِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، فرَدَّها، وكَفَرَ بربِّهِ، وسَلَكَ الطَّريقَ الموصلةَ إلى الهلاكِ»[(١)].

وقالَ تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أي: طريقَي الخَيرِ والشَّرِّ؛ بَيَّنَّا له الهُدَى منَ الضَّلالِ، والرُّشدَ منَ الغَيِّ؛ فهذه المِنَنُ الجزيلةُ، تَقتَضِي منَ العَبدِ أن يقومَ بحُقوقِ اللهِ، ويَشكُرَهُ على نِعَمِهِ، وأن لا يَستَعِينَ بها على معاصِي اللهِ»[(٢)].

ومِن حِكمَتِهِ ﷻ أن قَدَّرَ في هذه الدُّنيا أسبابًا للخَيرِ والهُدَى؛ مَن أَخَذَ بها، كانت سَبَبًا في هِدايتِهِ، وأسبابًا للضَّلالِ والرَّدَى؛ مَن أَخَذَ بها،

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٤/ ١٩١٦).

(٢) المصدر السابق: (٤/ ١٩٧٠).

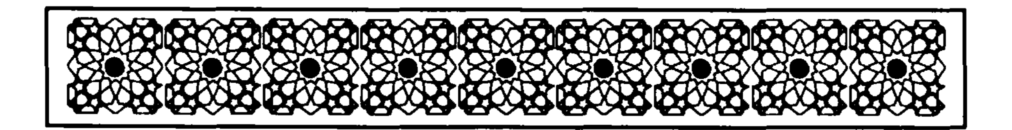
كانت سَبَبًا في إعراضِهِ عنِ الحَقِّ؛ لِيَتَبَيَّنَ المسلمُ مِنَ الكافرِ، والصَّالحُ منَ الفاسِقِ، والصَّادقُ منَ الكاذبِ[١].

فالمرادُ بالأسبابِ الخارجيَّةِ في هذا البَحثِ: هي تلكَ الأسبابُ الَّتي تكونُ من خارجِ نفسِ الإنسانِ وذاتِهِ؛ فهي أسبابٌ خارجيَّةٌ تُواجِهُ الإنسانَ وتجعلُهُ يُعرِضُ عنِ الحَقِّ ولا يَقبَلُهُ.

وهذه الأسبابُ بحَسَبِ تفاوُتِها في قُوَّةِ التَّأثيرِ على الإنسانِ تواجِهُهُ في حياتِهِ اليوميَّةِ، وقد يكونُ أحدُ هذه الأسبابِ أو جميعُها سَبَبًا في إعراضِ الإنسانِ عنِ الحَقِّ.



(١) **انظر**: المصدر السابق: (٣/ ١٣٠٢ ـ ١٣٠٣).

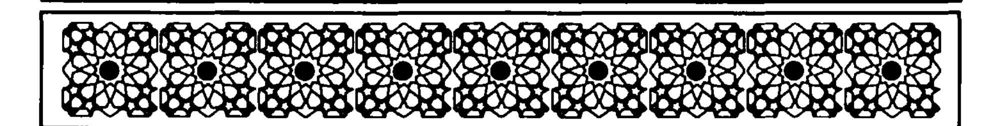


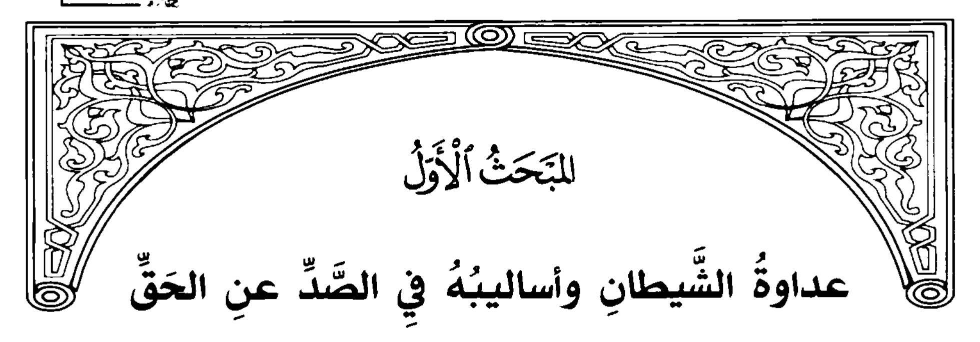
الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

الأسبابُ الخارجيَّةُ

ويَحتَوِي على ثلاثة مباحث:

- المبحثُ الأوَّلُ: عداوةُ الشَّيطانِ وأساليبُهُ في الصَّدِّ عنِ الحَقِّ.
- المبحثُ الثَّاني: الفِتَنُ
- المبحثُ الثَّالثُ: قُرناءُ السُّوءِ.





المَبْحَثُ الأَوَّلُ

عداوةُ الشَّيطانِ وأساليبُهُ في الصَّدِّ عنِ الحَقِّ

في بدايةِ الحديثِ عن عـداوةِ الشَّيطانِ يَحسُنُ بنا التَّعرُّفُ على معنَى (الشَّيطانِ) لُغةً.

وقدِ اختَلَفُوا في اشتقاقِهِ على قَولَينِ:

القَولُ الأوَّلُ: مِن: شَطَـنَ؛ إذا بَعُدَ؛ فالنُّونُ فيه أصليَّةٌ؛ يقالُ: شَطَنَتْ دارُهُ إذا بَعُدَتْ، وبِئرٌ شَطُونٌ؛ أي: بعيدةُ القَعرِ، والشَّطَنُ: الحَبْلُ سُمِّيَ به؛ لبُعدِ طَرَفَيهِ وامتدادِهِ، وسُمِّيَ الشَّيطانُ شَيطَانًا؛ لبُعدِهِ عنِ الحَقِّ وتمرُّدِهِ.

القولُ الثَّاني: مِن شَاطَ يَشِيطُ؛ إذا هَلَكَ؛ فالنُّونُ فيه زائدةٌ، وشاطَ إذا احتَرَقَ، وشَيَّطتَّ اللَّحمَ: إذا دَخَّنْتَهُ ولم تُنضِجْهُ، والشَّيطانُ مُشتَقٌّ من: شاطَ؛ لأنَّه مخلوقٌ من نارٍ(١).

قالَ ابنُ عَطِيَّةَ: «ويَرِدُ على هذه الفُرقةِ أنَّ سيبويهِ(٢) حَكَى أنَّ العربَ تقولُ: تَشَيْطَنَ فلانٌ إذا فَعَلَ أفعالَ الشَّياطينِ، فهذا بَيِّنٌ أنَّه «تَفَيْعَلَ» مِن:

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: (١/ ١٤٠)، بتصرف.

(٢) سيبويه: أبو بشر عمرُو بنُ عثمانَ بن قَنبَرٍ الفارسيُّ ثم البصريُّ، طَلَبَ الحديثَ والفقهَ مُدَّةً، ثم أقبَلَ على العربيَّةِ فبَرَعَ وسادَ أهلَ العصرِ، أَخَذَ النَّحوَ عن عيسى بن عمر، ويونسَ بنِ حبيبٍ، والخليلِ... وغيرِهِم، توفي سنة: (١٨٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء: (٨/ ٣٥١ ـ ٣٥٢).

شَطَنَ، ولو كانَ من شاطَ، لقالُوا: تَشَيَّطَ»[١].

وصَحَّحَ ابنُ كثيرٍ المعنَى الأوَّلَ[٢].

وقد جاءَ ذِكرُ (الشَّيطانِ) في القُرآنِ على أربعةِ أوجُهٍ:

- **الرُّؤساءُ في الكُفرِ**: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤][٣].
- **الكاهنُ**: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾[٤].
- **الطَّاغِي منَ الجِنِّ والإنسِ**: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢][٥].
- **الحَيَّةُ**: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥][٦].



(١) المحرر الوجيز: (١/ ٥٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم: (١/ ١١٥).
(٣) نزهة الأعين النواظر: (ص١٦٩)، وانظر: جامع البيان: (١/ ٣٠٧).
(٤) نزهة الأعين النواظر: (ص١٦٩)، وانظر: زاد المسير: (١/ ٣٥).
(٥) نزهة الأعين النواظر: (ص١٦٩)، وانظر: زاد المسير: (٣/ ١٠٨).
(٦) نزهة الأعين النواظر: (ص١٦٩)، وانظر: زاد المسير: (١٩/ ٥٥٤).

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

عداوةُ الشَيطانِ

بَدأتْ عداوةُ الشَّيطانِ للإنسانِ منذُ أن خَلَقَ اللهُ آدمَ عليه السلام؛ فهو «عداءٌ بعيدُ الجُذُورِ؛ يعودُ تاريخُهُ إلى اليومِ الَّذي صَوَّرَ اللهُ فيه آدمَ، قبلَ أن يَنفُخَ فيه الرُّوحَ، فأخَذَ الشَّيطانُ يُطِيفُ به؛ ففي «صحيحِ مسلمٍ» عن أنسٍ رضي الله عنه؛ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: (**لَـمَّا صَـوَّرَ اللهُ آدَمَ فِي الجَنَّةِ، تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَن يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ؛ يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ، عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتَمَالَكُ**)[1]»[2].

وقد وَرَدَتْ في القُرآنِ الكريمِ آياتٌ كثيرةٌ تَدُلُّ على عداوةِ الشَّيطانِ؛ منها قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]، وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢]، وقولُهُ تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ

---

(١) صحيح مسلم: (١٢١١/٢) كتاب البر والصلة والآداب، باب خلق الإنسان خلقًا لا يتمالك، حديث رقم: (٢٦١١).

(٢) عالم الجن والشياطين: (ص٧١).

أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]، وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥]، وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٦٢].

فهذه الآياتُ دَلَّتْ دَلالةً واضحةً على عداوةِ الشَّيطانِ؛ بل على شِدَّةِ عداوتِهِ للإنسانِ، وقد وَصَفَهُ ﷻ في أكثرِ الآياتِ بقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢]؛ أي: بَيِّنُ العداوةِ؛ قد أظهَرَ عداوتَهُ لكم؛ قالَ الإمامُ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: «بَيِّنٌ ظاهرُ العداوةِ»(١).

وقالَ تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]؛ قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقولُ تعالى مُحذِّرًا بني آدَمَ من إبليسَ وقَبيلِهِ، ومُبَيِّنًا لهم عداوتَهُ القديمةَ لأبي البَشَرِ آدَمَ عليه السلام في سَعيِهِ في إخراجِهِ منَ الجنَّةِ الَّتي هي دارُ النَّعيمِ إلى دارِ التَّعَبِ والعَناءِ،

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٣/ ٣٥١).

والتَّسبُّبِ في هَتكِ عَورَتِهِ بعدَما كانت مَستورةً عنه، وما هذا إلَّا عن عداوةٍ أكيدَةٍ، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]»[(١)].

«وقد أطالَ القُرآنُ في تَحذيرِنا منَ الشَّيطانِ لِعِظَمِ فِتنَتِهِ، ومهارتِهِ في الإضلالِ، ودَأْبِهِ وحِرصِهِ على ذلك: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقالَ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقالَ: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

وعداوةُ الشَّيطانِ لا تَحُولُ ولا تزولُ؛ لأنَّه يَرَى أن طَرْدَهُ ولَعْنَهُ وإخراجَهُ منَ الجنَّةِ كانَ بسَبَبِ أبِينَا آدَمَ؛ فلا بُدَّ من أن يَّنتَقِمَ من آدَمَ وذُرِّيَّتِهِ مِن بَعدِهِ: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]»[(٢)].

وممَّا يَدُلُّ على عداوةِ الشَّيطانِ للإنسانِ:

أَوَّلًا: إباؤُهُ السُّجودَ لآدَمَ عليه السلام:

منَ الأدِلَّةِ الَّتِي تُبَيِّنُ عداوةَ الشَّيطانِ لبَنِي آدَمَ إباؤُهُ السُّجودَ لآدَمَ عليه السلام حِينَ أَمَرَهُ اللهُ تعالى هو والملائكةَ بالسُّجودِ لآدَمَ عليه السلام تكريمًا وتَشريفًا لآدَمَ عليه السلام؛ فسَجَدَ الملائكةُ كُلُّهُم وامتَنَعَ إبليسُ؛ حِقْدًا وحَسَدًا لآدَمَ،

---

(١) المصدر السابق: (٣/ ٤٠٢).

(٢) عالم الجن والشياطين: (ص٧٢ ـ ٧٣).

وتَكَبُّرًا، وعِصيانًا لأمرِ اللهِ ﷻ، **وقد بَيَّنَ اللهُ ﷻ ذلكَ في أكثرَ مِن مَوضِعٍ منَ القُرآنِ الكريمِ:**

قالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١١، ١٢]، وقالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]... وغيرَ ذلكَ منَ الآياتِ الَّتِي دَلَّتْ على هذا المعنَى؛ فكانت هذه هي بدايةَ عداوةِ إبليسَ لآدَمَ؛ وهو عدمُ السُّجودِ له.

وقالَ تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣١].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وهذه أوَّلُ عداوتِهِ لآدَمَ وذُرِّيَّتِهِ قالَ اللهُ: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٢، ٣٣]، فاستَكْبَرَ على أمرِ اللهِ، وأبدَى العداوةَ لآدَمَ وذُرِّيَّتِهِ، وأُعجِبَ بعُنصُرِهِ، وقالَ: أنا خَيرٌ من آدَمَ»[1].

وقالَ ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «أمَّا كَيدُهُ لنفسِهِ، فإنَّهُ كانَ يَطوفُ بآدَمَ وهو صَلصالٌ كالفَخَّارِ[2]؛ فيَتَعَجَّبُ منه، ويقولُ: لِأمْرٍ عظيمٍ خُلِقَ هذا، ولَئِنْ سُلِّطَ عَلَيَّ، لَأَعصِيَنَّهُ، ولَئِنْ سُلِّطتُ عليه، لَأُهلِكَنَّهُ؛ فَلَمَّا تَمَّ خلقُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في أحسَنِ تقويمٍ، رأى الملائكةُ مَنظَرًا لم يُشاهِدُوا أحسَنَ منه؛

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٨٦٢).
(٢) **الفخَّار**: ضربٌ منَ الخزفِ معروفٌ تُعمَلُ منه الجِرارُ والكيزانُ وغيرُها. **انظر**: لسان العرب: (١٠/ ١٩٩).

فَسَجَدُوا كُلُّهُم أجمعُونَ بأمرِ ربِّهِم؛ فشَقَّ ذلكَ على إبليسَ؛ فسَوَّلَتْ له نفسُهُ بأنَّ في سُجُودِهِ لآدَمَ غَضاضَةً عليهِ؛ إذ يَلزَمُ أن يخضعَ لِـمَنْ دُونَهُ في زَعمِهِ؛ لكونِهِ مخلوقًا من نارٍ، والنَّارُ في زَعمِهِ أشرَفُ منَ الطِّينِ؛ فالمخلوقُ منها خَيرٌ منَ المخلوقِ منه، وخضوعُ الأفضَلِ لِـمَنْ دُونَهُ غضاضةٌ عليه، وهَضمٌ لِـمَنزِلَتِهِ؛ فلمَّا وَقَعَ هذا الفِكرُ في قَلبِهِ قارَنَهُ الحَسَدُ؛ فأبَى منَ السُّجودِ وعارَضَ نَصَّ المعبودِ برأيِهِ المردودِ، وقالَ: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، ثُمَّ قَرَّرَ ذلكَ بحُجَّتِهِ الدَّاحضةِ؛ حيثُ قالَ: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]، ولو يَعلَمُ أنَّه لوِ امتَثَلَ أمرَهُ تعالى، لكانَ فيه عِزُّهُ وسعادتُهُ، وبالامتناعِ أهانَ نفسَهُ كُلَّ الإهانةِ؛ من حيثُ أرادَ تعظيمَها، وأذَلَّها كُلَّ الإذلالِ من حيثُ أرادَ عِزَّتَها، ووَضَعَها كُلَّ الوَضعِ من حيثُ أرادَ رِفعَتَها؛ ففَعَلَ بنفسِهِ ما لوِ اجتَهَدَ أعظَمُ أعدائِهِ أن يفعلَ به ذلكَ، لم يَبلُغْ ذلكَ المبلَغَ، ومَن كانَ غِشُّهُ لنفسِهِ هكذا كيفَ يختارُ العاقلُ أن يَتَّبِعَهُ ويَقبَلَ وَسوَسَتَهُ؟!»[1].

وقالَ ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللهُ، عندَ قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]: «**يعني جلَّ ثناؤه**: أنَّه قد أبانَ لكم عداوتَهُ بإبائِهِ السُّجودَ لأبيكُمْ، وغُرُورَهُ إيَّاهُ حتَّى أخرجَهُ منَ الجنَّةِ، واستَزَلَّهُ بالخطيئةِ، وأكَلَ منَ الشَّجرةِ، يقُولُ جلَّ ثناؤُهُ: فلا تَنتَصِحُوهُ أيُّها النَّاسُ مع إبانتِهِ لكمُ العداوةَ، ودَعُوا ما يأمُرُكُم به، والْزَمُوا طاعتي فيما أمرتُكُم به، ونهيتُكُم عنه؛ ممَّا أحلَلْتُهُ لكم، وحرَّمْتُهُ عليكم، دونَ ما حرَّمتُمُوه أنتم على أنفسِكُم وحلَّلتُمُوهُ؛ طاعةً منكم للشَّيطانِ واتِّباعًا لأمرِهِ»[2].

---

(١) رسالة متعلقة بكيد الشيطان لنفسه قبل آدم ﷺ: (ص٨٤ ـ ٨٨).
(٢) جامع البيان: (٣/ ٣٧).

ثانيًا: تَسبُّبُهُ في إغواءِ آدَمَ عليه السلام وخروجِهِ منَ الجنَّةِ:

مِن أبرَزِ الأدلَّةِ على عداوةِ الشَّيطانِ لآدَمَ عليه السلام وبَنِيهِ تَسبُّبُهُ في إغواءِ آدمَ عليه السلام وخروجِهِ منَ الجنَّةِ؛ فقد قَصَّ اللهُ علينا في كتابِهِ الكريم أنَّهُ أمَرَ آدَمَ عليه السلام وزَوجتَهُ حواءَ بسُكنَى الجنَّةِ، والأكلِ منها حيثُ شاءَا، ونهاهُ عنِ الأكلِ من شجرةٍ بعَينِها[1]، قالَ تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

قالَ السَّعديُّ رحمه الله: «لـمَّا خلَقَ اللهُ آدَمَ وفَضَّلَهُ، أتَمَّ نِعمَتَهُ عليه؛ بأنْ خلَقَ منه زَوجَهُ لِيَسْكُنَ إليها، ويَستَأنِسَ بها، وأمَرَهُما بسُكنَى الجنَّةِ والأكلِ منها؛ ﴿رَغَدًا﴾؛ أي: واسعًا هَنِيئًا، ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾؛ أي: مِن أيِّ أصنافِ الثِّمارِ والفواكهِ، وقالَ اللهُ له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]»[2].

فلَمَّا رَأى الشَّيطانُ ذلكَ التَّشريفَ لآدَمَ، وتِلكَ الكرامةَ له مِنَ اللهِ بإدخالِهِ الجنَّةَ، حَسَدَهُ على ذلكَ، وحاوَلَ بشَتَّى الطُّرُقِ في إخراجِهِ مِنَ الجنَّةِ، ووَجَدَ الفُرصَةَ في تلكَ الشَّجرةِ الَّتِي نَهَى اللهُ آدَمَ وزوجتَهُ عنِ الأكلِ منها، وجعَلَهَا طَرِيقًا له لأن يُغوِيَ آدَمَ وزَوجَتَهُ، ويُوقِعَهُما في معصيةِ اللهِ عز وجل؛ فاستخدَمَ عدُوُّ اللهِ إبليسُ بخِداعِهِ ومَكرِهِ بعضَ الطُّرُقِ الَّتِي تجعلُ آدَمَ وزوجتَهُ يَأكلانِ من تلكَ الشَّجرةِ الَّتِي نهاهُما اللهُ عنها، **وهذه الطُّرُقُ هي:**

١ ـ زَعمُهُ أنَّ أكلَهُما مِنَ الشَّجرةِ سَبَبٌ لأن يكونَا مَلَكَيْنِ.

٢ ـ زَعمُهُ أنَّ أكلَهُما منَ الشَّجرةِ سَبَبٌ في خُلودِهِما في الجنَّةِ.

٣ ـ القَسَمُ لهما.

---

(١) لا يوجد دليل على تعيين تلك الشجرة. انظر: جامع البيان: (١/ ٥٥٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٥٦).

٤ ـ ظُهورُهُ أمامَهُما في لباسِ النَّاصِحِينَ.

وهذه الطُّرُقُ بَيَّنَها اللهُ ﷻ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٩، ٢٠].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يَذكُرُ تعالى أنَّهُ أباحَ لآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ولِزَوجَتِهِ حوَّاءَ الجنَّةَ؛ أن يَأكُلا منها من جميعِ ثمارِها إلَّا شجرةً واحدةً؛ فعندَ ذلكَ حَسَدَهُما الشَّيطانُ، وسَعَى في المَكرِ والخديعةِ والوَسوَسَةِ؛ لِيُسْلَبَا ما هما فيه منَ النِّعمةِ واللِّباسِ الحَسَنِ، وقالَ ـ كَذِبًا وافتراءً ـ: ما نَهاكُما رَبُّكما عن أكلِ هذه الشَّجرةِ إلَّا لِتَكُونا مَلَكَينِ؛ أيْ: لِئَلَّا تَكُونَا مَلَكَينِ خالدَينِ هاهنا، ولو أنَّكُما أكَلْتُما منها، لَحَصَلَ لَكُما ذلكَ؛ كما قالَ اللهُ عنه: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]؛ أي: لِئَلَّا تكونَا مَلَكَينِ... ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ [الأعراف: ٢١]؛ أي: حَلَفَ لهما باللهِ: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]؛ فإنِّي من قَبْلِكُما هاهنا وأعلَمُ بهذا المكانِ»(١).

ثالثًا: تَصَيُّدُهُ للمَداخلِ على آدَمَ وذُرِّيَّتِهِ:

ومِن مَكْرِ الشَّيطانِ بابنِ آدَمَ حِرصُهُ على معرفةِ المَدخَلِ المؤثِّرِ المُغرِي الَّذي يَدخُلُ من خلالِهِ إلى الإنسانِ؛ فيَتَعَرَّفُ على مُيُولِ الإنسانِ ورغباتِهِ؛ فيَدخُلُ من خلالِها على الإنسانِ؛ فإنَّه لمَّا عَرَفَ أنَّ آدَمَ وحوَّاءَ يُريدانِ الخُلُودَ في الجنَّةِ، جَعَلَ هذه الرَّغبةَ سَبيلًا إلى تنفيذِ مخطَّطِهِ؛

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٣/ ٣٩٧) باختصار.

قالَ ابنُ الجَوزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «فإنَّ اللَّعينَ لمَّا عَرَفَ أنَّ الأبوَينِ يُريدانِ الخُلُودَ في الجنَّةِ، وعَلِمَ أنَّهما إذا أكَلَا منَ الشَّجرةِ المَنهِيَّةِ تَبدُو عَورَاتُهُما، ويَخرُجانِ منَ الجنَّةِ، قالَ لهما: إنِّي خُلِقتُ قَبلَكُما، وإنِّي أعلَمُ مِنكُما فاتَّبِعَانِي، أُرشِدْكُما إلى شجرةِ الخُلدِ فخَدَعَهُما حيثُ سَمَّى تلكَ الشَّجرةَ: «شَجَرَةَ الخُلدِ»، فلَمَّا سَمَّاها شجرةَ الخُلدِ، وقالَ: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، قالَ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٠] إلَّا كراهيةَ أن تَأكُلَا منها، وتَخلُدَا في الجنَّةِ، ولا تَمُوتَا، وتكونا كالملائكةِ الَّذينَ لا يَمُوتُونَ، وحَلَفَ لهما أنَّهُ ناصحٌ حتَّى اطمَأنَّ قَلبُهُما به، وأجابا إلى ما دعاهما إليه؛ فجَرَى عليهما منَ المِحنَةِ، والخُروجِ منَ الجنَّةِ، ونَزْعِ اللِّباسِ عنهما ما جَرَى، وكانَ ذلكَ بِكَيدِهِ ومَكرِهِ الَّذي جَرَى به القَلَمُ»[١].

لكنَّ اللهَ بفَضلِهِ وكَرَمِهِ وجُودِهِ امتَنَّ على أبينا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتَّوبةِ من هذا الذَّنبِ وهو الأكلِ منَ الشَّجرةِ الَّتِي نُهِيَ عنِ الأكلِ منها؛ قالَ تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، قالَ ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ اللهَ ـ تعالى ذِكرُهُ ـ لَقَّى آدَمَ كلماتٍ تَلَقَّاهُنَّ آدَمُ من رَبِّهِ فقَبِلَهُنَّ، وعَمِلَ بِهِنَّ، وتابَ ـ بِقِيلِهِ إيَّاهُنَّ وعَمَلِهِ بِهِنَّ ـ إلى اللهِ من خطيئتِهِ مُعتَرِفًا بذَنبِهِ مُتَنَصِّلًا[٢] إلى رَبِّهِ من خَطِيئَتِهِ، نادِمًا على ما سَلَفَ منه من خلافِ أمرِهِ؛ فتابَ اللهُ عليه بقَبُولِهِ الكلماتِ الَّتِي تَلَقَّاهُنَّ منه، ونَدَمِهِ على سالفِ الذَّنْبِ منه»[٣].

---

(١) رسالة متعلقة بكيد الشيطان لنفسه قبل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: (ص٨٩ ـ ٩٠).
(٢) مُتَنَصِّلًا: تَنَصَّلَ إليه منَ الجنايةِ: خَرَجَ وتَبَرَّأَ. انظر: القاموس المحيط: (ص٩٨١).
(٣) جامع البيان: (١/ ٥٨٦).

رابعًا: قَسَمُهُ على إضلالِ العبـادِ:

إنَّ ممَّا يَدُلُّ على عداوةِ الشَّيطانِ لآدَمَ وبَنِيهِ قَسَمُهُ على إضلالِ بني آدَمَ؛ جاءَ هذا مُوَضَّحًا في آياتٍ كثيرةٍ من آياتِ القُرآنِ الكريم.

قـالَ تـعـالـى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٧ ـ ١١٩].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فكَمَا أبعَدَهُ اللهُ من رَحمتِهِ؛ يَسعَى في إبعادِ العِبادِ من رحمةِ اللهِ ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، ولهذا أخبَرَ اللهُ عن سَعيِهِ في إغواءِ العبادِ، وتَزيينِ الشَّرِّ لهم والفسادِ، وأنَّهُ قالَ لرَبِّهِ مُقسِمًا: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾؛ أي: مُقدَّرًا، عَلِمَ اللَّعِينُ أنَّهُ لا يَقدِرُ على إغواءِ جميعِ عبادِ اللهِ، وأنَّ عبادَ اللهِ المُخلَصِينَ ليسَ له عليهم سُلطانٌ؛ وإنَّما سُلطانُهُ على مَن تَوَلَّاهُ، وآثَرَ طاعتَهُ على طاعةِ مَولاهُ.

وأقسَمَ في موضعٍ آخَرَ لَيُغوِيَنَّهُم: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، فهذا الَّذي ظَنَّهُ الخَبيثُ، وجَزَمَ به أخبَرَ اللهُ تعالى بوُقُوعِهِ؛ بقَولِهِ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠]، وهذا النَّصِيبُ المفروضُ الَّذي أقسَمَ لله: أنَّه يَتَّخِذُهُم ـ: ذَكَرَ ما يُرِيدُ بهم، وما يَقصِدُهُ لهم؛ بقَولِهِ: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٩]؛ أي: عنِ الصِّراطِ المستقيمِ، ضَلالًا في العِلمِ، وضَلالًا في العَمَلِ»[1].

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩).

بل أقسَمَ الشَّيطانُ أنَّهُ سَيبذُلُ غايةَ جُهدِهِ في الإغواءِ والإضلالِ، وأنَّهُ سَيُواجِهُ الإنسانَ في كلِّ طريقٍ؛ من أَجْلِ إبعادِهِ عنِ اللهِ ﷻ.

قالَ تعالَى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

قالَ الشَّيخُ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أيْ: قالَ إبليسُ ـ لمَّا أُبلِسَ وأَيِسَ من رَّحمةِ اللهِ ـ: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾؛ أي: للخَلقِ ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: لَأَلْزَمَنَّ الصِّراطَ، ولَأَسْعَى غايةَ جُهدِي على صَدِّ النَّاسِ عنه، وعدمِ سُلُوكِهِمْ إيَّاهُ، ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ﴾؛ أي: مِن جميعِ الجهاتِ والجوانبِ، ومِن كُلِّ طريقٍ يَتَمَكَّنُ فيه من إدراكِ بعضِ مقصودِهِ فيهم، ولمَّا عَلِمَ الخبيثُ أنَّهُم ضُعفاءُ قد تَغْلِبُ الغَفلةُ على كثيرٍ منهم، وكانَ جازِمًا ببَذلِ مجهودِهِ على إغوائِهِم، ظَنَّ وصَدَقَ ظَنُّهُ؛ فقالَ: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾؛ فإنَّ القيامَ بالشُّكرِ من سُلوكِ الصِّراطِ المستقيمِ، وهو يريدُ صَدَّهُم عنه، وعدمَ قيامِهِم به؛ قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]»[١].

وأخبَرَ ﷻ في آيةٍ أُخرَى أنَّهُ أقسَمَ على إغواءِ العبادِ، وعلى تَزيِينِ الأعمالِ السَّيِّئةِ لهم؛ فقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

قالَ القُرطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وتَزيِينُهُ هنا يكونُ بوَجهَينِ: إمَّا بفِعلِ المعاصي، وإمَّا بشَغلِهِم بزينَةِ الدُّنيا عن فِعلِ الطَّاعةِ، ومعنى

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٥٣٦ ـ ٥٣٧).

﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩﴾؛ أي: لأُضِلَّنَّهم عن طريقِ الهُدَى.

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (إِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ: يَا رَبِّ، وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ لَا أَزَالُ أُغْوِي بَنِي آدَمَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَامِهِمْ، فَقَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي)[1]»[2]، ومِن هذا المعنَى قولُهُ تعالى - في سُورةِ ص -: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

والشَّيطانُ لا يَزالُ يَبذُلُ غايةَ جُهدِهِ في إضلالِ بنِي آدَمَ؛ يَدُلُّ عليهِ الحديثُ المُتقدِّمُ، وطَلَبُهُ منَ الرَّبِّ أن يُنْظِرَه إلى يومِ يُبعَثُونَ؛ كما قالَ اللهُ تعالى عنه: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤]، وإنَّما طَلَبَ الإنظارَ لأجْلِ أن يكونَ له وقتٌ طويلٌ يَتَمَكَّنُ فيه من إغواءِ الكثيرِ من بني آدَمَ.

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَلَمَّا أعلَنَ عَدُوُّ اللهِ بعَداوةِ اللهِ، وعداوةِ آدَمَ وذُرِّيَّتِهِ، سَأَلَ اللهَ النَّظِرَةَ والإمهالَ إلى يومِ البَعثِ؛ لِيَتَمَكَّنَ من إغواءِ ما يَقدِرُ عليه من بنِي آدَمَ، ولمَّا كانت حِكمةُ اللهِ مُقتَضِيَةً لابتلاءِ العبادِ، واختبارِهِم لِيَتَبَيَّنَ الصَّادقُ منَ الكاذبِ، ومَن يُطِيعُهُ مِمَّن يُطِيعُ عَدُوَّهُ، أجابَهُ لِما سَأَلَ؛ فقالَ: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥]»[3].

لكنْ من فَضلِ اللهِ ﷻ أنَّهُ لم يَجعَلْ للشَّيطانِ على عبادِهِ المؤمنِينَ المخلَصِينَ سَبِيلًا؛ كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]؛ قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إخبارٌ بتأييدِهِ تعالى عبادَهُ المؤمنِينَ، وحِفظِهِ إيَّاهُم، وحِراسَتِهِ لهم منَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ؛ ولهذا قالَ:

---

(١) مسند الإمام أحمد: (١٧/ ٣٣٧)، حديث رقم: (١١٢٣٧)، قال الأرنؤوط: «حديث حسن».
(٢) الجامع لأحكام القرآن: (١٢/ ٢١٢).
(٣) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٥٣٦).

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾؛ أي: حافِظًا ومُؤَيِّدًا وناصِرًا[(١)]»[(٢)].

ولمَّا أقسَمَ إبليسُ على إضلالِ العبادِ، استثنَى منهم طائفةَ المؤمِنينَ المُخلَصِينَ الَّذينَ اصطَفاهُمُ اللهُ ﷻ، كما قالَ اللهُ تعالى عنه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]: قالَ القُرطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أي: الَّذِينَ أَخلَصْتَهُم[(٣)] لِعبادَتِكَ، وعَصَمْتَهُم منِّي»[(٤)].

وقالَ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أي: الَّذِينَ أَخلَصْتَهُمْ، واجْتَبَيْتَهُم لإخلاصِهِم وإيمانِهِم وتَوَكُّلِهِم»[(٥)].

• **فيَتَلَخَّصُ ممَّا سَبَقَ**: أنَّ الشَّيطانَ من أعظَمِ أسبابِ صَدِّ بني آدَمَ عن قَبولِ الحَقِّ، والوُقوعِ في الضَّلالِ؛ حيثُ إنَّهُ كانَ سَبَبًا كبيرًا في خُروجِ أبينا آدَمَ عليه السلام منَ الجنَّةِ؛ فما زَالَ يُغوِيهِ حتَّى صَدَّهُ عن طاعةِ رَبِّهِ فِي الانتهاءِ عنِ الأكلِ منَ الشَّجرةِ الَّتِي نهاهُ رَبُّهُ عنِ الأكلِ منها؛ قالَ تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٥/ ٩٥).

(٢) قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «لعلَّ قائلًا يقولُ: قد أخبر الله عن صفة آدم وحواء عليهما السلام بقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [البقرة: ٣٦]، وعن جملة من أصحاب نبيه بقوله: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥]: فالجوابُ ما ذُكِرَ؛ وهو أنَّه ليسَ له سُلطانٌ على قلوبِهم، ولا موضعِ إيمانِهم، ولا يُلقِيهم في ذنبٍ يؤولُ إلى عدمِ القَبولِ، بل تُزِيلُهُ التوبةُ * وتمحوهُ الأوبةُ». انظر: الجامع لأحكام القرآن: (١٢/ ٢١٣).

(٣) قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف: (**المُخْلَصِينَ**)؛ بفتح اللام؛ أي: الذين استخلصْتَهُم وأخلَصْتَهُم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب: (**المُخْلِصِينَ**)؛ أي: الذين أخلصوا لك العبادة من فساد ورياء. **انظر**: إتحاف فضلاء البشر: (٢/ ٤٢٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن: (١٨/ ٢٤٠). (٥) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٨٦٢).

والشَّيطانُ منذُ ذلكَ الوقتِ إلى يَومِنا هذا لا زالَ يُغوِي بنِي آدَمَ، ويَصُدُّهُم عن سبيلِ اللهِ وعنِ الصِّراطِ المستقيم، ولا أدَلَّ على ذلكَ من قَسَمِهِ على إغواءِ العبادِ؛ ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، وقد سَبَقَ فِي حديثِ أبي سَعيدٍ الخُدرِيِّ ﷺ المُتقدِّمِ[1]، وطَلَبِ النَّظِرَةِ إلى يَومِ القيامةِ؛ حتَّى يَتَمكَّنَ من صَدِّ النَّاسِ عنِ الحَقِّ الَّذي منه الدُّخولُ في الإسلامِ، وسُلوكُ منهجِ السَّلفِ الصَّالحِ، والاستقامةُ على طاعةِ اللهِ ﷻ، والثَّباتُ عليها؛ فكُلُّ هذه الأمورِ العظيمةِ يَسعَى الشَّيطانُ في صَدِّ النَّاسِ عنها، وإيقاعِهِم في الكُفرِ، والشِّركِ، والبِدَعِ، والمعاصِي؛ بل كُلُّ ما يَدخُلُ في معنَى الحَقِّ؛ فإنَّ الشَّيطانَ يَسعَى في الصَّدِّ عنهُ.

«وهو لا يَكتَفِي بدَعوةِ النَّاسِ إلى الكُفرِ والذُّنوبِ والمعاصِي، بل يَصُدُّهُم عن فِعلِ الخَيرِ؛ فلا يَترُكُ سَبِيلًا من سُبُلِ الخَيرِ يَسلُكُهُ عبدٌ من عبادِ اللهِ إلَّا قَعَدَ فيه يَصُدُّهُم، ويَمِيلُ بهم»[2]؛ يَدُلُّ عَلَى ذلكَ قولُهُ ﷺ: (**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ؛ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلَامِ؛ فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ آبَائِكَ؟! فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الهِجْرَةِ؛ فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟! وَإِنَّمَا مَثَلُ المُهَاجِرِ كَمَثَلِ الفَرَسِ فِي الطِّوَلِ**[3]**؛ فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الجِهَادِ؛ فَقَالَ: تُجَاهِدُ، فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالمَالِ؛ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ؛ فَتُنْكَحُ المَرْأَةُ، وَيُقْسَمُ المَالُ؛ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَن يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ،**

---

(١) انظر: (ص٥٣).

(٢) عالم الجن والشياطين: (ص٧٦ ـ ٧٧).

(٣) **الطِّوَل**: حبلٌ يُشَدُّ به قائمةُ الدَّابَّةِ، أو تَشُدُّ وتُمسِكُ طرفه، وتُرسِلُها ترعى. انظر: القاموس المحيط: (ص٩٤٥).

وَمَنْ قُتِلَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَن يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَن يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ[١] دَابَّتُهُ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَن يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ)[٢].

ولِأَجْلِ صَدِّهِ النَّاسَ عنِ الحَقِّ اتَّخذَ أساليبَ كثيرةً في الصَّدِّ عنِ الحَقِّ، وهذا ما سَيَأتِي بيانُهُ بعَونِ اللهِ في المطلبِ الآتِي.

* * *

---

(١) **وَقَصَتْهُ**: وَقَصَ عُنُقَهُ كـ: «وَعَدَ»: كَسَرَها. **انظر**: القاموس المحيط: (ص٥٨٥).

(٢) سنن النسائي الكبرى: (٤/ ٢٨٣)، كتاب الجهاد، باب ما لمن أسلم ثم هاجر وجاهد، حديث رقم: (٤٣٢٦). مسند أحمد: (٢٥/ ٣١٥)، حديث رقم: (١٥٩٥٨)، قال الألباني: «وهذا إسناد جيد؛ رجالُهُ كلُّهُم ثقات». **انظر**: سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٦/ ١١٨٦).

المَطْلَبُ الثَّانِي

أساليبُهُ في الصَدِّ عنِ الحَقِّ

منذُ أن طَرَدَ اللهُ ﷻ إبليسَ منَ الجنَّةِ، وأبعدَهُ عن رحمتِهِ، وأهبَطَهُ إلى الأرضِ، جَعَلَ يَسعَى في صَدِّ بني آدَمَ عن عبادةِ اللهِ، وعنِ اتِّباعِهِمُ الحقَّ؛ من أجْلِ ذلكَ اتَّخذَ طُرُقًا كثيرةً، وأساليبَ شَتَّى لِصَدِّ النَّاسِ عنِ الحَقِّ، **وهذا المطلبُ مَعقُودٌ لبيانِ معالمِ هذه الأساليبِ؛ وهي:**

أوّلًا: خُطُواتُ الشَّيطانِ:

مِن أبرَزِ الأساليبِ الَّتِي يَسلُكُها الشَّيطانُ في صَدِّ بني آدَمَ عنِ الحَقِّ **«الخطواتُ»**[1]؛ ولهذا حَذَّرَ اللهُ ﷻ في كتابِهِ الكريمِ مِنِ اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ في كثيرٍ منَ الآياتِ؛ قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يَعني: طرائِقَهُ ومَسالِكَهُ وما يَأمُرُ به، ﴿وَمَن يَتَّبِعْ

---

(١) **الخُطُواتُ لغةً:** خَطَا خَطْوًا واخْتَطَى واخْتاطَ ـ مقلوبٌ ـ: مَشَى، والخُطْوة بالضَّمِّ ما بين القدمينِ، **والجمعُ:** خُطًى وخُطْواتٌ وخُطُواتٌ... **والخَطْوة بالفتح:** المَرَّة الواحدة، **والجمعُ:** خَطَواتٌ بالتَّحريكِ. **انظر:** لسان العرب: (٤/١٤٧)، واختلف في معنى خطوات الشيطان؛ **فقيل:** عمله، **وقيل:** خطاياه، **وقيل:** طاعته، **وقيل:** النذور في المعاصي، **وقيل:** لا تسلكوا الطريق الذي يدعوكم إليه الشيطان. وهذه الأقوال معناها متقارب. **انظر:** جامع البيان عن تأويل آي القرآن: (٣/٣٨ ـ ٣٩)، **وانظر:** معاني القرآن وإعرابه: (١/٢٤١).

خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾؛ هذا تَنفِيرٌ وتحذيرٌ من ذلكَ بأفصَحِ عبارةٍ وأوجَزِها وأبلَغِها وأحسَنِها»[1].

وإنَّ المتأمِّلَ في آياتِ القُرآنِ الكريمِ الَّتِي تحدَّثَتْ عنِ النَّهيِ عنِ اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ يجدُ في كُلِّ مَوضِعٍ من تلكَ الآياتِ أنَّ الَّذي أوقَعَهُم في الإثمِ وصَدَّهُم عنِ اتِّباعِ أَمْرِ اللهِ هو اتِّباعُ خُطُواتِ الشَّيطانِ.

قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]؛ فالَّذِي جعَلَهُم يُحَرِّمُونَ ما أحلَّ اللهُ لهم إنَّما هو اتِّباعُهُم لخُطُواتِ الشَّيطانِ وطاعتُهُم له.

قالَ ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَعنِي بذَلِكَ ـ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ـ: يا أيُّها النَّاسُ كُلُوا مِمَّا أحلَلْتُ لكُم منَ الأطعمةِ على لسانِ رسولي مُحمَّدٍ ﷺ؛ فطَيَّبْتُهُ لكم ممَّا تُحَرِّمُونَهُ على أنفسِكُم منَ البَحائِرِ والسَّوائبِ والوَصَائِلِ، وما أشبَهَ ذلكَ ممَّا لم أُحَرِّمْهُ عليكُم، دونَ ما حَرَّمْتُهُ عليكُم منَ المطاعِمِ والمآكِلِ فنَجَّسْتُهُ مِن مَيتَةٍ ودَمٍ ولَحمِ خِنزِيرٍ، وما أُهِلَّ به لغَيرِي، ودَعُوا خُطُواتِ الشَّيطانِ الَّتِي تُوبِقُكُم فتُهلِكُكُم وتُورِدُكُم مَوارِدَ العَطَبِ، وتُحَرِّمُ عليكُم أموالَكُم؛ فلا تَتَّبِعُوها ولا تَعمَلُوا بها»[2].

وقالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

عندَما أَمَرَهُم ﷻ بالدُّخولِ في السِّلْمِ[3]، نهاهُم عنِ اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ؛ الَّتِي سَتَصُدُّهُم عنِ الدُّخولِ في السِّلْمِ.

(١) تفسير القرآن العظيم: (٦/ ٣٠).
(٢) جامع البيان: (٣/ ٣٦ ـ ٣٧).
(٣) قرأ نافع، وابن كثير، والكسائي، وأبو جعفر بفتح السين؛ بمعنى: الصلح، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، ويعقوب، وخلف بالكسر بمعنى: الإسلام. انظر: إتحاف فضلاء البشر: (١/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥).

قالَ ابنُ جريرٍ ـ رحمه الله تعالى ـ: «يَعني جلَّ ثناؤُهُ بذلكَ: اعمَلُوا أيُّها المؤمنُونَ بشَرائعِ الإسلامِ كُلِّها، وادْخُلُوا في التَّصديقِ به قَولًا وعَمَلًا، ودَعُوا طريقَ الشَّيطانِ وآثارَهُ أن تَتَّبِعُوها؛ فإنَّهُ لكُم عَدُوٌّ مُبِينٌ لكم عداوَتَهُ، وطريقُ الشَّيطانِ الَّذي نَهاهُم أن يَتَّبِعُوهُ هو ما خالَفَ حُكمَ الإسلامِ وشرائعَهُ، ومنه تَسبِيتُ السَّبتِ وسائرُ سُننِ أهلِ المِلَلِ الَّتِي تخالِفُ مِلَّةَ الإسلامِ»[1].

وقالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللهُ: «في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؛ تحذيرٌ ممَّا يَصُدُّهُم عنِ الدُّخولِ في السِّلْمِ المأمورِ به بطَريقِ النَّهيِ عن خلافِ المأمورِ به، وفائدتُهُ التَّنبيهُ على أنَّ ما يَصُدُّ عنِ الدُّخولِ في السِّلْمِ هو مِن مسالِكِ الشَّيطانِ المعروفِ بأنَّهُ لا يُشِيرُ بالخيرِ»[2].

وقالَ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

فأمَرَهُمُ اللهُ ـ سبحانه ـ بالأكلِ ممَّا رَزَقَهُمُ اللهُ، ونَهاهُم عنِ اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ الَّتِي قد تَصُدُّهُم عن ذلكَ.

قالَ ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ جلَّ ثناؤُهُ: كُلُوا ممَّا رَزَقَكُمُ اللهُ أيُّهَا المؤمنُونَ، فأَحَلَّ لكُم ثمراتِ حُرُوثِكُم وغُرُوسِكُم، ولُحُومَ أنعامِكُم، إذ حَرَّمَ بعضَ ذلكَ على أنفُسِهِمُ المُشرِكُونَ باللهِ؛ فجَعَلُوا للهِ ممَّا ذَرَأَ منَ الحَرثِ والأنعامِ نَصِيبًا وللشَّيطانِ مِثْلَهُ؛ فقَالُوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾؛ كما اتَّبَعَها باحِرُو البَحِيرَةِ، ومُسَيِّبُو السَّوائِبِ؛ فتُحَرِّمُوا على أنفُسِكُم

---

(١) جامع البيان: (٣/ ٦٠٢ ـ ٦٠٣).
(٢) التحرير والتنوير: (٢/ ٢٧٩).

من طَيِّبِ رِزقِ اللهِ الَّذي رَزَقَكُم ما حَرَّمُوهُ، فتُطِيعُوا بذلكَ الشَّيطانَ، وتَعصُوا به الرَّحمٰنَ»(١).

وقالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ أي: طرائِقَهُ وأوامِرَهُ؛ كما اتَّبعَهَا المشركُونَ؛ الَّذِينَ حَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللهُ؛ أي: منَ الثِّمارِ والزُّروعِ افتراءً على اللهِ»(٢).

وعندَ قولِهِ تعالى ـ في سُورَةِ النُّورِ ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١]: جاءَتْ هذه الآيةُ بعدَ الآياتِ الَّتِي فيها بيانُ خَطَرِ الخَوضِ في أعراضِ المؤمنِينَ، وخَطَرِ إشاعةِ الفاحشةِ بينَ المؤمنِينَ، فبَيَّنَتْ هذه الآيةُ أنَّ اتِّباعَ خُطُواتِ الشَّيطانِ سَبَبٌ في الوُقوعِ في مِثلِ ذلكَ؛ قالَ تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.

قالَ ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ للمُؤمنِينَ به: يا أيُّها الَّذينَ صَدَّقُوا اللهَ ورَسُولَهُ لا تَسلُكُوا سَبِيلَ الشَّيطانِ وطُرُقَهُ، ولا تَقتَفُوا آثارَهُ؛ بإشاعتِكُمُ الفاحشةَ في الذينَ آمنوا، وإذاعَتِكُمُوهَا فيهم، وروايَتِكُم ذلكَ عَمَّنْ جاءَ به؛ فإنَّ الشَّيطانَ يأمُرُ بالفَحشاءِ؛ وهي الزِّنا، والمُنكَرِ مِنَ القَولِ»(٣).

لقَدِ اتَّخَذَ الشَّيطانُ خُطُواتِهِ طَرِيقًا لِصَدِّ النَّاسِ عنِ الحَقِّ ولإيقاعِهِم في الباطِلِ، فهو يَتَدَرَّجُ بالإنسانِ خُطوةً خُطوةً حتَّى يَحصُلَ له منه ما يُرِيدُ.

«إنَّ الشَّيطانَ لا يأتِي الإنسانَ ويقولُ له: افعَلْ هذه المعصيةَ، أوِ ارتَكِبْ هذه الفاحشةَ؛ وإنَّما يُقَرِّبُهُ منها خُطوةً خُطوةً، وقديمًا قالُوا:

(١) جامع البيان: (٩/ ٦٢٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم: (٣/ ٣٥١).
(٣) جامع البيان: (١٧/ ٢٢١).

«نَظْرَةٌ فابتِسَامَةٌ فكلامٌ فمَوعِدٌ فلِقَاءٌ»، وهنا يقعُ المحظورُ؛ فلِذَلِكَ حَذَّرَنَا اللهُ ـ تبارك وتعالى ـ مِنِ اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ؛ فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [النور: ٢١]؛ فهذا نِدَاءُ رحمةٍ منَ الرَّؤُوفِ الرَّحيمِ إلى عبادِهِ مُحَذِّرًا لهم منِ اتِّباعِ طُرُقِ الشَّيطانِ ومَسالِكِهِ، ومُنَبِّهًا على أَنَّهُ يجبُ على العبدِ أن يُغلِقَ بابَ الطَّريقِ مِن أوَّلِهِ؛ كي لا يَندَرِجَ معه في الغوايةِ والضَّلالِ»[١].

وممَّا يَدُلُّ على خَطَرِ اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ قِصَّةُ قَومِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عندَما هَلَكَ أولئكَ الصَّالحونَ؛ فتَدَرَّجَ الشَّيطانُ بخُطُواتِهِ بقَومِ نوحٍ حتَّى أَوقَعَهُم في الشِّركِ باللهِ وعبادةِ أولئكَ الصَّالِحِينَ.

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «صارَتِ الأوثانُ الَّتِي كانت في قَومِ نُوحٍ في العَرَبِ بعدُ: أمَّا وَدٌّ كانت لِكَلْبٍ بِدومَةِ الجَنْدَلِ[٢]، وأمَّا سُوَاعُ، كانت لهُذَيلٍ[٣]، وأمَّا يَغُوثُ، فكانت لمرادٍ[٤] ثم لِبَنِي

---

(١) وقاية الإنسان من الجن والشيطان: (ص١٣١).

(٢) **دومة الجندل**: بضمِّ أوَّلِهِ وفَتحِهِ، سُمِّيَتْ بدَوم بن إسماعيل بن إبراهيم، وهي على سبع مراحل من دمشق؛ بينها وبين مدينة الرسول ﷺ. **انظر**: معجم البلدان: (٢/ ٥٥٤). وهي الآن منطقة تقع في الجوف. **انظر**: موسوعة أسماء الأماكن في المملكة العربية السعودية: (٢/ ٦٩٨).

(٣) **هذيل**: الهذلي بضم الهاء وفتح الذال وبعدها لام؛ هذه النسبة إلى هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وأكثر أهل وادي نخلة بالقرب من مكة من هذيل، يُنسَبُ إليه كثير من العلماء؛ منهم: عبد الله بن مسعود. **انظر**: اللباب في تهذيب الأنساب: (٣/ ٣٨٣).

(٤) **مراد**: المرادي بضم الميم وفتح الراء وبعد الألف دال مهملة، هذه النسبة إلى مراد، واسمه يحابر بن مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد ابن كهلان بن سبأ، ومالك بن أدد هو مذحج، وينسب إلى مراد خلق كثير من أهل الجاهلية والصحابة ومن بعدهم؛ منهم: صفوان بن عسَّال المرادي له صحبة. **انظر**: اللباب في تهذيب الأنساب: (٣/ ١٨٨).

غُطَيْفٍ[١] بالجَوفِ[٢] عندَ سَبَأٍ[٣]، وأمَّا يَعُوقُ، فكانت لهَمْدَانَ[٤]، وأمّا نَسْرٌ، فكانت لحِمْيَرَ[٥] لآلِ ذِي الكَلاعِ[٦] أسماءُ رجالٍ صالحِينَ من قَومِ نُوحٍ؛ فلمَّا هَلَكُوا، أوحى الشَّيطانُ إلى قَومِهِم أنِ انصِبُوا إلى مجالِسِهِمُ الَّتِي كانوا يَجلِسُونَ أنصَابًا وسَمُّوها بأسمائِهِم؛ ففَعَلُوا، فلم تُعبَدْ حتَّى إذا هَلَكَ أولئكَ، وتَنَسَّخَ[٧] العِلمُ، عُبِدَتْ»[٨].

---

(١) **غطيف**: الغطيفي ـ بضم الغين وفتح الطاء وسكون الياء آخر الحروف وفي آخرها فاء ـ: هذه النسبة إلى غطيف بن عبد الله بن ناجية بن مراد، وهو بطن من مراد، ينسب إليه خلق كثير؛ منهم: فروة بن مسيك الغطيفي المرادي، له صحبة. **انظر**: اللباب في تهذيب الأنساب: (٢/ ٣٨٦).

(٢) **الجوف**: درب الجوف بالبصرة، والجوف أيضًا: أرض لبني سعد، **والجوف**: اسم في أرض عاد فيه ماء وشجر، والجوف أيضًا: من أرض مراد، والجوف أيضًا: جوف المحورة ببلاد همدان، والجوف أيضًا: جوف الحميلة موضع بأرض عُمان. **انظر**: معجم البلدان: (٢/ ٢١٧ ـ ٢١٨).

(٣) **سبأ**: سبأ ـ بفتح أوله وثانيه وهمز آخره وقصره ـ أرض باليمن، مدينتها مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، وسميت هذه الأرض بهذا الاسم؛ لأنها كانت منازل ولد سبإ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. **انظر**: معجم البلدان: (٣/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤).

(٤) **الهَمْدَانِيُّ**: هذه النِّسبةُ إلى هَمْدَانَ، واسمُهُ: أوسلة بن مالك بن زيد بن ربيعة بن أوسلة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، الشعب العظيم، ينسب إليه خلق كثير من الشعراء والفرسان والعلماء. **انظر**: اللباب في تهذيب الأنساب: (٣/ ٣٩١).

(٥) **الحِمْيَرِيُّ**: هذه النِّسبة إلى حِمْيَرَ؛ وهو من أصول القبائل الَّتِي باليمن، وممن ينسب إليها: أبو إسحاق كعب بن ماتع الحميري، وهو المعروف بكعب الأحبار، روى عن عمر وابن عباس رضي الله عنهم. **انظر**: اللباب في تهذيب الأنساب: (١/ ٣٩٣).

(٦) **آلُ ذي الكَلَاعِ الكَلَاعِيُّ**: بفتح الكاف وبعد اللام ألف وعين مهملة؛ هذه النِّسبة إلى الكَلاع، وهي قبيلة كبيرة نزلت حمص من الشام، ينسب إليها خلق عظيم. **انظر**: اللباب في تهذيب الأنساب: (٣/ ١٢٣).

(٧) **تنسَّخ**: النَّسخُ: إبطالُ الشيء، وإقامة آخر مقامه، ونسخَتِ الرِّياحُ آثارَ الدِّيارِ: غَيَّرَتْهَا. **انظر**: لسان العرب: (١٤/ ١٢١)، **والمقصود**: تَغَيَّرَ عِلمُهُم، وزالَتْ معرفتُهُم. **انظر**: عمدة القاري شرح صحيح البخاري: (١٩/ ٣٧٨).

(٨) صحيح البخاري: (٣/ ١٥٧٢)، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ =

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وهذه أسماءُ رجالٍ صالحِينَ لمَّا ماتُوا، زَيَّنَ الشَّيطانُ لقَومِهِم أن يُصَوِّرُوا صُوَرَهُم لِيَنْشَطُوا بزَعمِهِم على الطَّاعةِ إذا رَأَوْهَا، ثم طالَ الأمدُ، وجاءَ غيرُ أولئكَ، فقالَ لهمُ الشَّيطانُ: إنَّ أسلافَكُم يَعبُدُونَهُم، ويَتَوَسَّلُونَ بهم، وبهم يُسقَوْنَ المطرَ، فعَبَدُوهُم، ولهذا أوصَى رؤساؤُهم للتَّابِعِينَ لهم أن لَّا يَدَعُوا عبادةَ هذه الأصنامِ»[١].

وممَّا يَدُلُّ على خَطَرِ اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ قِصَّةُ العابدِ من بنِي إسرائيلَ الَّذي لـم يَزَلْ بـه الشَّيطانُ حتَّى أوقَعَهُ في الفاحشةِ، ثم أوقَعَهُ في القَتلِ، ثمَّ أوقَعَهُ في الشِّركِ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ[٢].

إنَّ الشَّيطانَ قد لا يَستَطِيعُ صَدَّ الإنسانِ عنِ الحقِّ من أوَّلِ مرَّةٍ؛ فيَستخدِمُ بِمَكرِهِ خُطُواتِهِ الخادعةَ، ويَبدَأُ معه بخُطوةٍ هي في ظاهرِها سهلةٌ، فإذا مَشَى معه الإنسانُ في هذه الخُطوةِ الأولَى؛ انتَقَلَ به إلى خطوةٍ أُخرَى، وهكذا حتَّى يُضِلَّهُ ويَصُدَّهُ عنِ الحقِّ؛ فعلى الإنسانِ، وعلى المسلمِ أن يَتَفَطَّنَ لهذا العَدُوِّ الماكرِ وما يُخَطِّطُ له حتَّى يَنجُوَ من مخطَّطاتِهِ.

وقد ذَكَرَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ كلامًا نَفِيسًا في بيانِ خُطواتِ الشَّيطانِ، وكيفَ أنه لا يرتاحُ حتَّى يُضِلَّ الإنسانَ؛ فقالَ رَحِمَهُ اللهُ: **«ولكن يَنحَصِرُ شَرُّهُ في سِتَّةِ أجناسٍ لا يزالُ بابنِ آدَمَ حتَّى ينالَ منه واحدًا منها أو أكثرَ:**

الشَّرُّ الأوَّلُ: شَرُّ الكُفرِ والشِّركِ ومعاداةِ اللهِ ورسولِهِ ﷺ؛ فإذا ظَفَرَ

= ﴿آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، حديث رقم: (٤٩٢٠).

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٤/ ١٨٨٩).

(٢) ذكر هذه القصة ابن جرير في تفسيره: (٢٢/ ٥٤١ ـ ٥٤٤)، وضعَّف هذه القصَّةَ ابن عَطِيَّةَ في المحرر الوجيز: (٨/ ٢٧٢)، وأخرجها الحاكم وقال: «حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»؛ المستدرك: (٢/ ٥٧١)، كتاب التفسير، تفسير سورة الحشر، وأخرجها البيهقي في شعب الإيمان. الجامع لشعب الإيمان: (٧/ ٣١٩).

بذلكَ من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبه معه وهو أول ما يريده من العبد؛ فلا يزال به حتى يناله منه؛ فإذا نال ذلك منه صيَّره من جنده وعسكره، واستنابه على أمثاله وأشكالِهِ؛ فصارَ من دعاةِ إبليسَ ونُوَّابِهِ؛ فإن يَئِسَ منه مِن ذلكَ، وكانَ ممَّنْ سَبَقَ له الإسلامُ في بَطنِ أُمِّهِ، **نَقَلَهُ إلى:**

المرتبةِ الثَّانيةِ منَ الشَّرِّ؛ وهي: البِدعَةُ، وهي أَحَبُّ إليه منَ الفُسوقِ والمعاصي؛ لأنَّ ضَرَرَها في نفسِ الدِّينِ وهو ضَرَرٌ مُتَعَدٍّ، وهي ذَنبٌ لا يُتابُ منه[1]، وهي مخالِفَةٌ لدَعوَةِ الرُّسُلِ، ودعاءٌ إلى خلافِ ما جاءُوا به، وهي بابُ الكُفرِ والشِّركِ؛ فإذا نالَ منه البِدعةَ، وجَعَلَهُ من أهلِها، بَقِيَ أيضًا نائبَهُ وداعِيًا من دُعاتِهِ؛ فإنْ أعجَزَهُ من هذه المرتبةِ، وكانَ العبدُ ممَّنْ سَبَقَتْ له منَ اللهِ موهبةُ السُّنَّةِ ومعاداةِ أهلِ البِدَعِ والضَّلالِ، **نَقَلَهُ إلى:**

المرتبةِ الثَّالثةِ منَ الشَّرِّ؛ وهي: الكبائرُ على اختلافِ أنواعِها؛ فهو أشدُّ حِرصًا على أن يُوقِعَهُ فيها، ولا سِيَّما إن كانَ عالِمًا مَتبُوعًا؛ فهو حريصٌ على ذلكَ؛ لِيُنَفِّرَ النَّاسَ عنه، ثم يُشِيعُ من ذُنوبِهِ ومعاصِيهِ في النَّاسِ، ويَسْتَنِيبُ منهم من يُشِيعُها ويُذِيعُها تَدَيُّنًا وتَقَرُّبًا بزَعمِهِ إلى اللهِ تعالى، وهو نائبُ إبليسَ ولا يَشعُرُ... فإنْ عَجَزَ الشَّيطانُ عن هذه المرتبةِ، **نَقَلَهُ إلى:**

المرتبةِ الرَّابعةِ؛ وهي: الصَّغائرُ الَّتي إذا اجتمعَتْ، فرُبَّما أهلَكَتْ صاحبَها؛ كما قالَ النبيُّ ﷺ: **(إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ قَوْمٍ نَزَلُوا بِفَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ...)**[2] وذَكَرَ حديثا[3] معناه: أنَّ

---

(١) يعني: غالبًا؛ لأنَّ صاحبَ الشبهة يظن أنه على الحق، وليس كذلكَ.

(٢) أخرجه أحمد: (٣٧/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧)، من حديث سهل بن سعد ﷺ، ولفظه: **(إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا، تُهْلِكْهُ)**، قال الألبانيُّ: «إسناد صحيح». انظر: السلسلة الصحيحة: (١/ ٧٤٤).

(٣) يقصد: الحديث المتقدم.

كلُّ واحدٍ منهم جاءَ بعودٍ حتَّى أَوقَدُوا نارًا عظيمةً فطَبَخُوا واشْتَوَوْا.

ولا يَزالُ يُسَهِّلُ عليه أمرَ الصَّغائرِ حتَّى يَستَهِينَ بها؛ فيكونَ صاحبُ الكبيرةِ الخائفُ منها أحسَنَ حالًا منه؛ فإنْ أعجَزَهُ العبدُ من هذه المرتبةِ، **نَقَلَهُ إلى:**

المَرتَبَةِ الخامِسَةِ؛ وهي: إشغالُهُ بالمُباحاتِ الَّتِي لا ثوابَ فيها ولا عقابَ، بل عقابُها فواتُ الثَّوابِ الَّذي ضاعَ عليه؛ بانْشِغَالِهِ بها؛ فإنْ أعجَزَهُ العبدُ عَن بُلوغِ هذه المَرتَبَةِ، وكانَ حافظًا لوَقتِهِ شَحِيحًا به يَعلَمُ مِقدارَ أنفاسِهِ وانقطاعَها وما يُقابِلُها منَ النَّعيمِ والعذابِ، **نَقَلَهُ إلى:**

المَرتَبَةِ السَّادسةِ؛ وهي: أن يَشغَلَهُ بالعَمَلِ المفضولِ عمَّا هو أفضَلُ منه؛ لِيُزِيحَ عنه الفضيلةَ، ويُفَوِّتَ عليه ثوابَ العَمَلِ الفاضلِ؛ فيَأمُرُهُ بفِعلِ الخَيرِ المفضولِ، ويَحُضُّهُ عليه، ويُحَسِّنُهُ له إذا تَضَمَّنَ تَرْكَ ما هو أفضَلُ وأعلَى منه، وقَلَّ مَن يَتنَبَّهُ لهذا منَ النَّاسِ؛ فإنَّه إذا رَأى فيه داعيًا قَويًّا ومُحَرِّكًا إلى نَوعٍ منَ الطَّاعةِ لا يَشُكُّ أنَّهُ طاعةٌ وقُربَةٌ؛ فإنَّهُ لا يكادُ يقولُ: إنَّ هذا الدَّاعِيَ مِنَ الشَّيطانِ؛ فإنَّ الشَّيطانَ لا يَأمُرُ بخَيرٍ، ويَرَى أنَّ هذا خَيرٌ؛ فيَرَى أنَّ هذا الدَّاعِيَ منَ اللهِ، وهو معذورٌ، ولم يَصِلْ إلى عِلمِهِ أنَّ الشَّيطانَ يَأمُرُهُ بسَبعِينَ بابًا من أبوابِ الخَيرِ، إمَّا لِيَتَوَصَّلَ بها إلى بابٍ واحدٍ منَ الشَّرِّ، وإمَّا لِيُفَوِّتَ بها خَيرًا أعظَمَ من تلكَ الأبوابِ السَّبعينَ وأجَلَّ وأَفضَلَ.

وهذا لا يُتَوَصَّلُ إلى معرفتِهِ إلا بنورٍ منَ اللهِ يَقذِفُهُ في قَلبِ العَبدِ، يكونُ سببُهُ تجريدَ متابعةِ الرَّسولِ ﷺ، وشِدَّةَ عِنايَتِهِ بمَراتِبِ الأعمالِ عندَ اللهِ وأَحَبِّها إليهِ وأَرضَاها له، وأنفَعِها للعَبدِ، وأَعَمِّها نصيحةً للهِ تعالى ولرَسُولِهِ ولكتابِهِ ولعبادِهِ المؤمنِينَ خاصَّتِهِم وعامَّتِهِم، ولا يَعرِفُ هذا إلا

مَن كانَ مِن وَرَثَةِ الرَّسولِ ﷺ، ونُوَّابِهِ في الأُمَّةِ وخُلفائِهِ في الأرضِ، وأكثَرُ الخَلقِ مَحجُوبُونَ عن ذلكَ؛ فلا يَخطِرُ بقُلوبِهِم، واللهُ تعالى يَمُنُّ بفَضلِهِ على مَن يشاءُ من عبادِهِ.

فإذا أعجَزَهُ العبدُ من هذه المراتبِ السِّتِّ وأعياهُ، سَلَّطَ عليهِ حِزبَهُ منَ الإنسِ والجنِّ بأنواعِ الأذى والتَّكفيرِ له والتَّضليلِ والتَّبديعِ والتَّحذيرِ منه، وقَصدِ إخمالِهِ وإطفائِهِ؛ لِيُشَوِّشَ عليه قَلبَهُ، ويَشغَلَ بِحَربِهِ فِكرَهُ، ولِيَمنَعَ النَّاسَ من الانتفاعِ به؛ فيَبقَى سَعيُهُ في تَسليطِ المُبطِلِينَ من شياطينِ الإنسِ والجنِّ عليه، ولا يَفتُرُ ولا يَنِي؛ فحينئذٍ يَلبَسُ المؤمنُ لَأْمَةَ[1] الحربِ ولا يَضَعُها عنه إلى الموتِ، ومَتَى وَضَعَها، أُسِرَ أو أُصِيبَ، فلا يزالُ في جهادٍ حتَّى يَلقَى الله»[2].

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ، في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧]: «لأنَّ الشَّيطانَ لا يَدعُو إلَّا إلى كُلِّ خَصلَةٍ ذميمةٍ؛ فيَدعُو الإنسانَ إلى البُخلِ والإمساكِ، فإذا عَصاهُ، دعاهُ إلى الإسرافِ والتَّبذيرِ»[3].

إنَّ مَنِ اتَّبَعَ خُطُواتِ الشَّيطانِ عَصَى اللهَ بذلكَ، وأصبَحَ من أولياءِ الشَّيطانِ.

قالَ الشَّيخُ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ، في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤]: «فمَنِ اتَّبَعَ خُطُواتِهِ، فقدِ اتَّخَذَهُ وَلِيًّا، وكانَ عاصِيًا للهِ بمَنزِلَةِ الشَّيطانِ»[4].

---

(١) **اللَّأْمَةُ**: الدِّرعُ، وجَمعُها لُؤَمٌ، واللَّأْمَةُ: السِّلاحُ. انظر: لسان العرب: (١٢/ ٢١٢).

(٢) بدائع الفوائد: (٢/ ٧٩٩ ـ ٨٠٢) باختصار.

(٣) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٩١٧).

(٤) المصدر السابق: (٣/ ١٠٠١).

ثانيًا: تَزيينُ العَمَلِ السيِّئِ:

وَردَتْ آياتٌ كثيرةٌ من آياتِ القرآنِ الكريمِ في بيانِ أنَّ مِن أساليبِ الشَّيطانِ في إضلالِ النَّاسِ وصَدِّهِم عنِ الحَقِّ ـ: تزيينَ العَمَلِ السَّيِّئِ، وإظهارَهُ في صُورَةٍ حَسَنَةٍ.

فعندَما طَرَدَ اللهُ إبليسَ، وأبعَدَهُ عن رحمتِهِ؛ أقسَمَ: لَيُغْوِيَنَّ بنِي آدَمَ، ولَيُزَيِّنَنَّ لهم في الأرضِ، كلُّ ذلكَ من أَجْلِ إضلالِ بني آدَمَ، وصَدِّهِم عن سبيلِ الهُدَى والرَّشادِ.

قالَ تعالى: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٣ ـ ٣٩].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وعَنَى بقولِهِ: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: لَأُحَسِّنَنَّ لهم معاصِيَكَ، ولَأُحَبِّبَنَّها إليهِم في الأرضِ، ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾: يَقولُ: وَلَأُضِلَّنَّهُم عن سبيلِ الرَّشادِ»(١).

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ «أي: أُزَيِّنُ لهمُ الدُّنيا، وأدعُوهُم لإيثارِها على الأُخرى حتَّى يكونُوا مُنقادِينَ لكلِّ معصيةٍ، ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾؛ أي: أَصُدُّهُم كُلَّهُم عنِ الصِّراطِ المستقيمِ»(٢).

وقالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) جامع البيان: (١٤/ ٦٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٨٦٢).

وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾؛ أيْ: لَأُزَيِّنَنَّ لهمُ الشَّرَّ والسَّيِّئاتِ فيَرَوْنَها حَسَنَةً، وأُزَيِّنُ لهمُ الإقبالَ على الملاذِّ الَّتِي تَشغَلُهُم عنِ الواجباتِ»[1].

وقدِ استخدَمَ الشَّيطانُ هذا الأسلوبَ في صَدِّ كثيرٍ منَ النَّاسِ عنِ الحَقِّ؛ فكَمْ أَضَلَّ بهذا الطَّريقِ من إنسانٍ! وكَمْ حالَ بينَ شخصٍ وبينَ اتِّباعِهِ للحَقِّ بهذه الطَّريقةِ الخادعةِ الَّتِي يُضِلُّ بها الإنسانَ من حيثُ لا يَشعُرُ.

قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٧].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾؛ يقولُ عَزَّ وَجَلَّ: وإنَّ الشَّياطينَ لَيَصُدُّونَ هؤلاءِ الَّذينَ يَعْشُونَ عن ذِكرِ اللهِ عن سَبيلِ الحَقِّ؛ فيُزَيِّنُونَ لهمُ الضَّلالةَ، ويُكَرِّهُونَ إليهِمُ الإيمانَ باللهِ، والعَمَلَ بطاعتِهِ، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾؛ يقولُ: ويَظُنُّ المشرِكُونَ باللهِ بِتَحْسِينِ الشَّياطينِ لهم ما هم عليه منَ الضَّلالةِ أنَّهم على الحَقِّ والصَّوابِ، يُخبِرُ عَزَّ وَجَلَّ عنهم أنَّهُم - منَ الَّذِي هم عليه منَ الشِّركِ - على شَكٍّ، وعلى غيرِ بَصِيرةٍ»[2].

وقد ذَكَرَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ خَطَرَ هذا الأُسلوبِ وهذا التَّزيِينِ وعِظَمَ تأثيرِهِ الَّذي أَضَلَّ به الشَّيطانُ كثيرًا منَ النَّاسِ وصَدَّهُم عنِ الحَقِّ، وخَدَعَ به كَثِيرًا منهم حتَّى ظَنُّوا أنَّهُم - وهم في باطِلِهم - على الحَقِّ؛ فقالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ومِن مكايدِهِ**: أنَّهُ يَسحَرُ العَقلَ دائمًا حتَّى يَكِيدَهُ، ولا يَسلَمُ من سِحرِهِ إلَّا مَن شاءَ اللهُ؛ فيُزَيِّنُ له الفِعلَ الَّذي يَضُرُّهُ حتَّى يُخَيِّل إليه أنَّهُ من أنفعِ الأشياءِ له، ويُنَفِّرُهُ مِنَ الفعلِ الَّذي هو أنفَعُ الأشياءِ له، حتَّى يُخَيَّل له أنَّهُ يَضُرُّهُ،

---

(١) التحرير والتنوير: (١٤/ ٥٠).

(٢) جامع البيان: (٢٠/ ٥٩٦ ـ ٥٩٧).

فلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ! كم فَتَنَ بهذا السِّحرِ من إنسانٍ، وكم حالَ به بينَ القَلبِ وبينَ الإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ! وكم جَلَا الباطلَ وأبرَزَهُ في صورةٍ مُستَحسَنَةٍ، وَبَشَّعَ[1] الحقَّ وأخرَجَهُ في صورةٍ مُستَهجَنَةٍ[2]! وكم بَهرَجَ[3] منَ الزُّيوفِ[4] على النَّاقدِينَ[5]، وكم رَوَّجَ[6] مِنَ الزَّغَلِ[7] على العارفِينَ!

فهو الَّذي سَحَرَ العُقولَ حتَّى أَلقَى أربابَها في الأهواءِ المختلِفةِ والآراءِ المتشعِّبَةِ، وسَلَكَ بهم في سُبُلِ الضَّلالِ كلَّ مَسلَكْ، وألقَاهُم منَ المهالِكِ في مَهلَكٍ بعدَ مَهلَكْ، وزَيَّنَ لهم عبادةَ الأصنامْ، وقطيعةَ الأرحامْ، ووَأْدَ البَناتْ، ونِكاحَ الأُمَّهاتْ، ووَعَدَهُمُ الفَوزَ بالجِنانْ، مع الكُفرِ والفُسوقِ والعصيانْ، وأَبرَزَ لهمُ الشِّركَ في صُورةِ التَّعظيمِ، والكفرَ بصِفاتِ الرَّبِّ تعالى وعُلُوِّهِ على عَرشِهِ، وتَكَلُّمَهُ بكُتُبِهِ: في قالَبِ التَّنزيهِ،

---

(١) بشَّع: البَشِعُ؛ ككَتِفٍ، وقد بَشِعَ كـ: «فَرِحَ» ومَن أَكَلَ بَشِعًا، والسَّيِّئُ الخُلُقِ، والدَّمِيمُ، والخَبِيثُ النَّفسِ، والعابسُ والباسِرُ. انظر: القاموس المحيط: (ص٦٤٨).

(٢) مستهجنة: الهُجنةُ منَ الكلامِ ما يَعيبُكَ، والهجينُ: ابنُ الأمةِ لأنَّهُ مَعيبٌ، وتهجينُ الأمرِ: تقبيحُهُ. انظر: لسان العرب: (١٥/ ٤٢ ـ ٤٤).

(٣) بهرج: البَهرجُ: الباطلُ، والرَّديءُ، والمباحُ، والبَهرَجَةُ: أن يُعدَلَ بالشَّيءِ عنِ الجادَّة القاصدةِ إلى غيرِها. انظر: القاموس المحيط: (ص١٧٩).

(٤) الزُّيُوفُ: الزَّيفُ مِن وَصفِ الدَّراهِمِ؛ يقالُ: زَافَتْ عليه دراهمُهُ؛ أي: صارَتْ مَردُودَةً لغِشٍّ فيها، وقيلَ: زافَ البَعيرُ يَزِيفُ تَبَخْتَرَ في مِشيَتِهِ. انظر: لسان العرب: (٦/ ١٢٦ ـ ١٢٧).

(٥) النَّاقِدُونَ: النَقْدُ، والتَّنْقاد: تمييزُ الدَّراهمِ وإخراجُ الزَّيفِ منها، ونَقَدَ الشَّيءَ يَنْقُدُهُ نَقْدًا: إذا نَقَرَهُ بإصبعِهِ كما تُنْقَرُ الجَوزَةُ، ونَقَدَ الرَّجلُ الشَّيءَ بِنَظَرِهِ يَنْقُدُهُ نَقْدًا ونَقَدَ إليه: اختَلَسَ النَّظَرَ نحوَهُ، وما زالَ فُلانٌ يَنْقُدُ بَصَرَهُ إلى الشَّيءِ إذا لم يَزَلْ يَنظُرُ إليه. انظر: لسان العرب: (١٤/ ٢٥٤).

(٦) رَوَّجَ: راجَ الأمرُ رَوْجًا ورَوَاجًا: أسرَعَ؛ ومنه: رَوَّجَ فلانٌ كَلامَهُ: إذا زَيَّنَهُ وأبهَمَهُ فلا تُعلَمُ حقيقتُهُ. انظر: تاج العروس: (٥/ ٦٠٠ ـ ٦٠١).

(٧) الزَّغَلُ ـ مُحرَّكَةً ـ: الغِشُّ. انظر: تاج العروس: (٢٩/ ١٢٦).

وتَرْكَ الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيَ عنِ المنكَرِ: في قالَبِ التَّوَدُّدِ إلى النَّاسِ، وحُسنِ الخُلُقِ معهم، والعَمَلِ بقَولِهِ: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥][١]، والإعراضَ عمَّا جاءَ به الرَّسولُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ في قالَبِ التَّقليدِ[٢]، والاكتفاءِ بقَولِ مَن هو أعلَمُ منهم، والنِّفاقَ والادِّهانَ في دِينِ اللهِ في قالَبِ العَقلِ المَعِيشِيِّ[٣] الَّذي يَندَرِجُ به العَبدُ بينَ النَّاسِ»[٤].

بدأَ إبليسُ بهذا الأُسلوبِ في الإضلالِ منذُ أن خَلَقَ اللهُ أبانا آدَمَ عليه السلام، وأسكَنَهُ الجنَّةَ؛ قالَ تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]؛ فعندَ ذلكَ حَسَدَ عَدُوُّ اللهِ إبليسُ آدَمَ عليه السلام، وجَعَلَ يُخطِّطُ لإخراجِهِ منَ الجنَّةِ؛ فاستخدَمَ هذا الأُسلوبَ الماكِرَ؛ فزَيَّنَ له الأكلَ منَ الشَّجرةِ الَّتِي نَهاهُ اللهُ عن الأكْلِ منها، إذ زَعَمَ أنَّ هذه الشَّجرةَ سببٌ لِخُلُودِهِ في الجنَّةِ، وزَعَمَ أنَّهُ إنْ أكَلَ مِن هذه الشَّجرةِ؛ فسَيُصبِحُ مَلَكًا، ولا زالَ به حتَّى أطاعَهُ في ذلكَ؛ فكانَ سَبَبًا في خروجِهِ منَ الجنَّةِ، وقد بَيَّنَ اللهُ تبارك وتعالى هذا في كتابِهِ الكريمِ حتَّى نَحذَرَ منه؛ فقالَ تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ

---

(١) هذا فيه إشكالٌ؛ فهذا أمرٌ من الله واجبُ التمضيةِ؛ لكنَّ مقصود الإمام ابن القيم رحمه الله: «أنهم تركوا بقية الآيات والأحاديث الَّتي دلت على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واعتذروا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الناس الخيرَ احتجاجًا بهذه الآية؛ كما قال أبو بكرٍ رضي الله عنه: «يا أيُّها النَّاسُ، إنَّكُم تَقرَؤُونَ هذه الآيـةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥] وتَضَعُونَها على غيرِ مَوضِعِها، وإنِّي سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا المُنْكَرَ وَلَمْ يُغَيِّرُوهُ؛ أَوْشَكَ اللهُ أن يَعُمَّهُمْ بِعِقَابِهِ)». مسند الإمام أحمد: (١/١٩٧ ـ ١٩٨)، قال شعيب الأرنؤوط: «إسناده صحيح».

(٢) أي: للعلماء والصالحين، ولو كان مخالفًا لهدي وقول الرسول صلى الله عليه وسلم.

(٣) أي: دعوى المصلحة.

(٤) إغاثة اللهفان: (١/٢١١ ـ ٢١٢).

وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩ ـ ٢٢].

وقالَ تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١١٧ ـ ١٢٢].

ولهذا حَذَّرَنَا ﷻ في كتابِهِ الكريم منَ الشَّيطانِ الرَّجيم؛ حتَّى لا نَقعَ في مَكرِهِ؛ فقالَ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقولُ تعالى مُحذِّرًا لبَنِي آدَمَ أن يَفعَلَ بهمُ الشَّيطانُ كما فَعَلَ بأَبِيهِم: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ بأن يُزَيِّنَ لكمُ العِصيانَ، ويَدعُوَكُم إليه ويُرَغِّبَكُم فيه؛ فَتَنْقَادُونَ له ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾، وأنزَلَهُما منَ المحلِّ العالي إلى أنزَلَ منه؛ فأنتُم يريدُ أن يفعلَ بكم كذلكَ، ولا يَألُو جُهدَهُ عنكم حتَّى يَفتِنَكُم إنِ استطاعَ؛ فعَلَيكُم أن تجعَلُوا الحَذَرَ منه في بالِكُم، وأن تَلبَسُوا لأْمَةَ الحَربِ بَينَكُم وبينَهُ، وأن لا تَغفُلُوا عنِ المواضِعِ الَّتِي يَدخُلُ منها إليكُم»[1].

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٥٣٩ ـ ٥٤٠).

* **الأُمَمُ الَّتِي ضَلَّتْ بِسَبَبِ تَزْيِينِ الشَّيطانِ:**

وما زالَ إبليسُ يَستخدِمُ هذا الأسلوبَ؛ حتَّى صَدَّ كَثيرًا منَ الأُممِ والأقوامِ عنِ اتِّباعِ دعوةِ أنبيائِهِم ورُسُلِهِم؛ وَرَدَ هذا مُوَضَّحًا في كتابِ اللهِ ﷻ؛ قالَ تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].

قال ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ مُقسِمًا بنفسِهِ ﷻ لِنَبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: واللهِ يا محمَّدُ، لقد أرسَلْنا رُسُلًا من قَبلِكَ إلى أُمَمِها بمِثلِ ما أرسَلْناكَ إلى أُمَّتِكَ؛ منَ الدُّعاءِ إلى التَّوحيدِ للهِ، وإخلاصِ العبادةِ له، والإذعانِ له بالطَّاعةِ، وخَلْعِ الأندادِ والآلهةِ ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ يقولُ: فحَسَّنَ لهمُ الشَّيطانُ ما كانُوا عليه منَ الكُفرِ باللهِ وعبادةِ الأوثانِ مُقِيمِينَ حتَّى كَذَّبوا رُسُلَهُم، ورَدُّوا عليهم ما جاءُوهم به من عندِ رَبِّهِم، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ يقولُ: فالشَّيطانُ ناصِرُهُمُ اليَومَ في الدُّنيا وبِئسَ النَّاصِرُ، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾؛ في الآخرةِ عندَ وُرُودِهِم على رَبِّهِم؛ فلا يَنفَعُهُم حينئذٍ ولايةُ الشَّيطانِ، ولا هي نَفَعَتْهُم في الدُّنيا، بل ضَرَّتْهُم فيها، وهي لهم في الآخرةِ أَضَرُّ»[١].

وقالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يَذكُرُ تعالى أنَّهُ أرسَلَ إلى الأُمَمِ الخاليةِ رُسُلًا، فَكَذَّبَتِ الرُّسُلَ، فلَكَ يا مُحمَّدُ في إخوانِكَ منَ المُرسَلِينَ أُسوةٌ، فلا يَهِيدَنَّكَ[٢] تكذيبُ قَومِكَ لكَ، وأمَّا المشركُونَ الَّذينَ كَذَّبوا الرُّسُلَ؛ فإنَّما حَمَلَهُم على ذلكَ تَزيِينُ الشَّيطانِ لهم، ولا يَملِكُ لهم خَلاصًا،

(١) جامع البيان: (١٤/ ٢٦٨).

(٢) لا يَهِيدَنَّكَ: هُدتُ الشَّيءَ أَهِيدُهُ هَيْدًا: حَرَّكْتُهُ، وتقولُ: ما يَهِيدُنِي ذلكَ؛ أي: ما يُزعِجُنِي، وما أَكْتَرِثُ له ولا أُبالِيهِ. انظر: الصحاح: (٢/ ٥٥٨).

ولا صَرِيخَ لهم، ولهم عذابٌ أليمٌ»[١].

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «بيَّنَ تعالى لِرَسُولِهِ ﷺ أنَّهُ ليسَ هو أوَّلَ رَسولٍ كُذِّبَ؛ فقالَ تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ رُسُلًا يَدعُونَهُم إلى التَّوحيدِ؛ ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، فكَذَّبُوا الرُّسُلَ، وزَعَمُوا أنَّ ما هم عليه هو الحقُّ المُنْجِي من كُلِّ مَكروهٍ، وأنَّ ما دَعَتْ إليه الرُّسُلُ فهو بخلافِ ذلكَ»[٢].

ومِنَ الأُمَمِ الَّذين ذَكَرَهُمُ اللهُ ﷻ في كتابِهِ الكريمِ، وبَيَّنَ أنَّ الشَّيطانَ صَدَّهُم عن سبيلِ اللهِ بِتَزْيِينِهِ لهمُ العَمَلَ السَّيِّئَ ـ: قومُ عادٍ وثَمُودَ:

قالَ تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

قالَ ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: وَاذْكُرُوا أيُّها القَومُ عَادًا وثمودَ، وقد تَبَيَّنَ لكم مِن مساكِنِهِم خَرابُها وخلاؤُها منهم بوَقائِعِنا بهم، وحُلولِ سَطوَتِنا بجَمِيعِهِم، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ يقولُ: وحَسَّنَ لهمُ الشَّيطانُ كُفرَهُم باللهِ، وتَكذِيبَهُم رُسُلَهُ؛ ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ يقولُ: فرَدَّهُم بتَزيِينِهِ لهم ما زَيَّنَ لهم مِنَ الكُفرِ عن سبيلِ اللهِ؛ الَّتِي هيَ الإيمانُ به ورُسُلِهِ، وما جاءُوهُم به من عندِ ربِّهِم، ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾؛ يقولُ: وكانُوا مُستَبصِرِينَ في ضلالَتِهِم مُعجَبِينَ بها يَحسَبُونَ أنَّهم على هُدًى وصوابٍ، وهُم على الضَّلالِ»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٤/ ٥٨٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٨٨٨ ـ ٨٨٩).

(٣) جامع البيان: (١٨/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩).

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أيْ: وكذلكَ ما فَعَلْنَا بعادٍ، وقد عَلِمْتُم قَصَصَهُم، وتَبَيَّنَ لكم بشَيءٍ تشاهدونه بأبصارِكُم من مساكنِهِم وآثارِهِمُ الَّتِي بانُوا عنها، وقد جاءَتْهُم رُسُلُهُم بالآياتِ البَيِّناتِ المفيدةِ للبَصيرةِ؛ فكذَّبُوهُم وجادَلُوهُم، وزَيَّنَ لهمُ الشَّيطانُ عَمَلَهُم حتَّى ظَنُّوا أنَّهُ أفضلُ ممَّا جاءَتْهُم به الرُّسُل»(١).

وكذلكَ زَيَّنَ الشَّيطانُ لِقَومِ سَبأٍ الكُفرَ باللهِ، والسُّجودَ للشَّمسِ من دُونِ اللهِ، وصَدَّهُم عن عبادةِ اللهِ، وعنِ اتِّباعِهِمُ الحَقَّ.

قالَ تعالى ـ إخبارًا عمَّا أخبَرَ به الهدهدُ سُليمانَ عن قَومِ سَبَأٍ ـ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

قالَ ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ يقولُ: وحَسَّنَ لهم إبليسُ عبادَتَهُم الشَّمْسَ وسُجودَهُم لها من دونِ اللهِ، وحَبَّبَ ذلكَ إليهِم؛ ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ يقولُ: فمَنَعَهُم بتَزيينِهِ ذلكَ لهم أن يَتَّبِعُوا الصِّراطَ المستقيمَ، وهو دِينُ اللهِ الَّذي بَعَثَ به أنبياءَهُ، ومعناهُ: فصَدَّهُم عن سبيلِ الحقِّ؛ ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝٢٤﴾؛ يقولُ: فهم لِـمَا قَد زَيَّنَ لهمُ الشَّيطانُ ما زَيَّنَ منَ السُّجودِ للشَّمسِ من دُونِ اللهِ، والكُفرِ به: لا يَهتَدُونَ لسبيلِ الحَقِّ، ولا يَسلُكُونَهُ، ولكنَّهم في ضلالِهِمُ الَّذي هم فيه يَتَرَدَّدُونَ»(٢).

وكذلكَ كانَ للشَّيطانِ أثرٌ في صَدِّ كُفَّارِ قريشٍ عنِ اتِّباعِ الحَقِّ؛ حيثُ زَيَّنَ لهُمُ الكُفرَ باللهِ والإعراضَ عن دِينِ اللهِ، وزَيَّنَ لهم أيضا صَدَّ النَّاسِ

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١٣١٣ ـ ١٣١٤).
(٢) جامع البيان: (١٨/ ٤٠).

عن دِينِ اللهِ؛ فكانَ ذلكَ سَبَبًا في إعراضِهِم عن دعوةِ مُحمَّدٍ ﷺ الَّتِي كانُوا يَعلَمُونَ في قلوبِهِم أنَّها الحقُّ، لكنَّهم أطاعُوا الشَّيطانَ - والعياذُ باللهِ - بل صارُوا بتزيينِهِ لهم أتباعًا له في صَدِّ النَّاسِ عن دعوةِ الحَقِّ.

يقولُ تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

قال ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحينَ زَيَّنَ لهمُ الشَّيطانُ خُروجَهُم إليكُم أيُّها المؤمنُونَ لحَربِكُم وقِتالِكُم، وحَسَّنَ ذلكَ لهم، وحَثَّهُم عليكُم، وقالَ لهم: لَا غالِبَ لَكُمُ اليَومَ مِن بَنِي آدَمَ؛ فاطْمَئِنُّوا وأَبشِرُوا، ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾؛ مِن كنانةَ أن تَأتِيَكُم من ورائِكُم فَتُغيرَكُم؛ أُجِيرُكُم وأَمنَعُكُم منهم؛ فلا تخافُوهم، واجعَلُوا حَدَّكُم وبَأْسَكُم على مُحمَّدٍ وأصحابِهِ»[1].

هذه بعضُ الأمثلةِ الَّتِي ذَكَرَها اللهُ ﷻ في كتابِهِ الكريمِ عن أقوامٍ وأُمَمٍ زَيَّنَ لهمُ الشَّيطانُ أعمالَهُمُ السَّيِّئَةَ، وزَيَّنَ لهم ما هم فيه منَ الكُفرِ والضَّلالِ؛ فكانَ ذلكَ سَبَبًا في إعراضِهِم عنِ الحَقِّ.

*** تَسمِيَةُ الشَّيطانِ للأُمورِ المُحرَّمَةِ بأسماءٍ مُحَبَّبَةٍ:**

بما أنَّ الشَّيطانَ قد أقسَمَ على السَّعيِ الحَثيثِ في إضلالِ بنِي آدَمَ وصَدِّهِم عنِ الحَقِّ إلى يومِ يُبعَثُونَ؛ فإنَّهُ لا يزالُ على أعمالِهِ الخبيثةِ، ومِن أعمالِهِ في هذا البابِ: تَسمِيَتُهُ الأمورَ المحرَّمةَ بأسماءٍ مُحبَّبَةٍ يَدُلُّ على هذا تسميتُهُ للشَّجرةِ الَّتِي نَهَى اللهُ آدَمَ عنِ الأكلِ منها بشَجَرَةِ الخُلدِ؛ قالَ تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾

---

(١) جامع البيان: (١١/ ٢٢٥).

[طه: ١٢٠]، وهذا شَأْنُهُ مع بنِي آدَمَ؛ فلا يَرَى شَيئًا فيه كُفرٌ وضلالٌ، أو صَدٌّ عن سبيلِ الحقِّ إلَّا حاوَلَ الشَّيطانُ أن يجدَ له طريقًا يُحبِّبُ النَّاسَ فيه، ويجعلَ له اسمًا يَجذِبُ النُّفوسَ إليه، وبهذه الطريقةِ سارَ أتباعُهُ؛ فأصبَحُوا يُزَيِّنُونَ الباطلَ للنَّاسِ، ويجعلونَ له الأسماءَ الجميلةَ حتَّى يَنخَدِعَ بها مَن لَّا عِلمَ عِندَهُ.

قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومنه وَرِثَ أتباعُهُ تسميةَ الأُمورِ المحرَّمةِ بالأسماءِ الَّتِي تُحِبُّ النُّفوسُ مُسمَّياتِها؛ فَسَمَّوا الخَمرَ أُمَّ الأفراحِ، وسَمَّوْا أخاها بِلُقَيمَةِ الرَّاحةِ، وسَمَّوُا الرِّبا بالمعاملةِ، وسَمَّوُا المُكُوسَ[1] بالحُقوقِ السُّلطانيَّةِ، وسَمَّوْا أقبَحَ الظُّلمِ وأفحَشَهُ: شَرْعَ الدِّيوانِ، وسَمَّوْا أبلَغَ الكُفرِ ـ وهو جَحدُ صفاتِ الرَّبِّ ـ تَنزِيهًا، وسَمَّوْا مجالِسَ الفُسوقِ: مُجالسةَ الطيِّبةِ، فلَمَّا سَمَّاها شَجَرَةَ الخُلدِ، قالَ: ما نَهاكُما عن هذه الشَّجرةِ إلَّا كَراهَةَ أن تَأكُلَا منها، فتَخلُدَا في الجنَّةِ ولا تموتا فتكونانِ مِثلَ الملائكةِ الَّذِينَ لا يَمُوتُونَ...»[2]

وهذا شأنُهُم إلى يومِ النَّاسِ هذا؛ «فهمُ الَّذينَ يُسَمُّونَ الرِّبا بالفائدةِ، ويُسَمُّونَ التَّبرُّجَ الفاضحَ بحُرِّيَّةِ المرأةِ، ويُسَمُّونَ الاختلاطَ المستهتِرَ بالتَّقدُّمِ والتَّمدُّنِ، ويُسمُّونَ المُغَنِّيَةَ الفاسقةَ الفاجرةَ: فنَّانةً، ويُسَمُّونَ المُمَثِّلةَ الخليعةَ: بَطَلةً، ويَجمَعُونَ كلَّ هذا الفِسقِ والفُجورِ والعِصيانِ تحتَ اسمِ الفَنِّ؛ كلُّ هذا لِيَجْذِبُوا قُلوبَ النَّاسِ إلى فُحشِهِم وخُبثِهِم»[3].

---

(١) **المُكُوسُ**: مَكَسَ في البَيعِ يَمْكِسُ: إذا جَبَى مالًا، **والمَكْسُ**: النَّقْصُ، والظُّلمُ، ودراهمُ كانت تُؤخَذُ من بائِعي السِّلعِ في الأسواقِ في الجاهليَّةِ. انظر: القاموس المحيط: (ص٥٣٢).

(٢) إغاثة اللهفان: (١/٢١٦ ـ ٢١٧) باختصار.

(٣) وقاية الإنسان من الجن والشيطان: (ص١٢٩).

وقد ذَكَرَ الله ﷻ هذا الأمرَ في كتابِهِ الكريمِ، وبَيَّنَ سبحانه أنَّ هذا من طريقةِ الشَّياطينِ.

قالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ـ مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ مُحمَّدٍ ﷺ ـ: وكما جَعَلْنَا لَكَ أعداءً يَرُدُّونَ دَعوَتَكَ، ويُحارِبُونَكَ ويَحسُدُونَكَ؛ فهذه سُنَّتُنَا أن نَجعَلَ لكلِّ نبيٍّ نُرسِلُهُ إلى الخَلقِ أعداءً من شياطينِ الإنسِ والجنِّ، يقومونَ بضِدِّ ما جاءَتْ به الرُّسُلُ؛ ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾؛ أي: يُزَيِّنُ بعضُهم لبعضٍ الأمرَ الَّذي يَدْعُونَ إليه منَ الباطلِ، ويُزَخرِفُونَ له العباراتِ حتَّى يجعلُوهُ في أحسَنِ صورةٍ لِيَغْتَرَّ به السُّفهاءُ، ويَنقَادَ له الأغبياءُ الَّذين لا يَفهَمُونَ الحقائقَ ولا يَفقَهُونَ المعانِيَ، بل تُعجِبُهُمُ الألفاظُ المُزَخْرَفَةُ والعباراتُ المُمَوَّهَةُ؛ فيَعتَقِدُونَ الحقَّ باطِلًا، والباطِلَ حَقًّا»[1].

*** تَزيينُ الشَّيطانِ للبِدعَةِ:**

ومِن صُوَرِ تَزيِينِهِ أيضًا الَّذي يَصُدُّ به عنِ الحقِّ: تَزيِينُهُ للبِدعةِ في نُفوسِ أصحابِها حتَّى يَظُنُّوا أنَّهم على الحقِّ وغَيرَهُم على الباطلِ.

قالَ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «وأهلُ العباداتِ البِدعِيَّةِ يُزَيِّنُ لهمُ الشَّيطانُ تِلكَ العباداتِ، ويُبَغِّضُ إليهِمُ السُّبُلَ الشَّرعيَّةَ حتَّى يُبَغِّضَهُم في العِلمِ والقُرآنِ والحديثِ؛ فلا يُحِبُّونَ سماعَ القُرآنِ والحديثِ ولا ذِكرَهُ، وقد يُبَغِّضُ إليهِم حتَّى الكتابَ؛ فلا يُحِبُّونَ كتابًا ولا مَن معه كتابٌ، ولو كانَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٥٠١).

مُصحَفًا أو حَدِيثًا»[١].

ورُبَّما يأتِي الشَّيطانُ فيَعرِضُ للإنسانِ في حياتِهِ في الأُمورِ الَّتِي يَتَحَيَّرُ فيها والحقُّ فيها واضحٌ، لكن يَأتِي الشَّيطانُ فيُزَيِّنُ له الأمرَ الَّذي في مقابِلِ الحَقِّ بأيَّةِ صُورَةٍ منَ الصُّوَرِ؛ فيُعرِضُ عنِ الحقِّ وهو يَظُنُّ أنَّهُ على الحقِّ؛ فعَلَى المُسلِمِ العاقلِ أن يكونَ على حَيطَةٍ وحَذَرٍ ممَّا يُخَطِّطُ له هذا العدوُّ الماكرُ، وأن يَتَفَطَّنَ لأعمالِهِ الخبيثةِ الَّتِي مَقصِدُهُ منها صَدُّ النَّاسِ عن سبيلِ الهُدَى والرَّشادِ.

ثالثًا: تخويفُ النَّاسِ من أوليائِهِ:

وهذا الطَّريقُ من أساليبِهِ الَّتِي صَدَّ بها كَثيرًا منَ النَّاسِ عنِ الحَقِّ؛ يَدُلُّ على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

قالَ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللهُ، في معنَى الآيةِ -: «**أيْ**: يُخَوِّفُكُم أَولِيَاءَهُ بما يَقذِفُ في قلوبِكُم منَ الوَسوَسَةِ المُرعِبَةِ منَ العَدُوِّ؛ فيُرجِفُ ويُخَذِّلُ»[٢].

وقالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «**أيْ**: يُخَوِّفُكُم أولياءَهُ، ويُوهِمُكُم أنَّهم ذَوُو بَأْسٍ وذَوُو شِدَّةٍ»[٣].

بهذا الأُسلوبِ استطاعَ الشَّيطانُ أن يَمنَعَ كثيرًا منَ المسلِمِينَ عن كثيرٍ من أبوابِ الخيرِ، وبهذا التَّخويفِ استطاعَ الشَّيطانُ أن يَحُولَ بينَ كثيرٍ منَ المسلِمِينَ وبينَ دَعوَتِهِم للحَقِّ، ونَشرِ هَدْيِ الإسلامِ بينَ النَّاسِ.

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٤١١).
(٢) مجموع الفتاوى: (١٧/ ٥٢٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ١٧٢).

قالَ ابنُ عُثَيمِين رَحِمَهُ اللهُ: «﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥]: والتَّقديرُ: «يُخَوِّفُكُم أولياءَهُ»؛ أيْ: يُعَظِّمُهُم في صُدُورِكُم حتَّى تخافُوهُم، وتَترُكُوا الجهادَ وتَترُكُوا الدَّعوةَ؛ لأنَّكم تخافُونَ منهم بسببِ تخويفِ الشَّيطانِ»(١).

ويريدُ الشَّيطانُ بهذا الطَّريقِ أن يَصُدَّهُم عنِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وعن إعلاءِ كلمةِ اللهِ وبيانِ الحَقِّ كما أرادَ أن يَصُدَّ المسلِمِينَ عن جهادِ كُفَّارِ قُرَيشٍ بعدَ غزوةِ أُحُدٍ.

قالَ ابنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يَعنِي بذلكَ تعالى ذِكرُهُ: إنَّما الَّذي قالَ لَكُم أيُّها المؤمنُونَ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]؛ فخَوَّفُوكُم بجُموعِ عَدُوِّكُم، ومَسِيرِهِم إليكُم، مِن فعلِ الشَّيطانِ ألقاهُ على أفواهِ مَن قالَ ذلكَ لكم، يُخَوِّفُكُم بأوليائِهِ منَ المشرِكِينَ؛ أبي سُفيانَ وأصحابِهِ من قُرَيشٍ؛ لِتَرْهَبُوهُم وتَجْبُنُوا عنهم»(٢).

وكذلكَ يريدُ الشَّيطانُ أن يَصُدَّ أهلَ الحَقِّ عن شَعِيرَةٍ عظيمةٍ من شعائرِ الدِّينِ الإسلاميِّ، وعن أمرٍ جليلٍ من أُمورِ دِينِنا الحنيفِ؛ وهو الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عنِ المُنكَرِ الَّذي فيه بيانُ الحقِّ وإزهاقُ الباطلِ، بل فيه رِفعةُ هذه الأُمَّةِ وخَيْرِيَّتُها.

قالَ تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ فالشَّيطانُ يريدُ بهذا الأسلوبِ أن يَصرِفَهُم عن هذه الشَّعيرةِ العظيمةِ.

قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «ومِن كَيْدِ عَدُوِّ اللهِ تعالى أنَّهُ يُخَوِّفُ المؤمنِينَ

---

(١) تفسير ابن عثيمين. سورة آل عمران: (٢/ ٤٥٥).

(٢) جامع البيان: (٦/ ٢٥٥).

من جُندِهِ وأوليائِهِ؛ فلا يجاهِدُونَهم، ولا يأمُرُونَهُم بالمعروفِ، ولا يَنهَوْنَهُم عنِ المُنكَرِ، وهذا من أعظَمِ كَيدِهِ بأهلِ الإيمانِ، وقد أخبَرَنا اللهُ تعالى سبحانه عنه بهذا؛ قال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾؛ فكُلَّما قَوِيَ إيمانُ العَبدِ، زالَ مِن قَلبِهِ خَوفُ أولياءِ الشَّيطانِ، وكُلَّما ضَعُفَ إيمانُهُ، قَوِيَ خَوفُهُ مِنهُم»[1].

إنَّ النَّاظِرَ في حالِ النَّاسِ اليَومَ وما يراهُ مِنِ انتشارِ المَعاصِي والمُنكَراتِ، ومجاهرةِ أهلِ الباطلِ بباطِلِهِم، وتَخاذُلِ بعضِ أهلِ الخَيرِ والصَّلاحِ في بيانِ الحقِّ، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المُنكَرِ؛ لَيَعْلَمُ أنَّ من أسبابِ ذلكَ: تخويفَ الشَّيطانِ النَّاسَ من أوليائِهِ، وتعظيمَهُ لأوليائِهِ في صُدورِ النَّاسِ؛ فعلى المؤمِنِ أن يكونَ إيمانُهُ باللهِ قَوِيًّا، وأن لَّا يخافَ في اللهِ لومَةَ لائم، بل عليه أن يُبَيِّنَ الحَقَّ، وأن يأمُرَ بالمعروفِ، ويَنهَى عنِ المُنكَرِ قَدْرَ استطاعتِهِ، وأن يَسعَى في نَشرِ دِينِ اللهِ الحَقِّ بينَ النَّاسِ، ولا يَخشَى في ذلكَ أحدًا إلَّا اللهَ، مُتَّبِعًا في ذلكَ كُلِّهِ سُنَّةَ النَّبيِّ ﷺ؛ الَّذي أُمِرْنا باتِّباعِهِ في كُلِّ شَيءٍ.

وقد ذَكَرَ بعضُ أهلِ العلمِ أنَّهُ لا يجوزُ الخَوفُ من أولياءِ الشَّيطانِ:

قالَ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «ودَلَّتِ الآيةُ[2] على أنَّ المؤمِنَ لا يجوزُ له أن يخافَ أولياءَ الشَّيطانِ، ولا يخاف النَّاسَ؛ كما قالَ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]؛ فخَوفُ اللهِ أَمَرَ به، وخَوفُ أولياءِ

---

(١) إغاثة اللهفان: (١/ ٢١١) باختصار.

(٢) يعني بذلك: قولَهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

الشَّيطانِ نَهى عنه، قالَ تعالَى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠]؛ فنَهى عن خَشيَةِ الظَّالم، وأَمَرَ بخشيَتِهِ، وقالَ: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وقالَ: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١]»[1].

وقد ذَكَرَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ آياتٍ يَنبَغِي للمُسلمِ أن يَستَشْعِرَها عندَما يريدُ أن يجاهِدَ في سبيلِ اللهِ، أو يأمُرَ بالمعروفِ، أو يَنهَى عنِ المُنكَرِ، أو يريدُ أن يَدعُوَ إلى سبيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنَّ الشَّيطانَ في هذه اللَّحظاتِ يأتِي ويحاولُ أن يُخَوِّفَ المؤمِنَ من أوليائِهِ؛ فهذه الآياتُ الَّتِي ذَكَرَها ابنُ كثيرٍ ممَّا يُقَوِّي الإيمانَ باللهِ.

قالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]؛ أيْ: إذا سَوَّلَ لكُم، وأَوهَمَكُم فتوَكَّلُوا عَلَيَّ، والْجَؤُوا إليَّ؛ فأنا كافِيكُم وناصِرُكُم عليهِم؛ كما قالَ تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ﴾ [الزمر: ٣٦]... إلى قولِهِ: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]، وقالَ تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقالَ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ﴾ [الحج: ٤٠]، وقالَ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقالَ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]»[2].

---

(١) مجموع الفتاوى: (١/ ٥٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ١٧٢).

رابعًا: الوُعُودُ والأماني:

من أساليبِ الشَّيطانِ الَّتِي يَسلُكُها في صَدِّ العبادِ عنِ الحَقِّ، وَوَرَدَ ذِكرُهَا في القُرآنِ الكريمِ: **الوعودُ والأماني**:

قالَ تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، وقالَ تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

إنَّ الأُمورَ الَّتِي يَعِدُهَا ويُمَنِّيهَا الشَّيطانُ النَّاسَ حتَّى تكونَ سَبَبًا في صَدِّهِم عنِ الحَقِّ كثيرةٌ؛ منها: وَعدُهُ للكافرِ والعاصِي بالنَّجاةِ من عذابِ اللهِ.

قالَ ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللهُ في تَفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤]: «يقولُ: وَخَدَعَكُم باللهِ الشَّيطانُ؛ فأَطمَعَكُم بالنَّجاةِ من عُقوبَتِهِ»[(١)].

فبهذا الوَعدِ منه استطاعَ الشَّيطانُ أن يَصُدَّ به كثيرًا منَ النَّاسِ عنِ الحَقِّ؛ فإنَّ الإنسانَ إذا كانَ مُقِيمًا على معصيةِ اللهِ سواءٌ أكانَتْ شِركًا أم ما دُونَهُ، وفي ظَنِّهِ أنَّهُ يَنجُو من عقابِ اللهِ؛ فإنَّهُ سَيَسْتَمِرُّ على مَعصِيَتِهِ، وسَيُعْرِضُ عنِ الحَقِّ؛ فرُبَّما دُعِيَ إلى الحَقِّ واتَّضَحَ له، لكنَّ أُمنِيَّتَهُ في النَّجاةِ من عقابِ اللهِ الَّتِي غَرَّهُ بها الشَّيطانُ جَعَلَتْهُ يُعرِضُ عنِ الحَقِّ.

ومن هذا البابِ ما يَعِدُهُ الشَّيطانُ أولياءَهُ من الكَفَرَةِ وهم في حالِ كُفرِهِم أنَّهُم على حَقٍّ.

---

(١) جامع البيان: (٢٢/٤٠٦).

قالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤] «أي: جَعَلَ الشَّيطانُ شَأنَ اللهِ سَبَبًا لِغُرُورِكُم؛ بأن خَيَّلَ إليكُم أنَّ الحِفاظَ على الكُفرِ مُرضٍ للهِ تعالى، وأنَّ النِّفاقَ حافَظْتُم به على دِينِكُم، وحَفِظْتُمْ به نُفوسَكُم وكرامةَ قَومِكُم، واطَّلَعْتُم به على أحوالِ عَدُوِّكم»[١].

وكذلكَ يَعِدُ الشَّيطانُ ويُمَنِّي بالمالِ والجاهِ حتَّى تكونَ سَبَبًا في ضلالِ النَّاسِ.

قالَ ابنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقولُهُ تعالى: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡ﴾: يَعِدُهُم بأباطيلِهِ منَ المالِ والجاهِ، وأن لَّا بَعثَ ولا عقابَ... ونحوِ ذلكَ؛ لِكُلِّ أحدٍ ما يَلِيقُ بحالِهِ»[٢].

وقد ذَكَرَ ابنُ القَيِّمِ كلامًا نَفيسًا يُبَيِّنُ كيفَ أَضَلَّ الشَّيطانُ النَّاسَ بهذه الوُعودِ والأمانيِّ؛ فقالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فوَعَدَهُ ما يَصِلُ إلى قَلبِ الإنسانِ؛ نحوَ: سَيَطُولُ عُمُرُكَ، والدُّنيا دُوَلٌ؛ ستكونُ لكَ كما كانت لغَيرِكَ، ويُطَوِّلُ أَمَلَهُ، ويَعِدُهُ بالحُسنَى على شِرْكِهِ ومعاصِيهِ، ويُمَنِّيهِ الأمانيَّ الكاذبةَ على اختلافِ وُجوهِها... ومَن تَأَمَّلَ أحوالَ أكثرِ النَّاسِ، وَجَدَهُم مُتعلِّقِينَ بوَعدِهِ وتَمنِيَتِهِ وهم لا يَشعُرونَ، يَعِدُ الباطلَ ويُمَنِّي المُحالَ، والنَّفسُ المَهِينَةُ الَّتِي لا قَدْرَ لها تَغتَذِي بوَعدِهِ وتَمْنِيَتِهِ؛ **كما قال القائل:**

مُنًى إنْ تكُنْ حقًّا تكُنْ أَحْسَنَ المُنَى ... وَإِلَّا فَقَدْ عِشْنَا بِهَا زَمَنًا رَغْدَا[٣]

فالنَّفسُ المُبطِلَةُ الخَسِيسَةُ تَلتَذُّ بالأمانيِّ الباطلةِ والوُعودِ الكاذبةِ، وتَفرَحُ بها كما يَفرَحُ بها النِّساءُ والصِّبيانُ، ويَتَحَرَّكُونَ لها؛ فالأقوالُ

---

(١) التحرير والتنوير: (٢٧/ ٣٨٧). (٢) المحرر الوجيز: (٣/ ٢٧).
(٣) يروى لأبي بكر العرزمي. **انظر**: بهجة المَجالِس وأُنسُ المُجالِس: (١/ ١٢١).

الباطلةُ مَصدرُها وَعْدُ الشَّيطانِ وتَمْنِيَتُهُ؛ فإنَّها تُمَنِّي أصحابَها الظَّفَرَ بالحَقِّ وإدراكَهُ، وتَعِدُهُمُ الوُصولَ إليه من غيرِ طريقِهِ؛ فكُلُّ مُبطِلٍ فله نصيبٌ من قولِهِ تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾»(١).

وهذه الوُعودُ والأمانيُّ الَّتِي يَستَخدِمُها الشَّيطانُ في إضلالِ النَّاسِ: كُلُّها كَذِبٌ وافتراء؛ قالَ تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾: وهذا إخبارٌ عنِ الواقعِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ يَعِدُ أولياءَهُ ويُمَنِّيهِم بأنَّهم همُ الفائزُونَ في الدُّنيا والآخرةِ، وقد كَذَبَ وافتَرَى في ذلكَ؛ ولهذا قالَ: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾؛ كما قالَ تعالى ـ مُخبِرًا عن إبليسَ يومَ المَعادِ ـ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢]»(٢).

وكلُّ هذه الأمانيِّ والوُعودِ خِداعٌ وباطلٌ.

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عندَ قولِهِ تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾: «يَعنِي بذلكَ جلَّ ثناؤُهُ: يَعِدُ الشَّيطانُ المَريدُ أولياءَهُ الَّذينَ هم نصيبُهُ المفروضُ أن يكونَ لهم نَصيرًا ممَّن أرادَهُم بسُوءٍ، وظَهِيرًا لهم عليه؛ يَمنَعُهُم منه، ويُدافِعُ عنهم، ويُمَنِّيهِمُ الظَّفَرَ على مَن حاوَلَ مَكرُوهَهُم والفَلَجَ(٣) عليهم، ثُمَّ قالَ: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا

---

(١) إغاثة اللهفان: (١/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦) باختصار.
(٢) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٤١٦).
(٣) **الفَلَجُ**: الظَّفرُ والفوزُ. انظر: القاموس المحيط: (ص١٩٧).

غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾؛ يقول: وما يَعِدُ الشَّيطانُ أولياءَهُ الَّذينَ اتَّخذُوهُ وَلِيًّا من دونِ اللهِ إلَّا غُرورًا؛ يَعني: إلَّا باطِلًا، وإنَّما جعَلَ عِدَتَهُ إيَّاهُم ما وَعَدَهُم غُرورًا؛ لأنَّهم كانُوا يَحسَبُونَ أنَّهم في اتِّخاذِهِم إيَّاهُ وَلِيًّا على حقيقةٍ مِن عِدَاتِهِ الكاذبةِ وأمَانِيِّهِ الباطلةِ حتَّى إذا حَصْحَصَ الحقُّ، وصارُوا إلى الحاجةِ إليه، قالَ لهم عَدُوُّ اللهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ﴾»[1].

وممَّا يَدخُلُ تحتَ هذا البابِ، وهو مِنَ الأُمورِ الخطيرةِ الَّتِي دَخَلَ بها الشَّيطانُ على كثيرٍ منَ النَّاسِ: طُولُ الأملِ والتَّسويفُ.

قالَ تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

قالَ ابنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «ومعنى قولِهِ: ﴿وَيُلْهِهِمُ﴾؛ أي: يَشغَلُهُم أَمَلُهُم في الدُّنيا والتَّزَيُّدُ فيها عنِ النَّظَرِ والإيمانِ باللهِ ورسولِهِ»[2].

وعندَ كلامِ ابنِ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ، في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩]: قالَ: «﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾؛ أي: عنِ الحقِّ، ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾؛ أي: أُزَيِّنُ لهم تَرْكَ التَّوبةِ، وأَعِدُهُمُ الأمانيَّ، وآمُرُهم بالتَّسويفِ والتَّأخيرِ، وأَغُرُّهُم من أنفُسِهِم»[3].

---

(١) جامع البيان: (٧/ ٤، ٥).
(٢) المحرر الوجيز: (٥/ ٢٧٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٤١٥).

وقالَ ابنُ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كم قد خَطَرَ على قَلْبِ يهوديٍّ ونصرانيٍّ حُبُّ الإسلامِ؛ فلا يزالُ إبليسُ يُثَبِّطُهُ، ويَقُولُ: لا تَعْجَلْ وتَمَهَّلْ في النَّظرِ؛ فيُسَوِّفُهُ حتَّى يموتَ على كُفرِهِ، وكذلكَ يُسَوِّفُ العاصِيَ بالتَّوبةِ؛ فَيُسوِّغُ له غَرضَهُ منَ الشَّهواتِ؛ ويُمَنِّيهِ الإنابةَ؛ **كما قالَ الشَّاعرُ**:

لَا تَعْجَلِ الذَّنْبَ لِمَا تَشْتَهِي وَتَأْمَلِ التَّوْبَةَ مِنْ قَابِلِ[١]

وكَمْ من عازِمٍ على الجِدِّ سَوَّفَهُ، وكمْ ساعٍ إلى مقامِ فضيلةٍ ثَبَّطَهُ؛ فلَرُبَّما عَزَمَ الفقيهُ على إعادةِ دَرسِهِ؛ فقالَ: استَرِحْ ساعَةً، أوِ انتَبَهَ العابدُ في اللَّيلِ يُصَلِّي؛ فقالَ له: أمامَكَ لَيلٌ طويلٌ، ولا يَزالُ يُحَبِّبُ الكَسَلَ، ويُسَوِّفُ العملَ، ويُسنِدُ الأمرَ إلى طُولِ الأملِ.

فيَنبغي للحازِمِ أن يَعمَلَ على الحَزمِ، والحَزمُ: تدارُكُ الوَقتِ وتَركُ التَّسويفِ والإعراضُ عنِ الأملِ؛ فإنَّ المَخُوفَ لا يُؤمَنُ والفَائِتَ لا يُدرَكُ.

وسببُ كلِّ تقصيرٍ في خيرٍ أو مَيلٍ إلى شَرٍّ طُولُ الأملِ؛ فالإنسانُ لا يزالُ يُحدِّثُ نفسَهُ بالنُّزوعِ عن الشَّرِّ والإقبالِ على الخيرِ، إلَّا أنَّهُ يَعِدُ نفسَهُ بذلكَ، ولا رَيبَ أنَّه مَن أَمَّلَ أن يمشِيَ بالنَّهارِ، سَارَ سَيْرًا فاتِرًا، ومَن أَمَّلَ أن يُصبِحُ، عَمِلَ في اللَّيلِ عَمَلًا ضَعِيفًا، ومَن صَوَّرَ الموتَ عَاجِلًا، جَدَّ، وقد قالَ ﷺ: (**صَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ**)[٢]، وقالَ بعضُ السَّلفِ: «أُنْذِرُكُم: سَوْفَ»[٣]؛ فإنَّها أكبَرُ جُنودِ إبليسَ».

---

(١) **انظر**: سراج الملوك: (١/٥٩). وفيه: «تعجَّلِ الذَّنبَ بما تَشتَهِي وتأمَّلِ التَّوبةَ مِن قابِلِ».

(٢) المعجم الأوسط: (٤/٣٥٨). مَن اسمُهُ عبدُ الله، حديث رقم: (٤٤٢٧)، قال الألباني: «ثم إن الحديث عندي حسن أو صحيح؛ فإن له شواهد تقويه». السلسلة الصحيحة: (٤/٥٤٥).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة بسنده عن ثمامة بن بجاد. **انظر**: مصنف ابن أبي شيبة: (١٩/٣٨٠).

ومَثَلُ العاملِ على الحَزمِ والسَّاكِنِ لطُولِ الأملِ؛ كمَثَلِ قَومٍ في سَفَرٍ، فدَخَلُوا قريةً، فمَضَى الحازمُ فاشتَرَى ما يَصلُحُ لتَمامِ سَفرِهِ، وجَلَسَ مُتأهِّبًا للرَّحيلِ، وقالَ المُفرِّط سأتأَهَّبُ؛ فربَّما أَقَمْنا شَهْرًا فضُرِبَ بُوقُ[١] الرَّحيلِ في الحالِ؛ فاغتَبَطَ المُحترِزُ، واعْتَبَطَ الآسِفُ المُفرِّط.

فهذا مَثَلُ النَّاسِ في الدُّنيا: مِنهُمُ المُستَعِدُّ المُستَيقِظُ؛ فإذا جاءَ مَلَكُ المَوتِ، لم يَندَمْ، ومِنهُمُ المَغرُورُ المُسَوِّفُ يَتَجَرَّعُ مَرِيرَ النَّدَمِ وقتَ الرِّحلةِ؛ فإذا كانَ في الطَّبعِ حُبُّ التَّوانِي وطُولُ الأملِ، ثمَّ جاءَ إبليسُ يَحُثُّ على العَمَلِ بمُقتَضَى ما في الطَّبعِ، صَعُبَتِ المُجاهَدَةُ؛ إلا أنَّهُ مَن انْتَبَهَ لنَفسِهِ، عَلِمَ أنَّهُ في صَفِّ حَربٍ، وأنَّ عَدُوَّهُ لا يَفْتُرُ عنه؛ فإنْ فَتَرَ في الظَّاهِرِ بَطنَ له مكيدةً، وأقامَ له كَمِينًا»[٢].

فهذا الكلامُ من هذا الإمامِ يَدُلُّ على خُطورةِ الانسياقِ وراءَ طُولِ الأملِ الَّذي يَبُثُّهُ الشَّيطانُ في النَّفسِ؛ فكما ذَكَرَ كَمْ كانَ طُولُ الأملِ حائِلًا بينَ كافرٍ وبينَ الإسلامِ!! وكَمْ كانَ حائِلًا بينَ فاسِقٍ وبينَ الاستقامةِ!! وكم كانَ حائِلًا بينَ داعيةٍ إلى الحقِّ وبينَ دَعوَتِهِ!! طَوَّلَ الشَّيطانُ له الأملَ حتَّى ثَبَّطَهُ عن نَشرِ دَعْوَتِهِ بينَ النَّاسِ، وكم كانَ حائِلًا بينَ طالبٍ للعلمِ وبينَ العلمِ والعُلماءِ!! حتَّى عَزَفَ عنِ العِلمِ، وأعرَضَ عنِ العُلماءِ، إلى غيرِ ذلكَ من أُمورِ الخَيرِ الَّتي يَسعَى الشَّيطانُ في صَدِّ النَّاسِ عنها.

ومِنَ الأمثلةِ الَّتِي تَدُلُّ على هذا المعنَى الحديثُ الَّذي رواهُ أبو هُريرةَ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: (**يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ**

(١) **البُوقُ**: الَّذي يُنفَخُ فيه، والبُوقُ أيضًا: الباطل. **انظر**: الصحاح: (٤/١٤٥٢).
(٢) تلبيس إبليس: (ص٥١٨ ـ ٥١٩).

إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ؛ فَارْقُدْ؛ فَإِنِ اسْتَيْقَظَ، فَذَكَرَ اللهَ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ؛ فَإِنْ تَوَضَّأَ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ؛ فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ؛ فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا، أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ)[١].

ففِي هذا الحديثِ بيانُ حِرصِ الشَّيطانِ الشَّديدِ على صَدِّ الإنسانِ عن أبوابِ الخَيرِ.

فعَلَى المُسلِمِ ألَّا يَنخَدِعَ بوُعودِ الشَّيطانِ وأمانِيِّهِ؛ فإنَّها لن تُغنِيَ عنه شَيئًا يومَ يَلقَى اللهَ.

قالَ ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يَقولُ اللهُ: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]؛ لأنَّهُ لا يُغنِي عنهم من عقابِ اللهِ إذا نَزَلَ بهم شَيئًا، فهم من عِداتِهِ في باطِلٍ وخَديعةٍ»[٢].

وممَّا يَجعَلُ العاقلَ يُعرِضُ عن هذه الوُعودِ والأمانيِّ ولا يَغتَرُّ بها ـ:

مَوقِفُ الشَّيطانِ يومَ القيامةِ واعترافُهُ بإخلافِ وُعودِهِ:

قالَ تعالى مُذَكِّرًا بذلكَ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

---

(١) صحيح البخاري: (١/ ٣٤١) كتاب التهجد، باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل، حديث رقم: ١١٤٢، وصحيح مسلم: (١/ ٣٥٢)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، حديث رقم: (٢٠٥).

(٢) جامع البيان: (١٤/ ٦٦٦).

قالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللهُ: «**والمقصودُ مِن وَصفِ هذا المَوقِفِ**: إثارةُ بُغضِ الشَّيطانِ في نُفوسِ أهلِ الكُفرِ؛ لِيَأخُذُوا حِذْرَهُم بدفاعِ وساوسِهِ؛ لأنَّ هذا الخطابَ مَلِيءٌ بإضمارِهِ الشَّرَّ لهم فيما وَعَدَهُم في الدُّنيا ممَّا شأنُهُ أن يَستَفِزَّ غَضَبَهُم من كَيدِهِ لهم وسُخرِيَتِهِ بهم؛ فيُورِثُهُم ذلكَ كراهيةً له، وسُوءَ ظَنِّهِم بما يَتَوَقَّعُونَ إتيانَهُ إليهم من قِبَلِهِ، وذلكَ أصلٌ عظيمٌ في التَّربيةِ»[1].

وفي الآيةِ تحذيرُ النَّاسِ جميعًا من غائلةِ الشَّيطانِ، والتَّحريضِ على الحَذَرِ الشَّدِيدِ من مصائِدِهِ ومَكرِهِ.

ولهذا جاءَتْ بعضُ آياتِ الكتابِ الكريمِ بالتَّحذيرِ من الاغترارِ بالشَّيطانِ والانسياقِ وراءَ وُعودِهِ وأمانِيِّهِ؛ منها: قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥]:

قالَ ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥﴾: يقولُ: ولا يَخدَعَنَّكُم باللهِ الشَّيطانُ، فيُمَنِّيكُمُ الأمانيَّ، ويَعِدُكُم من اللهِ العِداتِ الكاذبةَ، ويَحمِلُكُم على الإصرارِ على كُفرِكُم باللهِ»[2].

خامسًا: الدُّخولُ إلى الإنسانِ من خلالِ طبيعتِهِ:

وهذا الأُسلوبُ من مكايدِ الشَّيطانِ في إضلالِ النَّاسِ وإبعادِهِم عن سبيلِ الهُدَى والرَّشادِ؛ فهو يَنظُرُ إلى الإنسانِ ويَنظرُ إلى محابِّهِ وما تَهواهُ نفسُهُ؛ **ومِن خلالِ ذلكَ يَدخُلُ على الإنسانِ ويَجعلُ ذلكَ سبيلًا لإضلالِهِ وصَدِّهِ عنِ الحَقِّ ومِن ذلكَ**:

- **اتِّباعُ الرَّغبةِ:**

من هذا البابِ دَخَلَ الشَّيطانُ على أبينا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنَّهُ لمَّا رَأى آدَمَ

(١) التحرير والتنوير: (١٣/ ٢١٨).
(٢) جامع البيان: (١٩/ ٣٣١).

وزَوجَهُ يُريدانِ الجنَّةَ، دَخلَ عَليهِمَا من هذا البابِ؛ فكانَ سَببًا في خُروجِهِما منَ الجنَّةِ.

قالَ تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومِن ههنا دَخلَ عَليهما؛ لمَّا عَرفَ أنَّهما يُريدانِ الخُلودَ فيها، وهذا بابُ كَيدِهِ الأعظَمُ الَّذي يَدخلُ منه على ابنِ آدَمَ؛ فإنَّهُ يَجرِي منه مَجرَى الدَّمِ حتَّى يُصادِفَ نفسَهُ ويخالِطَها ويَسألها عمَّا تُحِبُّهُ وتُؤْثِرُهُ؛ فإذا عَرَفَهُ، استعانَ بها على العبدِ ودَخلَ عليه من هذا البابِ، وكذلكَ عَلَّمَ إخوانَهُ وأولياءَهُ منَ الإنسِ إذا أرادُوا أغراضَهُمُ الفاسدةَ من بعضِهِم بَعضًا أن يَدخُلُوا عليهم منَ البابِ الَّذي يُحبُّونَهُ ويَهوَوْنَهُ؛ فإنَّهُ بابٌ لا يَخذُلُ عن حاجتِهِ مَن دَخلَ منه، ومَن رامَ الدُّخولَ من غَيرِهِ، فالبابُ عليهِ مَسدُودٌ، وهو عن طريقِ مَقصِدِهِ مَصدُودٌ.

فشامَّ[(١)] عَدُوُّ اللهِ الأبوَينِ فأَحَسَّ منهما إيناسًا ورُكونًا إلى الخُلدِ في تلكَ الدَّارِ في النَّعيمِ المقِيمِ؛ فعَلِمَ أنَّهُ لا يُدخَلُ عليهما من غيرِ هذا البابِ؛ فقَاسَمَهُما باللهِ: إنَّه لَهُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ، وقالَ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾»[(٢)(٣)].

وقالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد أوهَمَ أبليسُ آدَمَ وزَوجَهُ أنَّهما مُتَمَكِّنانِ أن يَّصِيرَا مَلَكَينِ منَ الملائكةِ إذا أَكَلا منَ الشَّجرةِ، وهذا من

---

(١) الشَّمُّ: حِسُّ الأنفِ، شَمِمْتُهُ بالكَسرِ، أَشَمُّهُ بالفَتحِ، وشَمَمْتُهُ أَشُمُّهُ بالضَّمِّ، وشَامِمْهُ: أيِ: انظر: ما عندَهُ، وقارِبْهُ، واذنُ منه. انظر: القاموس المحيط: (ص١٠٣٩).

(٢) إغاثة اللهفان: (١/ ٢١٥).

(٣) ويُشبِهُ هذا الكلامَ كلامُ ابنِ الجوزيِّ الذي ذُكر فيما مضى. انظر: (ص٤٦ ـ ٤٧).

تَدجِيلِهِ وتَلبِيسِهِ إذ أَلفَى آدَمَ وزَوجَهُ غيرَ مُتَبَصِّرَينِ في حقائقِ الأشياءِ، ولا عالِمَيْنِ المقدارَ المُمكِنَ في انقلابِ الأعيانِ وتطوُّرِ المَوجُوداتِ، وكانا يُشاهِدَانِ تفضيلَ الملائكةِ عندَ اللهِ تعالى وزُلفاهُم وسَعَةَ مَقدِرَتِهِم فأَطْمَعَهُما إبليسُ أن يَصِيرَا منَ الملائكةِ إذا أكلا مِنَ الشَّجرةِ»[١].

ولا يزالُ الشَّيطانُ يَدخُلُ بهذا الأسلوبِ على بَني آدَمَ فاستطاعَ أن يُضِلَّ كثيرًا منَ النَّاسِ وأن يَصُدَّهُم عنِ الحَقِّ من حيثُ لا يَشعُرُونَ.

• الإفراطُ والتَّفريطُ:

مِن مَداخِلِ الشَّيطانِ الخطيرةِ الَّتِي يَدخُلُ بها على الإنسانِ: مَدخَلُ الإفراطِ أوِ التَّفريطِ؛ فإنَّهُ إذا رَأى الإنسانَ غَلَّبَ أحدَ هذَينِ الأمرَينِ، دَخَلَ عليهِ من خِلالِهِ؛ فكانَ سَبَبًا في إعراضِهِ عنِ الحقِّ.

قالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «ومِن كَيدِهِ العَجيبِ: أنَّه يُشَامُّ النَّفسَ حتَّى يَعلَمَ أيَّ القُوَّتَينِ تَغلِبُ عليها: قُوَّةُ الإقدامِ والشَّجاعةِ أم قُوَّةُ الانكفافِ والإحجامِ والمهانةِ، فإنْ رأى الغالِبَ على النَّفسِ المهانةَ والإحجامَ، أَخَذَ في تَثبِيطِهِ وإضعافِ هِمَّتِهِ وإرادتِهِ عنِ المأمورِ به، وثَقَّلَهُ عليه، فهَوَّنَ عليه تَركَهُ حتَّى يَترُكَهُ جملةً أو يُقصِّرَ فيه ويَتهاوَنَ به، وإن رأى الغالِبَ عليه قوَّةَ الإقدامِ وعُلُوَّ الهِمَّةِ، أَخَذَ يُقَلِّلُ عندَهُ المأمورَ به ويُوهِمُهُ أنَّه لا يَكفِيهِ وأنَّه يَحتاجُ معه إلى مبالغةٍ وزيادةٍ فيُقَصِّرُ بالأوَّلِ ويَتجاوَزُ بالثَّاني؛ كما قالَ بعضُ السَّلفِ: «ما أَمَرَ اللهُ تعالى بأَمْرٍ إلَّا وللشَّيطانِ فيه نَزغَتَانِ: إمَّا إلى تَفريطٍ وتَقصيرٍ، وإمَّا إلى مجاوَزَةٍ وغُلُوٍّ، ولا يُبالِي بأيِّهما ظَفَرَ»[٢].

---

(١) التحرير والتنوير: (٨/ ٥٩).

(٢) نَسَبَهُ الخطابيُّ لابن عائشة. انظر: العزلة: (ص٢٣٧).

وقدِ اقتُطِعَ أكثرُ النَّاس إلَّا أقلَّ القليلِ في هذينِ الوادِيَيْنِ: وادِي التَّقصيرِ ووادِي المُجاوَزَةِ والتَّعدِّي، والقليلُ منهم جِدًّا الثَّابتُ على الصِّراطِ الَّذي كانَ عليه رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُهُ»(١).

لقدِ استَغَلَّ الشَّيطانُ هذَينِ الجانبَينِ «الإفراطَ أوِ التَّفريطَ» في إضلالِ كثيرٍ منَ النَّاسِ وصَدِّهِم عنِ الحَقِّ، ولِذَلِكَ ضَلَّتْ كثيرٌ منَ الفِرَقِ الإسلاميَّةِ حِينَ غَلَّبَتْ أحدَ الجانبَينِ.

فمَثَلًا في بابِ الصِّفاتِ في العقيدةِ منهم مَن غَلا في جانبِ التَّعطيلِ حتَّى أنكَرَ أسماءَ اللهِ وصفاتِهِ، ومنهم مَن أثبَتَ أسماءَ اللهِ وأنكَرَ صفاتِهِ، أو بعضَها، ومنهم مَن تَساهَلَ وفَرَّطَ حتَّى جَعَلَ صفاتِ اللهِ ﷻ تُماثِلُ صفاتِ المخلوقِينَ، والوَسَطُ ما ذَهَبَ إليه أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ؛ بإثباتِ ما أثبَتَهُ اللهُ لنَفسِهِ، أو أثبَتَهُ له رسولُ اللهِ ﷺ منَ الأسماءِ والصِّفاتِ من غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غيرِ تكييفٍ ولا تمثيلٍ.

وكذلكَ منَ الأمثلةِ على ذلكَ: مسألةُ: «حُكمِ مُرتكِبِ الكبيرةِ»؛ فمنهم مَن غَلَا حتَّى كَفَّرَ مُرتكِبَ الكبيرةِ؛ كما هو مذهبُ الخوارجِ، أو جَعَلَهُ في منزلةٍ بينَ المنزلتَينِ؛ كما هو مَذهبُ المعتزلةِ، ومنهم مَن تساهَلَ حتَّى قالُوا: لا يَضُرُّ مع الإيمانِ ذَنبٌ كما هو مَذهَبُ المُرجِئَةِ، والوَسَطُ في ذلكَ مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ؛ وهو أنَّ مُرتكِبَ الكبيرةِ مؤمنٌ بإيمانِهِ فاسِقٌ بكَبيرتِهِ؛ فإذا مَاتَ، فهو تحتَ مشيئةِ اللهِ؛ إنْ شاءَ عَفَا عنه، وإنْ شاءَ عَذَّبَهُ.

- **استغلالُ الطِّباعِ:**

كذلكَ يَستَغِلُّ الشَّيطانُ الخُلُقَ والطَّبعَ الَّذي يَغلِبُ على الشَّخصِ؛

---

(١) إغاثة اللهفان: (١/ ٢٢٢). وقد ذكر ابن القيم صورًا كثيرة للإفراط والتفريط. انظر: إغاثة اللهفان: (١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٦).

فيَدخُلُ إليهِ من خلالِهِ، فيكونُ ذلكَ صَدًّا له عن أبوابِ الخيرِ.

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «والشَّيطانُ يريدُ منَ الإنسانِ الإسرافَ في أمورِهِ كُلِّها؛ فإنَّهُ إنْ رآهُ مائِلًا إلى الرَّحمةِ، زَيَّنَ له الرَّحمةَ حتَّى لا يُبغِضَ ما أبغَضَهُ اللهُ، ولا يَغار لما يَغارُ اللهُ منه، وإن رآهُ مائِلًا إلى الشِّدَّةِ، زَيَّنَ له الشِّدَّةَ في غيرِ ذاتِ اللهِ؛ حتَّى يَترُكَ من الإحسانِ والبِرِّ واللِّينِ والصِّلَةِ والرَّحمةِ ما يَأمُرُ الله به ورسولُهُ ﷺ، ويَتَعَدَّى في الشِّدَّةِ فيَزِيدُ الذَّمَّ والبُغضَ والعِقابَ على ما يُحِبُّهُ اللهُ ورسولُهُ، فهذا يَترُكُ ما أَمَرَ اللهُ به؛ منَ الرَّحمةِ والإحسانِ، وهو مذمومٌ مُذنِبٌ في ذلكَ، ويُسرِفُ فيما أَمَرَ الله به ورسولُهُ منَ الشِّدَّةِ حتَّى يَتَعَدَّى الحُدودَ وهو من إسرافِهِ في أَمرِهِ؛ فالأوَّلُ مُذنِبٌ، والثَّاني مُسرِفٌ؛ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١] فليقولا جميعًا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]»[١].

- **طَلَبُ التَّرقِّي والعُلُوِّ:**

مِنَ المَداخِلِ الَّتِي يَدخُلُ بها الشَّيطانُ على الإنسانِ: الإمارةُ والسُّلطةُ، فيَدخُلُ على مَن آتاهُ اللهُ الإمارةَ بمَداخِلَ كثيرةٍ تكونُ سَبَبًا في ضَلالِهِ وصَدِّهِ عنِ الحقِّ، وقد يَدخُلُ على العلماءِ والعُبَّادِ والزُّهادِ من قِبَلِ عِلمِهِم وعِبادَتِهِم وزُهدِهِم في أُمورٍ كثيرةٍ يَظُنُّونَها في ظاهرِ أمرِها حَقًّا وهي في الحقيقةِ من تَلبيسِ إبليسَ[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٥/ ٢٩٢).

(٢) ذكر الإمام ابن الجوزي في كتابِهِ: «تلبيس إبليس» أمثلةً لتَلبِيسِ الشَّيطانِ على العلماءِ والعُبَّادِ والزُّهادِ، وإن كانَ في تطبيقاتِ بعضِها وجهاتُ نظرٍ؛ إلا أنَّ ذلكَ لا يَنفِي وجودَ أصلِ التلبيسِ على الإنسانِ.

هذه بعضُ مداخلِ الشَّيطانِ على الإنسانِ؛ فعلى المسلمِ أن يَتَنبَّهَ لمداخلِ الشَّيطانِ الخادعةِ الَّتِي يَهدُفُ بها إلى إيقاع النَّاس في الضَّلالِ والباطلِ؛ نسألُ اللهَ ﷻ أن يَحفَظَنا والمسلمينَ أجمعِينَ.

سَادِسًا: النِّسيانُ:

هذا الأسلوبُ من مكائدِهِ في صَدِّ بنِي آدَمَ عن الحَقِّ، وقد ذَكَرَ اللهُ ﷻ ذلكَ في كتابِهِ الكريم؛ قالَ تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «اسْتَحْوَذَ على قلوبِهِمُ الشَّيطانُ حَتَّى أنساهُم أن يَذكُرُوا اللهَ ﷿، وكذلكَ يَصنَعُ بمَنِ استَحْوَذَ عليهِ»[1].

وقالَ القُرطبيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أوامِرَهُ في العَمَلِ بطاعتِهِ».

قد جَعَلَ الشَّيطانُ هذا النِّسيانَ من أساليبِهِ في إضلالِ النَّاسِ وصَدِّهِم عنِ الحَقِّ؛ فكُلُّ عَمَلٍ يريدُ الإنسانُ القيامَ به، وفيه خَيرٌ وصلاحٌ يحاولُ الشَّيطانُ أن يُنسِيَهُ هذا العملَ؛ فمَثَلًا في قصةِ يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عندَما قالَ للنَّاجِي من الاثنينِ اللَّذَينِ كانا معه في السجنِ: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، وأرادَ الخُروجَ منَ السِّجنِ؛ عَلِمَ الشَّيطان أنَّ في خُروجِ يُوسُفَ منَ السِّجنِ نَشْرًا للخَيرِ والعِلمِ، فقامَ بإنساءِ النَّاجِي أَمْرَ يُوسُفَ: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «فنَسِيَ ذلكَ المُوصَى أن يُذَكِّرَ مَولاهُ بذلكَ، وكانَ مِن جُملةِ مكايدِ الشَّيطانِ؛

(١) تفسير القرآن العظيم: (٨/ ٥٣).

لِئَلَّا يَطْلُعَ نبيُّ اللهِ منَ السِّجنِ»[١][٢].

وكذلكَ في قِصَّةِ مُوسى ﷺ مع الخَضِرِ، لمَّا ذَهَبَ موسى ﷺ يَطلُبُ الخَضِرَ؛ لِيَنتَفِعَ بعِلمِهِ والشَّيطانُ يَسُوؤهُ ذلكَ؛ لأنَّ في الْتِقَائِهِمَا بَذْلًا للخَيرِ ونَشْرًا للعِلمِ؛ فحاوَلَ بهذه الطَّريقةِ أن يكونَ سَبَبًا في الحيلولةِ دونَ ذلكَ اللِّقاءِ.

قال ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللهُ: «ومع كَونِ المَنْسِيِّ أُعجوبةً شَأْنُها أن لَّا تُنْسَى؛ يَتَعَيَّنُ أنَّ الشَّيطانَ أَلهاهُ بأشياءَ عن أن يَتَذَكَّرَ ذلكَ الحادثَ العجيبَ، وعَلِمَ يُوشَعُ أنَّ الشَّيطانَ يَسُوؤهُ الْتِقَاءُ هذينِ العَبدَينِ الصَّالحَينِ، وما له من أثرٍ في بَثِّ العُلومِ الصَّالحةِ؛ فهو يَصرِفُ عنها ولو بتَأْخِيرِ وُقوعِها؛ طَمَعًا في حُدوثِ العَوائقِ»[٣]، ولِذَلِكَ استدرَكَ ونَسَبَ ذلكَ النِّسيانَ للشَّيطانِ؛ ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣].

إنَّ الشَّيطانَ يَسعَى جاهِدًا بهذه الطَّريقةِ حتَّى يُوقِعَ الإنسانَ في

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٤/ ٣٩١).

(٢) اختُلِفَ في مَرجِعِ الضَّميرِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾؛ فقيل: يرجع إلى يوسف ﷺ، وقيل: يرجع إلى الناجي وهو الصحيح لما يأتي:
أ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥]، فقَولُهُ: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ دليلٌ على أنه كان قد نسي فادَّكَرَ.
ب ـ ضَعفُ الحديثِ الَّذي استدَلُّوا به في ذلك؛ وهو قوله ﷺ: (لَوْ لَمْ يَقُلِ الكَلِمَةَ الَّتِي قَالَ، مَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ؛ حَيْثُ يَبْتَغِي الفَرَجَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ)؛ قال عنه ابن كثيرٍ: ضعيفٌ جدًّا.
وقد رَجَّحَ القَولَ بأنَّ الضَّميرَ يَرجِعُ إلى النَّاجِي: أبو حيَّانَ في البحر: (٥/ ٤٠٤)، وشيخ الاسلام ابن تيمية مجموع الفتاوى: (١٥/ ١١٨) وأبو السعود؛ في إرشاد العقل السليم: (٣/ ٣٩٧)، والألوسي في روح المعاني: (٦/ ٤٣٧) وابن كثير في تفسير القرآن العظيم: (٤/ ٣٩١).

(٣) التحرير والتنوير: (١٥/ ٣٦٧).

الضَّلالِ، ولِذَلِكَ لمَّا نَهى اللهُ ﷻ عن مجالسةِ الَّذين يخُوضُونَ في آياتِ اللهِ، حَذَّرَهُم منَ الشَّيطانِ أن يُنْسِيَهُمُ النَّهيَ عن مجالستِهم.

قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، «وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ الشَّيطانَ قد يُنْسِي بعضَ المسلمِينَ هذا الحكمَ، وإذا نَسِيَ المسلمُ فلا يُؤاخَذُ، ولكن إذا تَذَكَّرَ الحُكمَ، فعليهِ أن يَلتزمَ ما أُمِرَ به، وأن يَنتَهِيَ عمَّا نُهِيَ عنه، والشَّيطانُ يَحرِصُ على أن يُنسِيَ المسلمَ هذا الحكمَ؛ حتَّى يَبقَى مع هؤلاءِ فتُثَارُ عليه شُبهةٌ قد تُلَبِّسُ عليه دِينَهُ، أو يُكثِرُ الإمساسَ فيَقِلَّ الإحساسُ، فإذا سَمِعَ ذلكَ، لم يَرَ به بَأسًا، ولم يَرفَعْ له رَأْسًا»[1].

إنَّ الأُمورَ الَّتِي يحاوِلُ الشَّيطانُ أن يُنْسِيَها العبدَ كثيرةٌ؛ فكُلُّ ما هو ذِكرٌ للهِ ﷻ، أو خَيرٌ أو صلاحٌ، أو أَمرٌ فيه بيانٌ للحقِّ وإزهاقٌ للباطلِ، أو أَمرٌ فيه نَشرٌ للعِلمِ بينَ النَّاسِ، وغيرُ ذلكَ منَ الأُمورِ الَّتِي تَسُوءُ الشَّيطانَ؛ فإنَّ الشَّيطانَ بهذا النِّسيانِ يحاولُ إبعادَهُم عنه.

سابعًا: الاستفزازُ بالصَّوتِ:

والاستفزازُ بالصَّوتِ منَ الأساليبِ الَّتِي يَستَخدِمُها الشَّيطانُ في الصَّدِّ عنِ الحَقِّ.

قالَ تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

قالَ ابنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «**معناهُ**: استَخِفَّ واخدَعْ حتَّى يَقَعَ في إرادتِكَ، تقولُ: استَفَزَّنِي فلانٌ في كذا، إذا خَدَعَكَ حتَّى تَقَعَ في أمرٍ

(١) عداوة الشيطان للإنسان كما جاءت في القرآن: (ص٣٤).

أرادَهُ»[١].

واستِفزَازُ الشَّيطانِ بالصَّوتِ عامٌّ، يَدخُلُ فيه كلُّ شيءٍ يَدعُو فيه إلى معصيةِ اللهِ ﷻ والإعراضِ عن ذِكرِهِ؛ قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: «صَوتُهُ: كُلُّ دَاعٍ دَعَا إلى معصيةِ اللهِ»[٢].

وقالَ ابنُ جَريرٍ رحمه الله: «إنَّ اللهَ ـ تبارَكَ وتعالى ـ قالَ لإبليسَ: واستَفْزِزْ من ذُرِّيَّةِ آدَمَ مَنِ استَطَعْتَ أن تَسْتَفِزَّهُ بصَوتِكَ، ولم يُخَصِّصْ من ذلكَ صَوتًا دُونَ صَوتٍ؛ فكُلُّ صَوتٍ كانَ دُعاءً إليه وإلى عملِهِ وطاعتِهِ؛ وخِلافًا للدُّعاءِ إلى طاعةِ اللهِ فهو داخلٌ في معنَى صَوتِهِ الَّذي قالَ اللهُ ـ تبارَكَ وتعالى اسمُهُ ـ له: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]»[٣].

ومقصودُ الشَّيطانِ من هذا الاستفزازِ الصَّدُّ عنِ الحقِّ.

قالَ القُرطبيُّ رحمه الله: «والمعنَى: اسْتَزِلَّهُ بقَطعِكَ إيَّاهُ عنِ الحقِّ»[٤].

وإنَّ من أعظَمِ الأصواتِ الَّتِي يَستَفِزُّ بها الشَّيطانُ عِبادَ اللهِ: «الغِناءَ»؛ فقد فَسَّرَ بعضُ العلماءِ الاستفزازَ بالصَّوتِ بالغِناءِ؛ كما هو مَروِيٌّ عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه أنَّهُ قالَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦]: قالَ: «هو واللهِ الغناءُ»[٥].

فقد صَدَّ الشَّيطانُ بهذا الغناءِ كثيرًا منَ النَّاسِ عن عبادةِ اللهِ، وكانَ سَبَبًا في إعراضِ كثيرٍ منَ النَّاسِ عن ذِكرِ اللهِ وعنِ القُرآنِ.

---

(١) المحرر الوجيز: (١٥/٥٠٨).
(٢) جامع البيان: (١٤/٦٥٧).
(٣) المصدر السابق: (١٤/٦٥٨).
(٤) الجامع لأحكام القرآن: (١٣/١١٨).
(٥) أخرجه الحاكم وصححه: (٢/٤٨٣ ـ ٤٨٤)، كتاب التفسير، تفسير سورة لقمان، حديث رقم: (٣٥٩٩).

قالَ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنَّ السُّكْرَ بالأصواتِ المطربةِ قد يَصِيرُ من جنسِ السُّكرِ بالأشربةِ المُطرِبَةِ؛ فتَصُدُّهُم عن ذِكرِ اللهِ وعنِ الصَّلاةِ، وتَمنَعُ قلوبَهُم حلاوةَ القُرآنِ وفَهْمَ مَعانِيهِ واتِّباعَهُ»(١).

وقالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومِن مكايدِ عَدُوِّ اللهِ ومصايدِهِ الَّتِي كادَ بها مَن قلَّ نَصِيبُهُ منَ العِلمِ والعَقلِ والدِّينِ، وصادَ بها قُلوبَ الجاهلِينَ والمُبطِلِينَ: سماعُ المُكاءِ والتَّصدِيَةِ والغناءِ بالآلاتِ المحرَّمةِ الَّذي يَصُدُّ القُلوبَ عنِ القُرآنِ ويَجعَلُها عاكِفَةً على الفُسوقِ والعِصيانِ، فهو قُرآنُ الشَّيطانِ والحجابُ الكثيفُ عنِ الرَّحمٰنِ، وهو رُقيةُ اللِّواطِ والزِّنا، وبه يَنالُ العاشقُ الفاسقُ من مَعشوقِهِ غايةَ المُنَى، كادَ به الشَّيطانُ النُّفوسَ المُبطِلَةَ، وحَسَّنَهُ لها مَكْرًا منه وغُرُورًا، وأوحَى إليها الشُّبَهَ الباطلةَ على حُسنِهِ؛ فقَبِلَتْ وَحيَهُ واتَّخذَتْ لأَجْلِهِ القُرآنَ مَهجُورًا؛ فلو رَأيتَهُم عندَ ذَيَّاكَ السَّماعِ وقد خَشَعَتْ منهمُ الأصواتُ، وانْصَبَّتْ انصبابَةً واحدةً إليهِ، فتَمايَلُوا ولا كتَمَايُلِ النَّشْوَانِ(٢)، وتَكَسَّرُوا في حركاتِهِم ورَقْصِهِم، أرأيتَ تَكَسُّرَ المخانيثِ والنِّسوانِ؟! ويَحِقُّ لهم ذلكَ وقد خالَطَ خُمارُهُ النُّفوسْ، ففَعَلَ فيها أعظَمَ ما يَفعَلُهُ حُمَيَّا(٣) الكُؤُوسْ»(٤).

وقالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالصَّوتُ الشَّيطانيُّ يَستَفِزُّ بنِي آدَمَ، وصَوتُ الشَّيطانِ كلُّ صَوتٍ في غَيرِ طاعةِ اللهِ، نُسِبَ إلى الشَّيطانِ لأَمرِهِ به ورِضاهُ به، فلَيسَ هو الصَّوتَ نفسَهُ، فصَوتُ الغناءِ وصَوتُ النَّوحِ وصَوتُ المعازفِ

---

(١) مجموع الفتاوى: (١١/٦٤٣).

(٢) **النَّشوان**: نشى ريحًا طيبة، ورجل نشوانُ ونَشيَانُ: سكرانُ بَيِّنُ النَّشْوَةِ. القاموس المحيط: (ص١٢٢٩).

(٣) لم أقف على معناه، ولعله يقصد اسمًا للخَمرِ. **انظر**: إغاثة اللهفان: (١/٤٠٨). (ط. ابن الجوزي) الحاشية.

(٤) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: (١/٤٠٨).

من الشَّبَّاباتِ[١] والأوتارِ وغَيرِها؛ كلُّها منَ الأصواتِ الَّتِي يَستَفِزُّ بها بنِي آدَمَ فيَستَخِفُّهُم ويُزعِجُهُم؛ ولهذا قالَ السَّلفُ[٢] ـ في هذه الآيةِ ـ: «إنَّهُ الغناءُ»، ولا رَيبَ أنَّهُ من أعظَمِ أصواتِ الشَّيطانِ الَّتِي يَستَفِزُّ بها النُّفوسَ ويُزعِجُها ويُقْلِقُها، وهو ضِدُّ القُرآنِ؛ الَّذي تَطمَئِنُّ به القُلوبُ وتَسكُنُ وتُخْبِتُ إلى رَبِّها؛ فصَوتُ القُرآنِ يُسَكِّنُ النُّفوسَ ويُطَمْئِنُها ويُوَقِّرُها، وصَوتُ الغِناءِ يَستَفِزُّها ويُزعِجُها ويُهَيِّجُها»[٣].

نَعَمْ لَقدِ استطاعَ الشَّيطانُ بهذا الصَّوتِ الشَّيطانيِّ أن يُضِلَّ كَثِيرًا منَ النَّاسِ ويَصُدَّهُم عن نُورِ القُرآنِ، والواقعُ المعاصرُ أكبَرُ شاهدٍ على هذا؛ فقدِ انتَشَرَ هذا الصَّوتُ الشَّيطانيُّ انتِشَارًا عَجِيبًا بينَ النَّاسِ، في جميعِ الأجهزةِ الَّتِي يَستَخدِمُها النَّاسُ بشَتَّى أنواعِها، وأصبَحَ هذا الصَّوتُ يُسْمَعُ مع الصَّغيرِ والكبيرِ، واعتاضُوا به عنِ القُرآنِ الكريمِ الَّذي فيه صَلاحُهُم وسعادتُهُم، وإنَّ ممَّا يَبعَثُ الأَسَى والحُزنَ في القَلبِ انصرافَ كثيرٍ منَ المسلِمِينَ عن نُورِ القُرآنِ الكريمِ وعنِ الاستقامةِ على دِينِ اللهِ بسَبَبِ هذا الصَّوتِ الشَّيطانيِّ، وصَدَقَ فيهم قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٣٠].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «والعُدولُ عنه إلى غَيرِهِ؛ مِن شِعرٍ، أو قَولٍ، أو غِناءٍ، أو لَهوٍ، أو كَلامٍ، أو طَريقةٍ مأخوذةٍ من غَيرِهِ: مِن هِجرانِهِ»[٤].

---

(١) الشَّبَّاباتُ: قال النَّوَوِيُّ ـ عند تعريفه لكلمة يراع ـ: «وهي الزُّمَّارةُ الَّتِي تُسَمِّيها النَّاسُ الشَّبَّابة». انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (٣/١٩٩).

(٢) هو: ابن مسعود رضي الله عنه؛ كما سبق. انظر: (ص٩٧).

(٣) الكلام على مسألة السماع: (٣٧٩ ـ ٣٨٠).

(٤) تفسير القرآن العظيم: (٦/١٠٨).

بل وللأسفِ الشَّديدِ أصبَحَ مَن يَبرَعُ في هذا الصَّوتِ الشَّيطانيِّ يُثنَى عليه ويُصَوَّرُ أمامَ النَّاسِ مِثالًا يُحتَذَى للشَّخصيةِ الَّتِي نَجَحَتْ في حياتِها، وهذا مِن تلبيسِ إبليسَ.

فعلى المسلمِينَ أن يَتَّقُوا اللهَ ﷻ وأن يَرجِعُوا إلى النُّورِ المُبِينِ حتَّى يَنالُوا الفَوزَ في الدُّنيا والآخرةِ، ولْيَعْلَمِ الإنسانُ أنَّهُ محاسَبٌ عن كلِّ شَيءٍ يَسمَعُهُ؛ قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

ويَنبَغِي للعُلماءِ والدُّعاةِ إلى اللهِ أن يكونَ لهم أثرٌ كبيرٌ في إنكارِ هذا المُنكَرِ الخطيرِ، وتَبصِيرِ النَّاسِ بجُرمِ مَن يَستَمِعُ إلى هذه الأصواتِ الشَّيطانيَّةِ.

ثامِنًا: المُشارَكَةُ في الأموالِ والأولادِ:

إنَّ الشَّيطانَ لا يَألُو جُهدًا في أن يُضِلَّ الإنسانَ بأيِّ طريقٍ استطاعَ؛ ومِن ذلكَ دُخولُهُ من خلالِ الأموالِ والأولادِ؛ لِتَكُونَ سَبَبًا في الضَّلالِ.

قالَ تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الإسراء: ٦٤].

لقدِ استطاعَ الشَّيطانُ من خلالِ مشاركتِهِ في الأموالِ والأولادِ أن يُضِلَّ كثيرًا منَ النَّاسِ وأن يَمنَعَهُم منِ اتِّباعِ الحقِّ، **ولعلَّ الكلامَ يكونُ أوَّلًا عنِ الأموالِ:**

- **مُشاركةُ الشَّيطانِ في الأموالِ:**

اختَلَفَ العُلماءُ في كيفيَّةِ مُشاركةِ الشَّيطانِ للإنسانِ في المالِ؛ فمِنهُم مَن قالَ: «إنفاقُها في غيرِ طاعةِ اللهِ، ومنهم مَن قالَ: اكتِسَابُها من غَيرِ حِلِّها، ومِنهُم مَن قالَ: تَحريمُ المشركِينَ ما كانُوا يُحرِّمُونَ منَ

الأنعامِ، ومنهم مَن قالَ: ما كانَ يَذبَحُهُ المشركُونَ لآلهتِهِم»[١].

لكنَّ الَّذي يَظهَرُ ـ واللهُ أعلَمُ ـ أنَّ تلكَ الأقوالَ تَدخُلُ كُلُّها في مُشاركةِ الشَّيطانِ في المالِ، وهو ما رَجَّحَهُ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ[٢].

فالأمورُ الَّتي يُشارِكُ فيها الشَّيطانُ الإنسانَ في الأموالِ هي:

١ ـ إنفاقُ المالِ في غيرِ طاعةِ اللهِ.

٢ ـ اكتسابُ الأموالِ من طريقٍ حرامٍ.

٣ ـ تحريمُ ما أَحَلَّ اللهُ منَ الأنعامِ.

٤ ـ الذَّبحُ لغَيرِ اللهِ.

٥ ـ مَنعُ ما أَمَرَ اللهُ به؛ كالزَّكاةِ والنَّفَقةِ الواجبةِ، وعدمِ الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ، وفي أُمورِ الخَيرِ[٣].

٦ ـ مُشاركةُ الإنسانِ في طَعامِهِ[٤]؛ فقد وَرَدَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: (**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ**[٥] **أَن لَّا يُذْكَرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِهِ الجَارِيَةِ؛ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا، فَأَخَذْتُ بِيَدِها، فَجَاءَ بِهَذَا الأَعْرَابِيِّ؛ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدِهَا**)[٦].

---

(١) **انظر**: جامع البيان: (١٤/ ٦٦٠ ـ ٦٦٢)، **وانظر**: زاد المسير: (٥/ ٥٨ ـ ٥٩).

(٢) **انظر**: جامع البيان: (١٤/ ٦٦٣).

(٣) **انظر**: تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٩٢٩)، **وانظر**: عداوة الشيطان للإنسان كما جاءت في القرآن: (ص٩٠).

(٤) **انظر**: تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٩٢٩)، **وانظر**: عداوة الشيطان للإنسان كما جاءت في القرآن: (ص٩١).

(٥) قال الإمام النووي: «معنَى: يَستَحِلُّ: يَتَمَكَّنُ من أكلِهِ، ومعناهُ: أنه يتمكن من أكل الطعام إذا شرع فيه إنسان بغير ذكر الله تعالى». **انظر**: شرح النووي على صحيح مسلم: (١٣/ ١٩٧).

(٦) صحيح مسلم: (٢/ ٩٧١)، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، حديث رقم: (٢٠١٧).

وغيرُها منَ الأُمورِ الَّتِي يكونُ فيها الشَّيطانُ شَرِيكًا للإنسانِ في مالِهِ.

فعَلَى المسلمِ أن لَّا يَجعَلَ للشَّيطانِ سَبِيلًا في هذا المالِ الَّذي وَهَبَهُ اللهُ ﷻ، وأن يَستَعمِلَهُ في طاعةِ رَبِّهِ.

- **مُشاركةُ الشَّيطانِ في الأولادِ:**

اختَلَفَ العلماءُ في كيفيَّةِ مشاركةِ الشَّيطانِ للإنسانِ في أولاده:

- فمنهم مَن قالَ: شَرِكَتُهُ إيَّاهُم فيهم بِزِنَاهُم بأُمَّهاتِهِم.

- وقالَ بعضُهُم: المَوْؤُودَةُ مِن أولادِهِم.

- وقالَ بعضُهُم: تَسمِيَةُ أولادِهِم عَبِيدًا لأوثَانِهِم؛ كعَبْدِ شَمسٍ، وعَبدِ العُزَّى، وعبدِ منافٍ.

- وقالَ بعضُهُم: ما مَجَّسُوا وهَوَّدُوا ونَصَّرُوا، وصَبَغُوا من أولادِهِم غيرَ صِبغَةِ الإسلامِ[1].

والَّذي يَظهَرُ - والله أعلم - أنَّ جميعَ تلكَ الأقوالِ تَدخُلُ في مشاركةِ الشَّيطانِ للإنسانِ في الأولادِ؛ إذ لا مُخَصِّصَ يُخَصِّصُ قَولَهُ: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الإسراء: ٦٤] بأَحَدِ تلكَ الأقوالِ، وهو ما رَجَّحَهُ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ![2]

فالأُمورُ الَّتِي يُشارِكُ فيها الشَّيطانُ الإنسانَ في الأولادِ هي:

١ - المشاركةُ في الوَطءِ الحرامِ.

٢ - وَأْدُ الأولادِ وقَتلُهُم.

---

(١) انظر: جامع البيان: (١٤/٦٦٣ - ٦٦٥)، وانظر: زاد المسير في علم التفسير: (٥/٥٨ - ٥٩).

(٢) انظر: جامع البيان: (١٤/٦٦٥ - ٦٦٦).

٣ ـ تَسمِيَةُ الأولادِ بأسماءٍ لا يَرضَاهَا اللهُ ﷻ.

٤ ـ تَنشِئَةُ الأولادِ على دِينٍ باطلٍ؛ كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: (يَقُولُ اللهُ ﷻ: وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاء كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِم مَّا أَحْلَلْتُ لَهُمْ)[1].

٥ ـ عدمُ تربيةِ الابنِ التَّربيةَ الصَّالحةَ[2].

فلا يُرَبِّي الأبُ ابنَهُ على الصَّلاةِ ولا على القُرآنِ ولا على الأخلاقِ الفاضلةِ فيَنشَأُ نَشأةً غيرَ صالحةٍ، أو «يستَجِيبُ لمطالِبِ ولدِهِ المحرَّمةِ، وهذا كثيرٌ في هذا العَصرِ؛ فإنَّ الولدَ يَتَطَلَّعُ إلى مَن حولَهُ من أصدقاءَ، فيُحِبُّ أن يُجارِيَهُم فيَطلُبُ من أبيهِ شَيئًا مُحرَّمًا ويُلِحُّ في الطَّلَبِ، وكثيرٌ منَ الآباءِ يَستَجِيبُونَ لأولادِهِم؛ فيُدخِلُونَ في بُيُوتِهِم آلاتِ اللَّهْوِ والمعازفَ والمجلاتِ الخليعةَ والكُتُبَ الضَّارَّةَ والقَنواتِ الفضائيَّةَ الهابطةَ، أو يَشتَرِي له سيَّارةً، ويَترُكُ له الحَبلَ على الغارِبِ؛ فيُؤذِي عِبادَ اللهِ، ورُبَّما ألزَمَ والدَهُ بأموالٍ لا طاقةَ له بها!! وذلكَ أنَّ بعضَ الآباءِ يَنظُرُونَ إلى طَلَبِ الولدِ بعَينِ الشَّفقةِ لا بِعَينِ العَقلِ والحِكمةِ والمَصلحَةِ؛ فكثيرًا ما يَجلِبُ الولدُ الضَّرَرَ على نفسِهِ أوَّلًا، ثم على والدِهِ وأُسرتِهِ ومُجتَمَعِهِ، وهذا من مصايِدِ الشَّيطانِ وحِبالِهِ الَّتِي يَصِيدُ بها الآباءَ؛ فعلى الأبِ أن يُربِّيَ ابنَهُ التَّربيةَ الصَّالحةَ، وأن يَقِيَهُ النَّارَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] حتَّى يكون له عَونًا على طاعةِ اللهِ وقُرَّةَ عَينٍ في الدُّنيا والآخرةِ ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ

---

(١) صحيح مسلم: (٢/ ١٣١٠ ـ ١٣١١)، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات الَّتي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، حديث رقم: (٢٨٦٥).

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٩٢٩).

أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]»[1].

تاسِعًا: استغلالُ ذُنوبِ الإنسانِ:

إنَّ الذُّنوبَ منَ الفُرَصِ الَّتِي يَستَغِلُّها الشَّيطانُ في إضلالِ بنِي آدَمَ وصَدِّهِم عنِ الحَقِّ، وقد ذَكَرَ اللهُ ﷻ مِثالًا لهذا الاستغلالِ منَ الشَّيطانِ.

قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «أخبَرَ ﷻ عن تَوَلِّي مَن تَوَلَّى مِنَ المؤمِنِينَ الصَّادقِينَ في ذلكَ اليومِ، وأنَّهُ بسَبَبِ كَسبِهِم وذُنُوبِهِم؛ فاسْتَزَلَّهُمُ الشَّيطانُ بتلكَ الأعمالِ حتَّى تَوَلَّوْا، فكانت أعمالُهُم جُنْدًا عليهم، ازدادَ بها عَدُوُّهُم قُوَّةً.

فإنَّ الأعمالَ جُندٌ للعَبدِ وجُندٌ عليهِ ولا بُدَّ، فلِلعَبدِ كُلَّ وَقتٍ سَرِيَّةٌ مِن نفسِهِ تَهزِمُهُ أو تَنصُرُهُ؛ فهو يَمُدُّ عَدُوَّهُ بأعمالِهِ من حيثُ يَظُنُّ أنَّهُ يقاتِلُهُ بها، ويَبعَثُ إليه سَرِيَّةً تَغزُوهُ مع عَدُوِّهِ من حيثُ يَظُنُّ أنَّهُ يَغزُو عَدُوَّهُ؛ فأعمالُ العبدِ تَسُوقُهُ قَسْرًا إلى مقتضاها منَ الخَيرِ والشَّرِّ، والعبدُ لا يَشعُرُ، أو يَشعُرُ ويَتَعَامَى؛ ففِرارُ الإنسانِ من عَدوِّهِ وهو يُطِيقُهُ إنَّما هو بجُندٍ مِن عَمَلِهِ بَعَثَهُ له الشَّيطانُ واستَزَلَّهُ به»[2].

فالذُّنوبُ سببٌ كبيرٌ من أسبابِ تَسَلُّطِ الشَّيطانِ على الإنسانِ.

قالَ الشَّيخُ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «يُخبِرُ تعالى عن حالِ الَّذينَ انهَزَمُوا يومَ

---

(١) عداوة الشيطان للإنسان كما جاءت في القرآن: (ص٩٤)، بتصرف يسير.

(٢) زاد المعاد: (٣/ ٢١٣).

أُحُدٍ، وما الَّذي أَوجَبَ لهمُ الفِرارَ، وأنَّهُ مِن تَسوِيلِ الشَّيطانِ، وأنَّهُ تَسلَّطَ عليهِم بِبَعضِ ذُنوبِهِم، فهمُ الَّذِينَ أدخَلُوهُ على أنفُسِهِم ومَكَّنُوهُ؛ بما فَعَلُوا مِنَ المعاصِي؛ لأنَّها مَرْكَبَةٌ ومَدْخَلَةٌ؛ فلوِ اعتَصَمُوا بطاعةِ ربِّهِم، لَمَا كانَ له عليهِم من سُلطانٍ؛ قالَ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]، ثُمَّ أخبَرَ أنَّهُ عَفَا عَنهُم بعدَ ما فَعَلُوا ما يُوجِبُ المؤاخذةَ، وإلَّا فلو آخَذَهُم، لَاسْتَأْصَلَهُم»[١].

وقالَ ابنُ عُثَيمِين رَحِمَهُ اللَّهُ: «أيْ: إنَّ لَدَيهِم ذُنوبًا كانَتْ سابقةً، ثُمَّ إنَّ الشَّيطانَ اسْتَزَلَّهُم بها؛ أيْ: أوقَعَهُم في الزَّلَلِ بسَببِ هذه الذُّنوبِ؛ لأنَّ الذُّنوبَ تكونُ سَبَبًا للذُّنوبِ الأُخرَى، ولهذا قالَ بعضُ السَّلفِ: إنَّ علامةَ قَبولِ الحَسَنَةِ الحَسَنَةُ بَعدَها، ومِن علامةِ رَدِّها السَّيِّئَةُ بعدَها[٢]، فالإنسانُ إذا أذنَبَ ذَنْبًا، فإنَّهُ إن لَمْ يَتُبْ، فإنَّ الشَّيطانَ يُوقِعُهُ في ذَنبٍ آخَرَ، وهكذا حتَّى يُصبحَ قد أحاطَتْ به خطيئتُهُ»[٣].

ويَدخُلُ في استغلالِ الشَّيطانِ للإنسانِ عن طريقِ الذُّنوبِ تَذكِيرُهُ بالذُّنوبِ الَّتِي وَقَعَتْ منه؛ فقد ذَكَرَ بعضُ العُلماءِ في تفسيرِ الآيةِ هذا المعنَى.

قالَ القُرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعنَى: ﴿ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: استَدْعَى زَلَلَهُم؛ بأن ذَكَّرَهُم خَطايا سَلَفَتْ منهم، فكَرِهُوا الثُّبُوتَ؛ لِئَلَّا يُقتَلُوا»[٤].

فبابُ الذُّنوبِ بابٌ خطيرٌ، فكَم من معصيةٍ فَتَكَتْ بصَاحِبِها وجَعَلَتْهُ

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤).

(٢) قائله: سعيد بن جبير؛ بلفظ: «إنَّ مِن ثوابِ الحَسَنَةِ الحَسَنَةَ بَعدَها، وإنَّ مِن عُقوبةِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ بَعدَها». انظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ١١).

(٣) تفسير ابن عثيمين تفسير سورة آل عمران: (٢/ ٣٤١ ـ ٣٤٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن: (٥/ ٣٧٢).

أَسِيرًا للشَّيطانِ يَذهَبُ به كيفَ شاءَ، فالذَّنبُ قد لا يُلقِي له المَرءُ بالًا في بدايةِ الأمرِ؛ لكنَّهُ قد يكونُ بدايةَ هلاكِهِ وإعراضِهِ عن ذِكرِ اللهِ ﷻ؛ فعَلَى المسلمِ أن يكونَ شديدَ الحَذَرِ منَ الذُّنوبِ والمعاصي؛ حتَّى لو كانت صغيرةً؛ فإنَّ المؤمنَ الصَّادقَ إذا ارتكَبَ ذَنبًا صغيرًا، يَرَى في نفسِهِ أنَّهُ أتى شَيئًا عَظيمًا، وقد وَرَدَ عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه أنَّهُ قالَ: «إنَّ المُؤمِنَ يَرَى ذُنوبَهُ كأنَّهُ قَاعِدٌ تَحتَ جَبَلٍ، يخافُ أن يَقَعَ عليه، وإنَّ الفاجِرَ يَرَى ذُنوبَهُ كَذُبابٍ مَرَّ على أنفِهِ، فقالَ به هَكَذَا»[1].

ومِنَ الأمثلةِ الَّتِي ذَكَرَها اللهُ ﷻ في كتابِهِ الكريم - في أنَّ الذُّنوبَ سَببٌ لتَسَلُّطِ الشَّيطانِ على الإنسانِ -: ذلكَ الرَّجُلُ[2] مِن بني إسرائيلَ الَّذي آتاهُ اللهُ العِلمَ فأعرَضَ عنِ العِلمِ وعَصَى اللهَ ﷻ فكانَ سَبَبًا لِتَسَلُّطِ الشَّيطانِ عليه؛ قالَ تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى لنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾؛ **أي**: عَلَّمْناهُ كتابَ اللهِ، فصارَ العالِمَ الكبيرَ والحَبْرَ النِّحْرِيرَ، ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ **أي**: انْسَلَخَ من الاتِّصافِ الحقيقيِّ بالعِلمِ بآياتِ اللهِ؛ فإنَّ العِلمَ بذلكَ يَصِيرُ صاحبُهُ مُتَّصِفًا بمَكارمِ الأخلاقِ ومَحاسِنِ الأعمالِ، ويَرقَى إلى أعلَى الدَّرجاتِ وأرفَعِ المقاماتِ، فتَرَكَ هذا كتابَ اللهِ وراءَ ظَهرِهِ، ونَبَذَ الأخلاقَ الَّتِي يَأمُرُ بها الكتابُ، وخَلَعَها كما يَخلَعُ اللِّباسَ، فلَمَّا انْسَلَخَ منها أَتبَعَهُ الشَّيطانُ؛ **أيْ**: تَسَلَّطَ عليهِ حِينَ خَرَجَ منَ الحِصنِ الحَصِينِ، وصارَ إلى أسفَلِ

---

(١) صحيح البخاري: (٤/ ١٩٨٤) كتاب الدعوات، باب التوبة، حديث رقم: (٦٣٠٨).

(٢) ذكر أكثر المفسرين أنه رجل من علماء بني إسرائيل اسمه: بلعم، وكان مستجاب الدعوة. **انظر**: تفسير القرآن العظيم: (٣/ ٥٠٨).

سَافِلِينَ، فأَزَّهُ إلى المعاصِي أزًّا، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝١٧٥﴾، بَعدَ أن كانَ مِنَ الرَّاشِدِينَ المُرشِدِينَ»[١].

إنَّ هذا المَثَلَ يَدُلُّ على أنَّ مِن أعظَمِ الذُّنوبِ عدمَ العَملِ بالعِلمِ، وقد وَرَدَتْ فيه نُصوصٌ تَدُلُّ على خَطَرِ مَنِ اتَّصَفَ بالعِلمِ ولم يَعمَلْ به، أو أعرَضَ عنه، وإنَّ في هذا المَثَلِ لَذِكْرَى لِمَنْ كانَ له قَلبٌ أو ألقَى السَّمعَ وهو شَهِيدٌ.

فيَنبَغِي لِمَنْ وَهَبَهُ اللهُ العِلمَ أن يَعمَلَ بعِلمِهِ؛ حتَّى لا يكونَ هذا العِلمُ سَبَبًا لِتَسَلُّطِ الشَّيطانِ عليهِ وسَخَطِ اللهِ عليه، وأن يَسألَ اللهَ ﷻ دائمًا أن يكونَ هذا العِلمُ خالِصًا لوَجهِهِ الكريم، وعلينا أن نَحذَرَ ـ أشدَّ الحَذَرِ ـ مِن هذا العَدُوِّ الَّذي يَنتَظِرُ أيَّةَ فُرصَةٍ لِيَتَسَلَّطَ بها عَلينَا.

عاشِرًا: إيقاعُ العداوةِ والبَغضاءِ بينَ المُؤمنِينَ:

إنَّ مِنَ الأُمورِ الَّتِي لا تَسُرُّ الشَّيطانَ تَآلُفَ المؤمنِينَ وتَكاتُفَهُم؛ لأنَّ في تآلُفِ المؤمنِينَ كلَّ خَيرٍ وبِرٍّ، ففِي تآلُفِ المؤمنِينَ جَمعٌ لكَلِمَتِهِم وقُوَّةٌ لشَوكَتِهِم ونَصرٌ لِأُمَّتِهِم، وفي تآلُفِ المؤمنِينَ نَشرٌ للدَّعوةِ الإسلاميَّةِ بينَ النَّاسِ، وفي تآلُفِ المؤمنِينَ نَشرٌ لعِلمِ الكتابِ والسُّنَّةِ، وفي تآلُفِ المؤمنِينَ قَمعٌ للشِّركِ والبِدعةِ، وكُلُّ هذه الأُمورِ لا تُرضِي الشَّيطانَ؛ فيَسعَى حَثِيثًا في إفسادِ الأُخُوَّةِ بينَ المؤمنِينَ، وفي نَشرِ الكراهيةِ والبَغضاءِ بَينَهُم بِشَتَّى الطُّرُقِ، **وقد ذَكَرَ اللهُ ﷻ في كتابِهِ الكريمِ بعضَ الطُّرُقِ الَّتِي يَسلُكُها الشَّيطانُ لإفسادِ الأُخُوَّةِ الإيمانيَّةِ؛ ومنها:**

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٥٩٢).

• **النَّزْغُ:**

ذَكَرَ اللهُ ﷻ في كتابِهِ الكريمِ أنَّ الشَّيطانَ يَنزَغُ بينَ النَّاسِ.

قالَ تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

قالَ ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾؛ يقولُ: إنَّ الشَّيطانَ يَسُوءُ محاورةَ بعضِهِم بعضًا ﴿يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾: يقولُ: يُفسِدُ بينَهُم، ويُهَيِّجُ بَينَهُمُ الشَّرَّ»[١].

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «**أي**: يَسعَى بينَ العبادِ بما يُفسِدُ عَلَيهِم دِينَهُم ودُنياهُم»[٢].

والنَّزغُ يَشمَلُ الغَضَبَ والحِقدَ وبَطشَ اليَدِ؛ قالَ ابنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «**والنَّزغُ**: فِعلُ الشَّيطانِ في قَلبٍ أو يَدٍ؛ من إلقاءِ غَضَبٍ أو حِقدٍ أو بَطشٍ في اليَدِ؛ فمِنَ الغَضَبِ هذه الآيةُ، ومِنَ الحِقدِ قولُهُ تعالى: ﴿نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ومِنَ البَطشِ قَولُ النَّبيِّ ﷺ: (**لَا يُشِرْ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ؛ لَا يَنْزَغِ الشَّيْطَانُ فِي يَدِهِ فَيُلْقِيهِ فِي حُفْرَةٍ مِنْ حُفَرِ النَّارِ**)[٣]»[٤].

لهذا أَرشَدَ اللهُ ﷻ عبادَهُ إلى القَولِ الحَسَنِ؛ لأنَّ فيه تأليفَ القُلوبِ

---

(١) جامع البيان: (١٤/ ٦٢٤). (٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٩٢٥).

(٣) صحيح البخاري: (٤/ ٢٢١٣) كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: (**مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ، فَلَيْسَ مِنَّا**)، حديث رقم: (٧٠٧٣) ولفظه: (**لَا يُشِرْ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِغُ فِي يَدِهِ؛ فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنْ حُفَرِ النَّارِ**)، صحيح مسلم: (٢/ ١٢١٢)، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم، حديث رقم: (٢٦١٧).

(٤) المحرر الوجيز: (٧/ ٤٨٥).

وقَبولَ الحَقِّ، قالَ تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يَأمُرُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يَأمُرَ عِبادَ اللهِ المؤمنِينَ أن يقولُوا في مخاطَبَتِهِم ومُحاوَرَتِهِمُ الكلامَ الأحسَنَ والكلمةَ الطَّيِّبَةَ؛ فإنَّهم إذا لم يَفعَلُوا ذلكَ، نَزَغَ الشَّيطانُ بَينَهُم، وأخرَجَ الكلامَ إلى الفِعالِ ووَقَعَ الشَّرُّ والمُخاصَمَةُ والمقاتَلَةُ»(١).

وقالَ الشَّيخُ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فدَواءُ هذا أن لَّا يُطِيعُوهُ في الأقوالِ غيرِ الحَسَنَةِ الَّتِي يَدعُوهُم إليها، وأن يَلِينُوا فيما بَينَهم؛ لِيَنْقَمِعَ الشَّيطانُ الَّذي يَنزَغُ بَينَهُم»(٢).

ومِنَ الأمثلةِ الَّتِي ذَكَرَها اللهُ ـ سبحانه ـ فِي كتابِهِ الكريمِ لِنَزْغِ الشَّيطانِ: قِصَّةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع إخوتِهِ؛ فقالَ تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وقولُهُ: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾؛ يَعني: مِن بَعدِ أن أفسَدَ الشَّيطانُ ما بَينِي وبَينَهُم، وحَمَلَ بَعضَنا على بَعضٍ»(٣).

فانْظُرْ كيفَ كانَ الشَّيطانُ سَبَبًا في جَعلِ قُلوبِ إخوةِ يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَلِيئَةً بالحَسَدِ والحِقدِ على أَخِيهِم حتَّى وَقَعَ منهم ما وَقَعَ؛ وفي ذلك دليلٌ على شِدَّةِ خَطَرِ الشَّيطانِ، وقدِ استطاعَ بهذا النَّزغِ بينَ النَّاسِ أن يَسُدَّ

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٥/ ٨٦ ـ ٨٧). (٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٩٢٥).
(٣) جامع البيان: (١١/ ٣٦٣).

أبوابًا كثيرةً منَ الخيرِ والهُدَى؛ لامتلاءِ القُلوبِ بالبَغضاءِ والشَّحناءِ.

وقد ذَكَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ من أهدافِ الشَّيطانِ إيقاعَ العداوةِ والبَغضاءِ بينَ المؤمنِينَ؛ قالَ ﷺ: **(إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَن يَّعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ)**[1].

قالَ النَّوَويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «**معناهُ**: أَيِسَ أن يَعبُدَهُ أهلُ جزيرةِ العربِ؛ ولكنَّهُ سَعَى في التَّحريشِ بَينَهم بالخُصُوماتِ والشَّحناءِ والحُروبِ والفِتَنِ ونحوِها»[2].

وقد يَدخُلُ الشَّيطانُ بينَ أهلِ العِلمِ والدَّعوةِ ويُوغِرُ صُدورَ بَعضِهم على بعضٍ حتَّى يُصبح بَعضُهُم لبعضٍ كالأعداءِ، وكم كانَ ذلكَ سَبَبًا في صَدِّ أبوابٍ كثيرةٍ من أبوابِ الخَيرِ؛ «فعَلَى المُسلِمِينَ عُمومًا وأهلِ الجزيرةِ خُصُوصًا أن يَحذَرُوا من تحريشِ الشَّيطانِ وإلقائِهِ العداوةَ بَينَهُم، على جميعِ طبقاتِهِم سواءٌ كانُوا حُكَّامًا أو عُلماءَ أو طَلَبَةَ عِلمٍ أو مِن عامَّةِ النَّاسِ؛ فإنَّ الشَّيطانَ يَفرَحُ بتَفَرُّقِهِم وتَشَتُّتِ شَملِهِم وتَفرُّقِ كَلِمَتِهِم، وقد قالَ ﷺ: **(إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ، فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نَعَمْ، أَنْتَ)**[3]، وذلكَ أنَّ هذه الأُسرةَ يَتَفَرَّقُ شَمْلُهَا ورُبَّما أفضَى هذا التَّفريقُ إلى خِلافٍ بينَ أُسَرٍ وقبائِلَ،

---

(١) صحيح مسلم: (٢/ ١٢٩٤)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعث سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينًا، حديث رقم: (٢٨١٢).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: (١٧/ ١٥٤).

(٣) صحيح مسلم: (٢/ ١٢٩٤)، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعث سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينًا، حديث رقم: (٢٨١٣).

نسألُ اللهَ العافيةَ»[(١)].

وهذا كتابُ رَبِّنا يَأمُرُنا أن نَحذَرَ مِن نَزغِ الشَّيطانِ، وأن نقولَ في كلامِنا القَولَ الحَسَنَ؛ فإنَّهُ مِفتاحُ القُلُوبِ.

قالَ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، وقالَ تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقالَ تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

- **الخَمرُ والمَيْسِرُ**[(٢)]:

استخدَمَ الشَّيطانُ الخَمرَ والمَيْسِرَ في إيقاعِ العداوةِ والبَغضاءِ بينَ المؤمنِينَ وصَدِّهِم عن ذِكرِ اللهِ.

قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: إنَّما يُريدُ لكمُ الشَّيطانُ شُرْبَ الخَمرِ والمُياسَرَةَ بالقِداحِ، ويُحَسِّنُ ذلكَ لَكُمْ، إرادةً منه أن يوقِعَ بَينَكُمُ العَداوَةَ والبَغْضاءَ في شُربِكُمُ الخُمرَ ومُياسَرَتِكُم بالقِداحِ، ليُعادِيَ

---

(١) عداوة الشيطان للإنسان كما جاءت في القرآن: (ص٧٠).

(٢) **الخمر**: كلُّ شراب خامَرَ العقلَ فسَتَرَهُ وغطَّى عليه، وهو من قولِ القائلِ: خَمَرْتُ الإناءَ، إذا غَطَّيْتُهُ، وخَمِرَ الرَّجلُ إذا دَخَلَ في الخَمرِ. **والمَيْسِرُ**: من قول القائلِ: يَسِرَ لي هذا الأمرُ إذا وَجَبَ لي، فهو يَيْسِر لي يَسَرًا ومَيْسِرًا؛ فيَدخُلُ في ذلكَ القِمارُ والمُيَاسَرَةُ بالأقداحِ، وكلُّ لعبةٍ يأتِي فيها الكَسبُ عن طريقِ الحَظِّ. **انظر**: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: (٣/ ٦٦٩ ـ ٦٧٠)، **وانظر**: تفسير القرآن العظيم: (٣/ ١٧٨ ـ ١٧٩)، **وانظر**: التفسير الوسيط للقرآن الكريم: (٤/ ٢٧٥).

بَعضُكم بَعْضًا، ويُبَغِّضَ بعضَكُم إلى بعضٍ، فيُشَتِّتُ أمرَكُم بعدَ تأليفِ اللهِ بَينَكُم بالإيمانِ، وجَمعِهِ بَينَكُم بأُخُوَّةِ الإسلامِ ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ يقولُ: ويَصرِفُكُم بغَلَبَةِ هذه الخَمرِ بِسُكرِها إيَّاكُم عليكُم، وباشتِغَالِكُم بهذا المَيْسِرِ عن ذِكرِ اللهِ الَّذي به صَلاحُ دُنياكُم وآخِرَتِكُم ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ الَّتي فَرَضَهَا عَلَيكُم رَبُّكُم ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾، يقولُ: فهل أنتُم مُنتَهُونَ عن شُربِ هذه، والمُياسَرَةِ بهذا، وعاملونَ بما أمرَكُم به رَبُّكُم من أداءِ ما فَرَضَ عَلَيكُم منَ الصَّلاةِ لأوقاتِها، ولُزُومِ ذِكرِهِ الَّذي به نُجحُ طلباتِكُم في عاجلِ دُنياكُم وآخِرَتِكُم»[1].

وقالَ ابنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «ثُمَّ أعلَمَ تبارَكَ وتعالى عِبادَهُ أنَّ الشَّيطانَ إنَّما يُرِيدُ أن تَقَعَ العَداوةُ بسَبَبِ الخَمرِ وما يَعتَرِي عليها بينَ المؤمِنِينَ، وبسَبَبِ المَيْسِرِ إذ كانُوا يَتَقامَرُونَ على الأموالِ والأهلِ حتَّى رُبَّما بَقِيَ المَقمُورُ حَزِينًا فَقِيرًا فتَحدُثُ من ذلكَ ضَغائِنُ وعَداوةٌ، فإن لَـمْ يَصِلِ الأمرُ إلى حَدِّ العداوةِ، كانت بغضاءَ، ولا تَحسُنُ عاقبةُ قَومٍ مُتباغِضِينَ، ولذلكَ قالَ النَّبيُّ ﷺ: (**وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**)[2]، وباجتماعِ النُّفُوسِ والكلمةِ يُحمَى الدِّينُ ويجاهَدُ العَدُوُّ، والبَغضاءُ تَنقُضُ عُرَى الدِّينِ وتَهدِمُ عمادَ الحمايةِ، وكذلكَ أيضًا: يريدُ الشَّيطانُ أن يَصُدَّ المؤمِنِينَ عن ذِكرِ اللهِ وعنِ الصَّلاةِ ويَشغَلَهُمْ عنها بشَهَواتٍ؛ فالخَمرُ والمَيْسِرُ والقِمارُ كُلُّهُ من أعظَمِ آلاتِهِ في ذلكَ»[3].

---

(١) جامع البيان: (٨/ ٦٥٦ ـ ٦٥٧).

(٢) صحيح البخاري: (٤/ ١٩١٥)، كتاب الأدب، باب ما يُنهَى عنِ التَّحاسُدِ والتَّدابُرِ، حديث رقم: (٦٠٦٤)، صحيح مسلم: (٢/ ١١٩١)، كتاب البِرِّ والصِّلةِ والآداب، باب النهي عنِ التَّحاسُد والتباغض والتدابر، حديث رقم: (٢٥٥٩).

(٣) المحرر الوجيز: (٣/ ٢٤٩).

وذَكَرَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ مفاسِدَ الخَمرِ والمَيسِرِ وممَّا ذَكَرَهُ: «أنَّ هذه الأشياءَ تَصُدُّ القَلبَ ـ ويَتبَعُهُ البَدَنُ ـ عن ذِكرِ اللهِ وعنِ الصَّلاةِ اللَّذَينِ خُلِقَ لهما العَبدُ وبهما سعادتُهُ؛ فالخَمرُ والمَيْسِرُ يَصُدَّانِهِ عن ذلكَ أعظَمَ صَدٍّ، ويَشتَغِلُ قَلبُهُ ويَذهَلُ لُبُّهُ في الاشتغالِ بهما حتَّى يَمضِيَ عليه مُدَّة طويلة وهو لا يَدرِي أينَ هو؟ فأيُّ معصيةٍ أعظَمُ وأقبَحُ من معصيةٍ تُدَنِّسُ صاحبَها، وتَجعلُهُ من أهلِ الخُبثِ، وتُوقِعُهُ في أعمالِ الشَّيطانِ وشِباكِهِ فيَنقادُ له كما تَنقَادُ له البَهِيمَةُ الذَّلِيلَةُ لِرَاعِيهَا، وتَحُولُ بينَ العَبدِ وبينَ فلاحِهِ، وتُوقِعُ العَداوةَ والبَغضاءَ بينَ المؤمِنِينَ وتَصُدُّ عن ذِكرِ اللهِ وعنِ الصَّلاةِ»[1].

فأقوالُ هؤلاءِ الأئمَّةِ تُبَيِّنُ لِكُلِّ عاقلٍ عِظَمَ خَطَرِ الخمرِ والمَيْسِرِ على النَّاسِ فبِسَبَبِها انتَشَرَتِ العداواتُ والبغضاءُ بينَ النَّاسِ، وكَثُرَتْ بسَبَبِها الخُصوماتُ بَينَهُم؛ فعَلى المسلِمِينَ أن يَحذَرُوا منها أشدَّ الحَذَرِ؛ حتَّى لا يَقَعُوا في شِباكِ الشَّيطانِ الَّذي من أعظَمِ أهدافِهِ إيقاعُ العداوةِ والبغضاءِ بينَ المؤمنِينَ.

• **التَّناجِي:**

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أيْ**: إنَّما النَّجوَى ـ وهي المُسارَّةُ ـ حيثُ يَتَوَهَّمُ مؤمنٌ بها سُوءًا، ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ **يعني**: إنَّما يَصدُرُ هذا منَ المُتناجِينَ عن تَسويلِ الشَّيطانِ وتَزيِينِهِ؛ ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥)، وقد ذكر الشيخ في تفسيره غير هذه من المفاسد الَّتي تنشأ عن تعاطي الخمر والميسر.

ءَامَنُوا﴾؛ أي: لِيَسُوءَهُم، وليسَ ذلكَ ﴿بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ومَن أحسَّ من ذلكَ شيئًا، فَلْيَسْتَعِذْ باللهِ، ولْيَتَوَكَّلْ على اللهِ؛ فإنَّهُ لا يَضُرُّهُ شَيءٌ بإذنِ اللهِ»[١].

ولِأنَّ التَّناجِيَ يُسَبِّبُ التَّنافُرَ بينَ المسلمِينَ؛ وَرَدَ في السُّنَّةِ النَّهْيُ عنه؛ قالَ ﷺ: (**إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً، فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحْزِنَهُ**)[٢].

قالَ القُرطبيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «التَّعليلُ بِقَولِهِ: (**مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحْزِنَهُ**)؛ أي: يَقَعُ في نفسِهِ ما يَحزَنُ لأَجْلِهِ؛ وذلكَ بأن يُقَدِّرَ في نفسِهِ أنَّ الحديثَ عنه بما يَكرَهُ، أو أنَّهُ لم يَرَوْهُ أهْلًا لِيُشرِكُوهُ في حَدِيثِهِم، إلى غيرِ ذلكَ مِن أَلقِياتِ الشَّيطانِ وأحاديثِ النَّفسِ»[٣].

وقالَ الحافظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وإنَّما قالَ: (**يَحزُنَهُ**)؛ لأنَّهُ قد يُتَوَهَّمُ أنَّ نَجواهُمَا إنَّما هي لِسُوءِ رَأْيِهِما فيه، أو لِدَسِيسَةٍ غائلةٍ له»[٤].

فعلى المسلمِينَ أن يَبْتَعِدُوا عن كُلِّ ما يُضْعِفُ الأُخُوَّةَ بَينَهُم، أو ما يكونُ سَبَبًا لِتَسَلُّطِ الشَّيطانِ عليهم، نَسأَلُ اللهَ العَلِيَّ العظيمَ أن يُؤَلِّفَ بينَ قُلُوبِ المسلمِينَ!

الحادِي عَشَرَ: الاستعانةُ بأوليائِهِ:

وهذه الاستعانةُ مِن أساليبِ الشَّيطانِ في الصَّدِّ عنِ الحَقِّ؛ حيثُ

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٨/ ٤٤).

(٢) صحيح البخاري: (٤/ ١٩٨٠) كتاب الاستئذان، باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة والمناجاة، حديث رقم: (٦٢٩٠)، وصحيح مسلم: (٢/ ١٠٤٣)، كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه، حديث رقم: (٢١٨٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: (٢٠/ ٣١٤). (٤) فتح الباري: (١٤/ ٢٥٧).

يَستَعِينُ بأوليائِهِ منَ الإنسِ في صَدِّ النَّاسِ عنِ الحَقِّ، واستعانتُهُ بأوليائِهِ تَتَلَخَّصُ في الأُمورِ التاليةِ:

١ ـ الاستعانةُ بجُنودِهِ وأَتباعِهِ لإضلالِ النَّاسِ:

يَستَعِينُ الشَّيطانُ بأتباعِهِ وجنودِهِ في إضلالِ النَّاسِ؛ قالَ ابنُ مُفلِحٍ[١] رَحِمَهُ اللهُ: «اعلَمْ أنَّ الشَّيطانَ يَقِفُ للمُؤمِنِينَ في سَبعِ عَقَباتٍ: عَقَبَةِ الكُفرِ؛ فإنْ سَلِمَ منه، فَفِي عَقَبَةِ البِدعةِ، ثمَّ في عَقَبَةِ فِعلِ الكبائرِ، ثمَّ في عَقَبَةِ فِعلِ الصَّغائرِ؛ فإنْ سَلِمَ منه، ففِي عَقَبَةِ فِعلِ المُباحاتِ؛ فَيَشْغَلُهُ بها عنِ الطَّاعاتِ؛ فإنْ غَلَبَهُ، شَغَلَهُ بالأعمالِ المفضولةِ عنِ الأعمالِ الفاضلةِ؛ فإنْ سَلِمَ من ذلكَ، وَقَفَ له في العَقَبَةِ السَّابعةِ، ولا يَسلَمُ منها المؤمنُ؛ إذ لو سَلِمَ منها أحدٌ، لَسَلِمَ منها رسولُ اللهِ ﷺ؛ وهِيَ تَسْلِيطُ الأعداءِ الفَجَرَةِ بأنواعِ الأذَى»[٢].

وقد بَيَّنَ القُرآنُ الكريمُ أنَّ الشَّيطانَ يَستَعِينُ بأوليائِهِ في إضلالِ النَّاسِ:

قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]؛ فقد دَلَّتْ هذه الآيةُ الكريمةُ على أنَّ الشَّيطانَ يَستَعِينُ بأوليائِهِ في مجادَلةِ النَّاسِ وتَشكِيكِهِم في دِينِ اللهِ؛ فالشَّيطانُ استعانَ بأوليائِهِ المشركِينَ لِيُجادِلُوا المسلمِينَ في تحريمِ المَيتَةِ حتَّى يُضِلُّوهُم عن دِينِهِم.

---

(١) ابن مفلح: برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مفلح الحنبلي، تولى قضاء دمشق مرارًا، وله من المصنفات: شرح المقنع في الفقه، والمقصد الأرشد في ترجمة أصحاب الإمام أحمد، توفي بدمشق سنة: (٨٨٤هـ). انظر: شذرات الذهب: (٩/٥٠٧ ـ ٥٠٨).

(٢) مصائب الإنسان من مكائد الشيطان: (ص١١٩).

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فإنَّ المشركينَ حينَ سَمِعُوا تحريمَ اللهِ ورسولِهِ ﷺ للمَيتةِ وتحليلَهُ للمُذَكَّاةِ، وكانُوا يَستَحِلُّونَ أَكْلَ المَيْتَةِ؛ قالوا - مُعانَدَةً للهِ ورسولِهِ ﷺ، ومُجادَلَةً بغيرِ حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ -: أَتَأْكُلُونَ ما قَتَلْتُمْ، ولا تَأكُلُونَ ما قَتَلَ اللهُ؟! يَعنُونَ بذلكَ المَيْتَةَ، وهذا رأيٌ فاسِدٌ؛ لا يَستَنِدُ على حُجَّةٍ ولا دليلٍ، بل يَستَنِدُ إلى آرائِهِمُ الفاسدةِ، الَّتِي لو كانَ الحقُّ تَبَعًا لها، لَفَسَدَتِ السَّماواتُ والأرضُ ومَن فِيهِنَّ؛ فَتَبًّا لِـمَنْ قَدَّمَ هذه العقولَ على شَرعِ اللهِ وأحكامِهِ الموافِقَةِ للمَصالحِ العامَّةِ والمنافِعِ الخاصَّةِ، ولا يُستَغرَبُ هذا منهم؛ فإنَّ هذه الآراءَ وأشباهَهَا صادرةٌ عن وَحيِ أوليائِهِم منَ الشَّياطينِ الَّذِينَ يُريدونَ أن يُضِلُّوا الخَلقَ عن دِينِهِم ويَدعُوهُم لِيَكونُوا من أصحابِ السَّعيرِ»[١].

وإنْ كانَ جِدالُهُم في تحريمِ المَيْتَةِ، فمَقصُودُهمُ الأعظَمُ إبطالُ أحكامِ الإسلامِ.

قالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللهُ: «والمرادُ هنا: المجادَلَةُ في إبطالِ أحكامِ الإسلامِ، وتَحبِيبُ الكُفرِ وشعائِرِهِ»[٢].

وكذلكَ استَعَانَ الشَّيطانُ بأوليائِهِ في الجدالِ بغيرِ عِلمٍ في مسألةِ إحياءِ المَوتَى:

قالَ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «ويَعني بقَولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ مَن يُخاصِمُ في اللهِ؛ فيَزعُمُ أنَّ اللهَ غيرُ قادرٍ على إحياءِ مَن قد بَلِيَ وصارَ تُرابًا، بغَيرِ عِلمٍ يَعلَمُهُ، بل بِجَهْلٍ منه بما يقولُ،

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٥٠٥).
(٢) التحرير والتنوير: (٨/ ٤٢).

﴿وَيَتَّبِعُ﴾؛ في قِيلِهِ ذلكَ وجِدالِهِ في اللهِ بغَيرِ عِلمٍ ﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾»[١].

وقد ذَكَرَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ في تَفسيرِ هذه الآيةِ كلامًا نَفِيسًا، بَيَّنَ فيه أنَّ مِنَ النَّاسِ مَنِ اتَّخَذَ الجدالَ بغَيرِ عِلمٍ سبيلًا لإضلالِ النَّاسِ وإبطالِ للحَقِّ وإحقاقٍ للباطِلِ، وهم نُوَّابُ إبليسَ في هذا الجدالِ منَ الكَفَرَةِ وأهلِ البِدَعِ وغَيرِهِم[٢].

٢ ـ قتالُ أهلِ الإسلامِ والإيمانِ:

مِنَ الأُمورِ الَّتِي استَعَانَ الشَّيطانُ بأوليائِهِ فيها: قِتالُ أهلِ الإيمانِ وأهلِ الإسلامِ حتَّى يَرُدُّوهُم عن دِينِهِم؛ فقاتَلُوهُم طاعةً لِوَلِيِّهِمُ الشَّيطانِ.

قالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

قالَ ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «**يَعنِي** ـ تعالى ذِكْرُهُ ـ بذلكَ: الَّذينَ صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ ﷺ وأَيقَنُوا بمَوعُودِ اللهِ لأهلِ الإيمانِ به، ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ يقولُ: في طاعةِ اللهِ ومِنهاجِ دِينِهِ وشَريعتِهِ الَّتِي شَرَعَهَا لعبادِهِ، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾؛ يقولُ: والَّذِينَ جَحَدُوا وَحدَانِيَّةَ اللهِ، وكَذَّبُوا رُسُلَهُ وما جاءَهُم من عندِ ربِّهِم ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾؛ **يعني**: في طاعةِ الشَّيطانِ وطريقِهِ ومِنهاجِهِ الَّذي شَرَعَهُ لأهلِ الكُفرِ به»[٣].

---

(١) جامع البيان: (١٦/ ٤٥٩).
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١٠٨٩).
(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: (٧/ ٢٢٩).

وقالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «المؤمنُونَ يقاتِلُونَ في طاعةِ اللهِ ورِضوانِهِ، والكافرونَ يقاتِلُونَ في طاعةِ الشَّيطانِ»[١].

فمُنذُ عَهْدِ النَّبيِّ ﷺ وأولياءُ الشَّيطانِ يحارِبُونَ الإسلامَ ويقاتِلُونَ أهلَهُ وهم يَبْذُلُونَ لِأَجْلِ ذلكَ أنفُسَهُم وأموالَهُم.

قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أيْ: لِيُبْطِلُوا الحقَّ، ويَنصُرُوا الباطلَ، ويَبْطُلَ تَوحِيدُ الرَّحمٰنِ، ويَقُومَ دِينُ عبادةِ الأوثانِ»[٢].

وهكذا في كُلِّ زمانٍ؛ فإنَّهُم لا يَزالُونَ يُقاتِلُونَ أهلَ الإسلامِ في كُلِّ مكانٍ، وداعِيهِم إلى ذلكَ إبليسُ؛ فعَلَى المسلِمِينَ أن يُجاهِدُوا أولياءَ الشَّيطانِ ويُقاتِلُوهُم؛ فهم وإنْ كانَ في الظَّاهِرِ كَثِيرٌ عَدَدُهُم قَوِيَّةٌ شَوكَتُهُم؛ إلَّا أنَّهُم ـ في حقيقةِ الأمرِ ـ أهلُ ضَعفٍ وَوَهْنٍ.

قالَ تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ اللهُ ـ جلَّ ثناؤُهُ، مُقَوِّيًا عَزمَ المؤمِنِينَ به من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، ومُحَرِّضَهُم على أعدائِهِ وأعداءِ دِينِهِ من أهلِ الشِّركِ به ـ: فقَاتِلُوا أيُّها المؤمنُونَ أولياءَ الشَّيطانِ؛ يَعنِي بذلكَ: الَّذينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ويُطِيعُونَ أمرَهُ في خلافِ طاعةِ اللهِ والتَّكذيبِ به ويَنصُرُونَهُ، ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾؛ يعني بِكَيْدِهِ: ما كادَ به المؤمِنِينَ من تَحزِيبِهِ أولياءَهُ منَ الكُفَّارِ باللهِ على رسولِهِ وأوليائِهِ أهلِ الإيمانِ به؛

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٢/٣٥٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/٦١٨).

يقولُ: فلا تَهابُوا أولياءَ الشَّيطانِ؛ فإنَّما هم حِزبُهُ وأنصارُهُ، وحِزبُ الشَّيطانِ أهلُ وَهْنٍ وضَعْفٍ»(١).

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فالشَّيطانُ وإنْ بَلَغَ مَكرُهُ مَهمَا بَلَغَ؛ فإنَّهُ في غايةِ الضَّعْفِ الَّذي لا يَقومُ لأدنى شَيءٍ منَ الحَقِّ، ولا لِكَيدِ اللهِ لعِبادِهِ المُؤمِنِينَ»(٢).

٣ ـ السِّحرُ والكِهانَةُ:

ومِن أولياءِ الشَّيطانِ وجُنودِهِ الَّذينَ استعانَ بهم على إضلالِ النَّاسِ: السَّحرةُ والكَهَنَةُ، وقد أشارَ القرآنُ الكريمُ إلى هذا.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «مِن إضلالِهِم وحِرصِهِم على إغواءِ بني آدَمَ، وكذلكَ اتَّبَعَ اليَهودُ السِّحرَ الَّذي أُنزِلَ على المَلَكَيْنِ الكائنَيْنِ بأرضِ بابِلَ مِن أرضِ العراقِ ـ أُنزِلَ عليهما السِّحرُ امتحانًا وابتِلاءً منَ اللهِ لعبادِهِ ـ فيُعَلِّمانِهِمُ السِّحرَ ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ﴾ يَنصَحَاهُ، و: ﴿يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ﴾؛ أي: لا تَتَعَلَّمِ السِّحْرَ فإنَّهُ كُفرٌ؛ فيَنهَيَانِهِ عنِ السِّحْرِ، ويُخبِرَانِهِ عن مَرتَبَتِهِ؛ فتَعلِيمُ الشَّياطينِ للسِّحرِ على وجهِ التَّدليسِ والإضلالِ»(٣).

فلِلسِّحرِ مفاسدُ كثيرةٌ: أعظَمُها: الكُفرُ باللهِ؛ ولذلكَ حَذَّرَ المَلَكانِ من ذلكَ بقَولِهِما: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ﴾.

ومن مفاسِدِهِ أيضًا: التَّفريقُ بينَ الزَّوجَينِ؛ كما دَلَّتِ الآيةُ:

---

(١) جامع البيان: (٧/ ٢٢٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٣٢٥).
(٣) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٨١).

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ ويَتبَعُ هذه المَفسَدةَ مفاسِدُ كثيرةٌ تَلحَقُ بالأبناءِ والأسرةِ والمجتمَعِ... إلى غيرِ ذلكَ منَ الفسادِ والضَّلالِ الَّذي يَسعَى السَّاحرُ بمُعاوَنَةِ منَ الشَّياطينِ في بَثِّهِ ونَشرِهِ بينَ النَّاسِ.

أمَّا الكهنةُ: فقد أشارَ القُرآنُ إلى أنَّهم من أولياءِ الشَّيطانِ؛ في قولِهِ تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى، مُخاطِبًا لِمَنْ زَعَمَ مِنَ المُشركِينَ أنَّ ما جاءَ به الرَّسولُ ليسَ حقًّا، وأنَّهُ شيءٌ افتَعَلَهُ من تلقاءِ نفسِهِ، أو أنَّهُ أتاهُ به رئيٌّ[1] منَ الجِنِّ، فنَزَّهَ اللهُ سبحانه جنابَ رسولِهِ ﷺ عن قَولِهِم وافترائِهِم، ونَبَّهَ أنَّ ما جاءَ به إنَّما هو الحقُّ من عندِ اللهِ، وأنَّهُ تَنزيلُهُ ووَحيُهُ، نَزَلَ به مَلَكٌ كريمٌ أمينٌ عظيمٌ، وأنه ليسَ من قَبيلِ الشَّياطينِ؛ فإنَّهُم ليسَ لهم رغبةٌ في مِثلِ هذا القُرآنِ العظيمِ، وإنَّما يَنزِلُونَ على مَن يُشاكِلُهُم ويُشابِهُهُم منَ الكُهَّانِ الكَذَبَةِ؛ ولهذا قال اللهُ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾؛ أي: أخبركم، ﴿...عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾؛ أي: كَذُوبٍ في قولِهِ، وهو الأَفَّاكُ الأثِيمُ؛ أي: الفاجرُ في أفعالِهِ؛ فهذا هو الَّذي تَنَزَّلُ عليه الشَّياطينُ كالكُهَّانِ وما جَرَى مَجراهُم منَ الكَذَبَةِ الفَسَقَةِ؛ فإنَّ الشَّياطينَ أيضا كَذَبَةٌ فَسَقَةٌ ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾؛ أي: يَستَرِقُونَ السَّمعَ منَ السَّماءِ، فيَسمَعُونَ الكلمةَ من عِلمِ الغَيبِ، فيَزِيدُونَ معها مِائَةَ كِذْبَةٍ، ثم يُلقُونَها إلى أوليائِهِم منَ الإنسِ فيَتَحَدَّثُونَ بها، فيُصَدِّقُهُمُ النَّاسُ في كلِّ ما قالوه بسببِ صِدقِهِم في تلك

---

(١) رئي: يقال: به رئي من الجن؛ أي: به مسٌّ. انظر: الصحاح: (٦/ ٢٣٤٧).

الكلمةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّماءِ»[١][٢].

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «هذا جوابٌ لمن قال مِن مُكذِّبي الرَّسولِ: إنَّ محمَّدًا يَنزِلُ عليه شيطانٌ، وقولِ مَن قال: إنَّهُ شاعرٌ؛ فقالَ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾؛ أي: أُخبِرُكُمُ الخبرَ الحقيقيَّ الَّذي لا شَكَّ فيه ولا شُبهةَ، على مَن تَنزَّلُ الشَّياطينُ؛ أي: بصفةِ الأشخاصِ الَّذين تَنزَّلُ عليهمُ الشَّياطينُ؛ ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾؛ أي: كَذَّابٍ كثيرِ القَولِ للزُّورِ والإفكِ بالباطلِ، ﴿أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾؛ في فعلِهِ؛ كثيرِ المعاصي، هذا الذي تَنَزَّلُ عليه الشياطينُ، وتُناسِبُ حالُهُ حالَهُمْ، ﴿يُلْقُونَ﴾؛ عليه ﴿السَّمْعَ﴾؛ الذي يَستَرِقُونَهُ منَ السَّماءِ، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾؛ أي: أكثرُ ما يُلقون إليه كَذِبٌ فيَصدُقُ واحدةً، ويَكذبُ معها مِائَةً، فيَختَلِطُ الحقُّ بالباطلِ، ويَضْمَحِلُّ الحقُّ بسببِ قِلَّتِهِ، وعدمِ علمِهِ؛ فهذه صفةُ الأشخاصِ الَّذين تَنَزَّلُ عليهمُ الشَّياطينُ، وهذه صفةُ وَحيِهِم له»[٣].

والخُلاصةُ: أنَّ كلَّ ما هو ضلالٌ وإفسادٌ وصَدٌّ عَنِ الحقِّ؛ فإنَّ الشَّيطانَ يَسعَى لِفعلِهِ أو يَستَعِينُ بأوليائِهِ في ذلك؛ «فكم من إنسانٍ حاولَتْ شياطينُ الجنِّ إضلالَهُ فلم تَستطعْ، فاستعانتْ بشياطينِ الإنسِ من أصدقائِهِ ومُحبِّيهِ؛ فما يزالونَ يُحَسِّنُونَ له المعاصِيَ والمنكَراتِ والبِدَعَ والخُرافاتِ حتَّى أَضلُّوهُ عنِ الطَّريقِ المستقيمِ، وأحيانًا بالمضايقةِ والسُّخريةِ والاستهزاءِ والتَّعذيبِ، وكم من شابٍ التَزَمَ دِينَ اللهِ تعالى

---

(١) يشير رَحِمَهُ اللهُ إلى الحديث الذي رواه البخاري: (٣/ ١٤٥١ ـ ١٤٥٢)، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥]، حديث رقم: (٤٧٠١)، ورواه مسلم: (٢/ ١٠٦٠)، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، حديث رقم: (٢٢٢٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٦/ ١٧٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١٢٣٧ ـ ١٢٣٨).

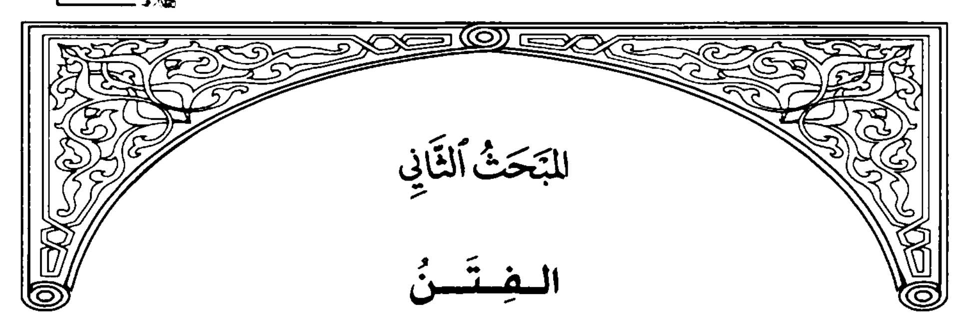
وواظَبَ على الصَّلواتِ مع الجماعةِ فجاءتهُ شياطينُ الإنسِ وحَسَّنَتْ له السَّهَرَ عندَ الأفلامِ والمسرحيَّاتِ والقنواتِ الفضائيَّةِ الهابطةِ؛ فلم يستطعْ أن يَقومَ لصلاةِ الفجرِ وما زالُوا به حتَّى تَرَكَ الصَّلاةَ بالكليَّةِ»[1].

وفي هذا العصرِ سَخَّرَ أولياءُ الشَّيطانِ كلَّ إمكانيَّاتِهم في إضلالِ النَّاسِ؛ خاصَّةً عن طريقِ بعضِ وسائلِ الإعلامِ، سواءٌ أكانت مقروءَةً أم مسموعةً أم مرئيَّةً؛ فقد أسهَمَتْ بشكلٍ كبيرٍ في إضلالِ النَّاسِ؛ ففي جانبِ العقيدةِ تَسَبَّبَتْ بعضُ وسائلِ الإعلامِ في إضعافِ الجانبِ العَقَدِيِّ عندَ المسلمينَ، وأصبحوا يُرَوِّجُونَ للبدعةِ والسِّحرِ والكهانةِ والخُرافةِ في بعضِ تلكَ الوسائلِ، حتَّى أصبَحَ أثرُها واضحًا على بعضِ النَّاسِ، وممَّا يَبعَثُ الأسى والحُزنَ في قلبِ المسلمِ ذلكَ الأثرُ الكبيرُ لبعضِ وسائلِ الإعلامِ خاصَّةً تلكَ القنواتِ الفضائيَّةَ الهابطةَ على شبابِ الإسلامِ الَّذين هم عمادُ الأُمَّةِ، ورجاءُ نَفعِها؛ فقد أسهَمَتْ تلكَ القنواتُ في تغريبِ كثيرٍ منَ الشَّبابِ المسلمِ، وأفقدَتْ بعضَهُم هُويَّتَهُ الإسلاميَّةَ؛ فأصبَحَ الشَّابُّ المسلمُ لا يُفكِّرُ في نَصرِ أُمَّتِهِ ولا في نَشرِ نُورِها للنَّاسِ، بل أصبَحَ همُّهُ الأكبرُ تلبيةَ رغباتِهِ وشَهَواتِهِ، وهذا يَتَطَلَّبُ منَّا جُهدًا كبيرًا في مواجهةِ تلكَ القنواتِ بكلِّ ما نستطيعُ منَ الدَّعوةِ والإصلاحِ، وأن نسعى في كلِّ ما يُصلِحُ الشَّبابَ ويجعلُهُم دُعاةً للخيرِ والهُدَى.

وبعدُ: فهذه أبرزُ الأساليبِ الَّتِي استخدَمَها الشَّيطانُ لصَدِّ النَّاسِ عنِ الحقِّ، الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ ﷻ في القرآنِ الكريمِ، وسيأتي قريبا سُبُلُ الوقايةِ منها.

---

(١) عداوة الشيطان للإنسان كما جاءت في القرآن: (ص٧٨ ـ ٧٩).



المَبْحَثُ الثَّانِي

الـفِـتَــنُ

ويَحتَوِي على تمهيدٍ وثلاثةِ مطالِبَ:

- الـتَّـمـهـيـدُ: في الفِتَنِ ماهِيَّتِهَا وأنواعِهَا.
- الـمـطـلـبُ الأوَّلُ: فُشُوُّ الشِّركِ والمعاصي.
- الـمـطـلـبُ الـثَّـانـي: فِتَنُ الحياةِ الدُّنيا؛ وهي:

  أولًا: فتنةُ النِّساءِ.

  ثانيًا: فتنةُ المالِ.

  ثالثًا: فتنةُ الأزواجِ والأولادِ.

- الـمـطـلـبُ الـثَّـالـثُ: فتنةُ المُلكِ والجاهِ.



التَّمْهِيدُ

في الفِتَنِ ماهِيَّتِها وأنواعِها

إنَّ من حكمةِ اللهِ ﷻ أن جَعَلَ هذه الدُّنيا دارَ ابتلاءٍ وامتحانٍ؛ يَختَبِرُ فيها النَّاسَ حتَّى يَتَبَيَّنَ المؤمنَ منَ الكافرِ، والصَّالحَ منَ الفَاسِقِ، والطَّائعَ من العاصي.

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] استفهامُ إنكارٍ، **ومعناهُ**: أنَّ اللهَ ﷻ لا بُدَّ أن يَبتَلِيَ عبادَهُ المؤمنينَ بحَسَبِ ما عندَهم منَ الإيمانِ؛ كما جاءَ في الحديثِ الصَّحيحِ: (**أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ؛ فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ، زِيدَ فِي البَلَاءِ**)[1]، وهذه الآيةُ كقولِهِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ومِثلُها في سورةِ: «براءةَ»[2]، وقالَ في البقرةِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم

---

(١) سنن الترمذي: (٤/٤٠٦)، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، حديث رقم: (٢٥٦١)، سنن النسائي الكبرى: (٧/٤٦)، كتاب الطب، باب أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً، حديث رقم: (٧٤٣٩)، سنن ابن ماجه: (٥/١٥٢)، أبواب الفتن، باب الصبر على البلاء، حديث رقم: (٤٠٢٣). مسند الإمام أحمد: (٤٥/١٠)، حديث رقم: (٢٧٠٧٩)، قال الألباني: «فالحديث صحيح». **انظر**: السلسلة الصحيحة: (١/٢٧٣ ـ ٢٧٤).

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦].

مَثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]؛ أي: الذين صدقوا في دعواهم الإيمان مِمَّنْ هو كاذب في قوله ودعواه(١)، وأخبر ﷻ في هذه الآية «أن حكمته لا تقتضي أن كل من قال: إنه مؤمن، وادعى لنفسه الإيمان، أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه؛ فإنهم لو كان الأمر كذلك لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل، ولكن سُنَّته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة أن يبتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والغنى والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل ونحو ذلك من الفتن»(٢).

ولقد ذكر ابن القَيِّم رحمه الله تعالى في هذا المعنى كلامًا قَيِّمًا عندَ قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٠].

قال رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا عامٌّ في جميعِ الخَلقِ امتَحَنَ بعضَهُم ببعضٍ، فامتَحَنَ الرُّسُلَ بالمرسَلِ إليهم ودعوتِهم إلى الحقِّ والصَّبرِ على أذاهُم وتحمُّلِ المشاقِّ في تبليغِهِم رسالاتِ ربِّهِم، وامتَحَنَ المُرسَلَ إليهم بالرُّسُلِ؛ هل يُطيعونَهم ويَنصُرُونهم ويُصدِّقُونَهم؟ أم يَكفُرُونَ بهم ويَرُدُّونَ عليهم ويُقاتِلُونهم؟ وامتَحَنَ العلماءَ بالجُهَّالِ؛ هل يُعَلِّمُونَهم ويَنصَحُونَهم ويَصبِرُونَ على تَعليمِهِم ونُصحِهِم وإرشادِهِم ولوازِمِ ذلكَ، وامتَحَنَ

(١) تفسير القرآن العظيم: (٦/ ٢٦٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١٣٠٢).

الجُهَّالَ بالعلماءِ؛ هل يُطِيعُونَهُم ويَهتَدُونَ بهم؟ وامتَحَنَ المُلوكَ بالرَّعِيَّةِ، والرَّعِيَّةَ بالمُلُوكِ، وامتَحَنَ الأغنياءَ بالفُقراءِ، والفُقراءَ بالأغنياءِ، وامتَحَنَ الضُّعفاءَ بالأقوياءِ، والأقوياءَ بالضُّعفاءِ، والسَّادَةَ بالأتباعِ، والأتباعَ بالسَّادةِ، وامتَحَنَ المالكَ بمَملُوكِهِ ومَملُوكَهُ به، وامتَحَنَ الرَّجُلَ بامرأتِهِ وامرأتَهُ به، وامتَحَنَ الرِّجالَ بالنِّساءِ، والنِّساءَ بالرِّجالِ، والمؤمِنِينَ بالكُفَّارِ، والكُفَّارَ بالمؤمِنِينَ، وامتَحَنَ الآمِرِينَ بالمعروفِ بمَن يَأمُرُونَهُم، وامتَحَنَ المأمورِينَ بهم.

ولذلكَ كانَ فقراءُ المؤمِنِينَ وضُعفاؤُهُم من أتباعِ الرُّسُلِ فتنةً لأغنيائِهِم ورُؤسائِهِم؛ امتَنَعُوا منَ الإيمانِ بعدَ معرفتِهِم بصِدقِ الرُّسُلِ، وقالُوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] هؤلاءِ، وقالُوا لنُوحٍ عليه السلام: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فإذا رَأى الشَّريفُ الرَّئيسُ المِسكِينَ الذَّليلَ قد سَبَقَهُ إلى الإيمانِ ومُتابعةِ الرَّسولِ، حَمِيَ وَأَنِفَ أن يُسْلِمَ فيكونَ مِثلَهُ وقالَ: أُسلِمُ فأكونُ أنا وهذا الوضيعُ على حدٍّ سواءٍ»[١].

* تعريفُ الفتنةِ:

الفتنةُ في اللُّغةِ: قالَ ابنُ فارسٍ[٢]: «الفاءُ والتَّاءُ والنُّونُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على ابتلاءٍ واختبارٍ؛ من ذلكَ الفتنةُ؛ يقالُ: فُتِنْتُ أُفْتَنُ فَتْنًا،

---

(١) إغاثة اللهفان: (٢/ ٨٨١ ـ ٨٨٢).

(٢) **ابن فارس**: الإمام العلامة، اللغوي المحدث، أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب القزويني، المعروف بالرازي، المالكي، اللغوي، نزيل همذان، وله من المؤلفات: المجمل، ومات بالري في صفر سنة: (٣٩٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء: (١٧/ ١٠٣ ـ ١٠٦).

وفَتَنْتُ الذَّهَبَ بالنَّارِ، إذا امْتَحَنْتُهُ، وهو مَفتونٌ وفَتِينٌ، والفَتَّانُ: الشَّيطانُ، ويقالُ: فَتَنَهُ وأَفْتَنَهُ»[١].

وقالَ الفَيْروزْآباديُّ[٢]: «والفتنةُ ـ بالكَسرِ ـ: الخِبرةُ كالمَفْتُونِ؛ ومنه: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦]، وإعجابُكَ بالشَّيءِ، وفَتَنَهُ يَفْتِنُهُ فَتْنًا وفُتُونًا، وأَفْتَنَهُ، والضَّلالُ، والإثمُ، والكُفرُ، والفَضِيحَةُ، والعذابُ، وإذابةُ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، والإضلالُ، والجنونُ، والمِحنةُ، والمالُ، والأولادُ، واختلافُ النَّاسِ في الآراءِ»[٣].

معاني الفتنةِ في القُرآنِ الكريمِ:

• الشِّركُ: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣][٤].

• الابتلاءُ والاختبارُ: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠][٥].

• العذابُ: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَٰهَدُوا وَصَبَرُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ

---

(١) معجم مقاييس اللغة: (٤/ ٤٧٢).
(٢) الفيروزآبادي: محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروزآبادي الشيرازي اللغوي الشافعي، حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، من مؤلفاته: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، وتيسير فاتحة الإياب في تفسير فاتحة الكتاب، وعمدة الحكام في شرح عمدة الأحكام، توفي سنة: (٨١٧هـ).
(٣) القاموس المحيط: (ص١١٢٥ ـ ١١٢٦).
(٤) نزهة الأعين النواظر: (ص٢٢٤)، وانظر: جامع البيان: (٣/ ٢٩٩).
(٥) نزهة الأعين النواظر: (ص٢٢٤)، وانظر: جامع البيان: (١٦/ ٦٣).

رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠][١].

• **الإحراقُ بالنَّارِ**: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤][٢].

• **القتلُ**: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٠١][٣].

• **الصَّدُّ**: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩][٤].

• **الضَّلالةُ**: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١][٥].

• **المَعذِرَةُ**: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣][٦].

• **الجنونُ**: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦][٧].

• **الإثمُ**: ومنه قولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩][٨].

---

(١) نزهة الأعين النواظر: (ص٢٢٤)، وانظر: زاد المسير: (٤/٤٩٨).
(٢) نزهة الأعين النواظر: (ص٢٢٤)، وانظر: جامع البيان: (٢١/٤٩٥).
(٣) نزهة الأعين النواظر: (ص٢٢٤)، وانظر: جامع البيان: (٧/٤٠٤).
(٤) نزهة الأعين النواظر: (ص٢٢٤)، وانظر: جامع البيان: (٨/٥٠١).
(٥) نزهة الأعين النواظر: (ص٢٢٤)، وانظر: جامع البيان: (٨/٤٢٧).
(٦) نزهة الأعين النواظر: (ص٢٢٤)، وانظر: جامع البيان: (٩/١٩١).
(٧) نزهة الأعين النواظر: (ص٢٢٥)، وانظر: جامع البيان: (٢٣/١٥٣).
(٨) نزهة الأعين النواظر: (ص٢٢٥)، وانظر: جامع البيان: (١١/٤٩٣ ـ ٤٩٤).

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

فِتنَةُ فُشُوِّ الشِّركِ

إنَّ أعظَمَ فتنةٍ يَتَعَرَّضُ لها الإنسانُ في هذه الدُّنيا هي فتنةُ الشِّركِ؛ لذلكَ قال اللهُ ﷻ: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١].

قال ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يَعنِي تعالى ذِكرُهُ بقولِهِ: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾: والشِّركُ باللهِ أَشَدُّ منَ القَتلِ... فتأويلُ الكلامِ: وابتلاءُ المؤمنِ في دِينِهِ حتَّى يَرجِعَ عنه فيَصِيرَ مُشرِكًا باللهِ من بعدِ إسلامِهِ، أَشَدُّ عليه وأَضَرُّ من أن يُقتَلَ مُقِيمًا على دِينِهِ مُتَمَسِّكًا عليه، مُحِقًّا فيه»[١].

وقالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «ولمَّا كانَ الجهادُ فيه إزهاقُ النُّفوسِ وقَتلُ الرِّجالِ، نَبَّهَ تعالى على أنَّ ما هم مُشتَمِلُونَ عليه منَ الكُفرِ باللهِ والشِّركِ به والصَّدِّ عن سبيلِهِ أبلَغُ وأَشَدُّ وأعظَمُ وأَطَمُّ منَ القَتلِ»[٢].

وقالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «ولو لم تكنِ الفِتنةُ بعبادةِ الأصنامِ عظيمةً، لَمَا أقدَمَ عُبَّادُها على بَذلِ نفوسِهِم وأموالِهِم وأبنائِهِم دُونَها فهم يُشاهِدُونَ مصارِعَ إخوانِهِم وما حَلَّ بهم ولا يَزِيدُهُم ذلكَ إلا حُبًّا لها وتَعظِيمًا، ويُوصِي بعضُهُم بعضًا بالصَّبرِ عليها، وتحمُّلِ أنواعِ المكارِهِ في نُصرتِها وعِبادتِها، وهم يَسمَعُونَ أخبارَ الأُمَمِ الَّتِي فُتِنَتْ بعِبادَتِها وما حَلَّ بهم من عاجلِ العقوباتِ ولا يُثنِيهِم ذلكَ عن عبادتِها»[٣].

---

(١) جامع البيان: (٣/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤) باختصار.

(٢) تفسير القرآن العظيم: (١/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥). (٣) إغاثة اللهفان: (٢/ ٩٦٢).

ولمَّا كانت فتنةُ الشِّركِ هي أعظَمَ فتنةٍ؛ فإنَّ عَيشَ الإنسانِ في مجتمَعٍ مُشرِكٍ يَفشُو فيه الشِّركُ باللهِ ﷻ من أعظَمِ الأسبابِ الَّتي تَصُدُّهُ عنِ الحَقِّ وتَجعَلُهُ لا يَقبَلُهُ.

ومِنَ الأمثلةِ على ذلكَ ما ذَكَرَهُ اللهُ ﷻ عن مَلِكَةِ سَبَأ[١]، وبَيَّنَ أنَّ مِن أسبابِ عدمِ قَبولِها دِينَ اللهِ هو نَشأَتُها بينَ قومٍ كافرِينَ؛ قالَ تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣].

قال البَغَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «هذا استئنافٌ؛ أخبرَ اللهُ تعالى أنَّها كانت من قومٍ يَعبُدُونَ الشَّمسَ، فنَشَأَتْ بَينَهُم ولم تَعرِفْ إلَّا عِبادةَ الشَّمسِ»[٢].

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قال اللهُ تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾؛ أي: عنِ الإسلامِ، وإلَّا فَلَها منَ الذَّكاءِ والفِطنَةِ ما به تَعرِفُ الحقَّ منَ الباطلِ ولكنَّ العقائدَ الباطلةَ تُذهِبُ بصيرةَ القَلبِ ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾؛ فاستَمَرَّتْ على دِينِهِم، وانفرادُ الواحدِ عن أهلِ الدِّينِ والعادةُ المستمِرَّةُ بأمرٍ يراهُ بعَقلِهِ من ضلالِهِم وخَطَئِهِم من أندَرِ ما يكونُ؛ فلهذا لا يُستَغْرَبُ بقاؤُها على الكُفرِ»[٣].

وقد عدَّ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ الإلفَ والعادةَ والمَنشَأَ سببًا لعَدَمِ العملِ بالعِلمِ؛ فقالَ رَحِمَهُ اللهُ: «فإنَّ العادةَ قد تَقوَى حتَّى تَغلِبَ حُكمَ الطبيعةِ؛ ولهذا قيلَ: هي طبيعةٌ ثانيةٌ فيُرَبَّى الرَّجُلُ على المقالةِ ويَنشَأُ عليها صغيرًا؛ فيَتَرَبَّى قَلبُهُ ونفسُهُ عليها؛ كما يَتَرَبَّى لحمُهُ وعَظمُهُ على الغذاءِ المعتادِ ولا يَعقِلُ نفسَهُ إلَّا عليها، ثم يأتِيهِ العِلمُ وَهْلَةً واحدةً يريدُ إزالتَها

---

(١) دلَّ القرآن الكريم على إسلامها فيما بعد، قال تعالى عنها: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

(٢) معالم التنزيل: (٣/ ٤٠٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١٢٥١).

وإخراجَها من قلبِهِ، وأن يَسكُنَ موضِعَها فيَعسُرُ عليه الانتقالُ، ويَصعُبُ عليه الزَّوالُ، وهذا السَّببُ وإن كانَ أضعَفَ الأسبابِ معنًى، فهو أغلَبُها على الأُمَمِ وأربابِ المقالاتِ والنِّحَلِ، ليسَ مع أكثرِهِم بل جميعِهِم، إلَّا ما عَسَى أن يَشِذَّ إلَّا عادَةً ومَرْبًى تَربَّى عليه طِفْلًا لا يَعرِفُ غيرَها ولا يُحسِنُ به؛ فدِينُ العوايدِ هو الغالبُ على أكثرِ النَّاسِ فالانتقالُ عنه كالانتقالِ عنِ الطَّبيعةِ إلى طبيعةٍ ثانيةٍ، فصلواتُ اللهِ وسلامُهُ على أنبيائِهِ ورُسُلِهِ خُصوصًا على خاتَمِهِم وأفضَلِهِم محمَّدٍ ﷺ؛ كيفَ غَيَّرُوا عوائدَ الأُمَمِ الباطلةِ، ونَقَلُوهُم إلى الإيمانِ حتَّى استَحدَثُوا به طبيعةً ثانيةً خَرَجُوا بها عن عادتِهِم وطبيعتِهِمُ الفاسدةِ، ولا يَعلَمُ مَشقَّةَ هذا على النُّفوسِ إلَّا مَن زاوَلَ نقلَ رَجُلٍ واحدٍ عن دِينِهِ ومقالتِهِ إلى الحقِّ؛ فجَزَى اللهُ المرسلِينَ أفضَلَ ما جَزَى به أحدًا منَ العالَمِينَ»[١].

وقد وَرَدَ عنِ النَّبيِّ ﷺ ما يدلُّ على أنَّ للبِيئَةِ الَّتِي يعيشُ فيها الإنسانُ أثرًا في دِينِ الإنسانِ؛ فإذا عاشَ في بيئةٍ مشركةٍ، فإن ذلكَ يكونُ سببًا في إعراضِهِ عن دِينِ الإسلامِ؛ قالَ ﷺ: (**مَا مِن مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ؛ كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ**[٢]**؛ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟!**)[٣]، ثم يقولُ أبو هريرةَ رضي الله عنه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠][٤].

---

(١) مفتاح دار السعادة: (١/ ١٥٥ ـ ١٥٦).

(٢) **جمعاء**: أي: لم يذهب من بدنها شيء. **انظر**: فتح الباري: (٤/ ١٨٥).

(٣) **جدعاء**: أي: المقطوعة الأذن. **انظر**: فتح الباري: (٤/ ١٨٥).

(٤) صحيح البخاري: (١/ ٤٠٣)، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلَّى عليه؟ وهل يعرض الصبي على الإسلام، حديث رقم: (١٣٥٩).

قال ابنُ عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأوَّلَ ما يُولَدُ الإنسانُ يُولَدُ على الفِطرةِ، ولو تُرِكَ ونفسَهُ في أرضٍ بَرِّيَّةٍ، ما عَبَدَ غيرَ اللهِ، ولو عاشَ في بيئةٍ مسلمةٍ، ما عَبَدَ غيرَ اللهِ، وحينئذٍ تكونُ عبادتُهُ للهِ، وإذا عاشَ في بيئةٍ مسلمةٍ يكونُ المُقوِّمُ لها شَيئَينِ: هما الفِطرةُ والبِيئَةُ، ولكنْ إذا عاشَ في بيئةٍ كافرةٍ، فإنه حينئذٍ يحدُثُ عليه هذا المانعُ لِفِطْرَتِهِ من الاستقامةِ؛ لقولِهِ ﷺ: **(فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)**»[١].

ودلَّ هذا الحديثُ على أهميَّةِ الأُسرةِ؛ إذ هي أوَّلُ بيئةٍ وأوَّلُ مجتمَعٍ يَتَرَبَّى فيه الإنسانُ؛ «فهذا الطِّفلُ حينما يوجَدُ في هذه الحياةِ، يَجِدُ نفسَهُ بينَ أبوَيهِ يَرْعَيانِهِ ويُشَكِّلَانِهِ كما يريدانِ؛ كالصَّلْصَالِ؛ فيُدَرِّبَانِهِ على عاداتِهِما وتقاليدِهِما، ويَمنَعَانِهِ من مُخالَفتِهِما في كثيرٍ من شؤونِ الحياةِ»[٢].

ولهذا: إذا كانتِ الأُسرةُ فاسدةً مُعْرِضَةً عنِ اللهِ، كان هذا من أعظَمِ الأسبابِ في ضلالِ مَن عاشَ في كَنَفِ تلكَ الأسرةِ؛ قال الحافظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمَن تَغَيَّرَ، كانَ بسَبَبِ أبوَيهِ؛ إما بتَعلِيمِهِما إيَّاهُ، أو بتَرغِيبِهِما فيه»[٣].

وممَّا يَنبَغِي التَّحذيرُ منه في هذا المقامِ: ابتعاثُ شبابِ المسلِمِينَ إلى بلادِ الكُفَّارِ[٤] فيَعِيشُونَ سنواتٍ طويلةً في مجتَمَعاتٍ يَفْشُو فيها الشِّركُ باللهِ، ويَتَرَبَّوْنَ على عاداتٍ وتقاليدَ لا يَرضَاهَا اللهُ ولا رسولُهُ ﷺ، ويَأبَاها دِينُهُم ومجتمعُهُمُ الَّذِي تَرَبَّوْا فيه؛ فيَرجِعُونَ من تلكَ البلادِ وهم

---

(١) شرح العقيدة السفارينية: (ص١٤٩). (٢) دوافع إنكار دعوة الحق: (ص٦١).

(٣) فتح الباري: (٤/ ١٨٥).

(٤) ذكر مؤلف: (دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها) بعض النقول الَّتي تدل على خطورة الابتعاث إلى بلاد الكفر. انظر: (ص٦٦).

يحملونَ كثيرًا منَ الأفكارِ البعيدةِ عن تعاليمِ دِينِ الإسلامِ، بل إنَّ بعضَهُم يَرجِعُ داعيةً إلى ما تَلَقَّاهُ في بلادِ الغَربِ، وهذا «منَ الفِتَنِ أن نَرَى كثيرًا منَ المسلِمِينَ مَفْتُونِينَ بما وَصَلَ إليه الغَربُ من تَحَضُّرٍ ورُقِيٍّ ومَدَنِيَّةٍ مُتناسِينَ كُفرَهُم وشِركَهُم ووُقُوعَهُم في معصيةِ ربِّ العالَمِينَ؛ وهذا من ضَعفِ اليَقِينِ والإيمانِ باللهِ»[1].



(١) الفتنة وآثارها المدمرة وموقف المسلم منها وطرق التثبت فيها: (ص١١٤ ـ ١١٥).

المَطْلَبُ الثَّانِي

فِتَنُ الحياةِ الدُّنيا

أولًا: فِتنةُ النِّساءِ

إنَّ من أعظَمِ الفِتَنِ الَّتِي يُبتَلَى الإنسانُ بها، وقد تكونُ سببًا في إعراضِهِ عنِ الحقِّ ـ: فتنةَ النِّساءِ؛ ولذلكَ لمَّا ذَكَرَ اللهُ ﷻ في كتابِهِ الكريمِ فِتَنَ الحياةِ الدُّنيا، بَدَأ بذِكرِ فِتنةِ النِّساءِ؛ لأنَّ الفتنةَ بِهِنَّ عظيمةٌ.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يُخبِرُ تعالى عمَّا زُيِّنَ للنَّاسِ في هذه الحياةِ الدُّنيا من أنواعِ الملاذِّ منَ النِّساءِ والبَنِينَ، فبَدَأ بالنِّساءِ؛ لأنَّ الفِتنةَ بهِنَّ أشَدُّ؛ كما ثَبَتَ في «الصَّحيحِ» أنَّهُ ﷺ قال: (**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**)[١]»[٢]؛ ولهذا فقد كانت هذه الفتنةُ سببًا لإيثارِ كثيرٍ منَ النَّاسِ الدُّنيا على الآخرةِ.

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أخبر تعالى في هاتينِ الآيتينِ عن حالةِ النَّاسِ

---

(١) صحيح البخاري: (٣/ ١٦٤٠)، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، حديث رقم: (٥٠٩٦)، صحيح مسلم: (٢/ ١٢٥٦)، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء، وبيان الفتنة بالنساء، حديث رقم: (١٣٤١).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ١٩).

في إيثارِ الدُّنيا على الآخرةِ، وبَيَّنَ لهمُ التَّفاوُتَ العظيمَ والفَرقَ الجسيمَ بَيْنَ الدَّارَيْنِ؛ فأخبَرَ أنَّ النَّاسَ زُيِّنَتْ لهم هذه الأمورُ فرَمَقُوها بالأبصارِ، واستَحْلَوْهَا بالقُلوبِ، وعَكَفَتْ على لذَّاتِها النُّفُوسُ، كلُّ طائفةٍ منَ النَّاسِ تميلُ إلى نَوعٍ من هذه الأنواعِ، قد جَعَلُوها هي أكبَرَ هَمِّهِم، ومَبلَغَ عِلمِهِم، وهي مع هذا متاعٌ قليلٌ مُنْقَضٍ في مُدَّةٍ يسيرةٍ، فهذا: ﴿مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤]»(١).

ويقولُ ابنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللهُ، في هذا المعنى ـ: «فأخبَرَ سبحانه أنَّ هذا الَّذي زُيِّنَ به الدُّنيا من ملاذِّها وشهواتِها، وما هو غايةُ أماني طُلَّابِها ومُؤْثِرِيها على الآخرةِ وهو سبعةُ أشياءَ: النِّساءُ اللَّاتي هُنَّ أعظَمُ زِينَتِها وشَهواتِها وأعظَمُها فِتنةً...»(٢).

إنَّ من أقوَى الأدلَّةِ على عِظَمِ فتنةِ النِّساءِ «ما ذَكَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عن نبيِّ اللهِ يوسُفَ ـ عليه الصلاةُ والسَّلامُ ـ في قصَّتِهِ مع امرأةِ العزيزِ في مصرَ وتلكَ النِّسوةِ اللَّاتِي حَضَرْنَ مجلِسَها ذاتَ يومٍ حِينَ طَلَبَتِ امرأةُ العزيزِ منه بعدَما كانَ منها من مُراودةٍ أن يَخرُجَ على تلكَ النسوةِ اللَّائِي جَمَعَتْهُنَّ لِيُشاهِدْنَ جمالَ يوسُفَ ـ عليه الصلاةُ والسَّلامُ ـ فلا يَلُمْنَها فيما هَمَّتْ به، وماذا كانَ مَوقِفُ يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تُجاهَ فتنةِ امرأةِ العزيزِ؛ لمَّا قالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]؟ كان مَوقِفُهُ أمامَ هذا التَّصميمِ أنَّه تَوَقَّعَ الشَّرَّ كُلَّهُ من ورائِهِ، وأيقَنَ أنَّها ما دامَتْ مُصِرَّةً على مطاردتِهِ، فإنَّها لن تَألُو جُهدًا في سبيلِ الوُصولِ إلى ما تريدُ، وخَشِيَ أن تَمُرَّ به لحظةٌ من لحظاتِ الضَّعفِ البَشَرِيِّ؛ فيَضعُفُ أمامَ

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٢١٠). (٢) عدة الصابرين: (ص١٩٣).

إغرائِها الدائمِ؛ فلم يجدْ أمامَهُ سبيلًا إلا اللُّجوءَ إلى حمايةِ ربِّهِ؛ فاتَّجهَ إليه صارخًا مُستغيثًا: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤]»[١].

وهذه أيضا قصَّةٌ تُبيِّنُ خطَرَ فتنةِ النِّساءِ، وكيفَ كانت سببًا في الصَّدِّ عن ذِكرِ اللهِ: قال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «. . . وقيلَ لآخر: قُل: لا إلٰهَ إلَّا اللهُ، **فجعَلَ يقولُ:**

.... أَيْنَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَّامِ مِنْجَابِ؟!»

قال: «وهذا الكلامُ له قصَّةٌ؛ وذلكَ أنَّ رَجُلًا كانَ واقِفًا بإزاءِ دارِهِ، وكانَ بابُها يُشبِهُ بابَ هذا الحمَّامِ، فمرَّتْ به جاريةٌ لها مَنظَرٌ؛ فقالت: أينَ الطَّريقُ إلى حمَّامِ مِنجابٍ؟ فقالَ: هذا حَمَّامُ مِنْجابٍ؛ فدَخلَتِ الدَّارَ ودَخلَ وراءَها؛ فلمَّا رَأَتْ نفسَها في دارِهِ، وعَلِمَتْ أنَّهُ قد خدَعَها، أظهَرَتْ له البِشْرَ والفَرَحَ باجتماعِها معه، وقالت: يَصلُحُ أن يكونَ معنا ما يَطِيبُ به عَيْشُنَا، وتَقَرُّ به عُيُونُنا، فقال لها: السَّاعةَ آتِيكِ بكُلِّ ما تُرِيدِينَ وتَشتَهِينَ، وخرَجَ وتَركَها في الدَّارِ ولم يُغلِقْهَا؛ فأَخَذَ ما يَصْلُحُ ورَجَعَ فوَجَدَها قد خَرَجَتْ وذَهَبَتْ، ولم تَخُنْهُ في شَيءٍ فهامَ الرَّجُلُ، وأكثَرَ الذِّكرَ لها وجَعَلَ يَمشِي في الطُّرُقِ والأزِقَّةِ **ويقولُ:**

يَا رُبَّ قَائِلَةٍ يَوْمًا وَقَدْ تَعِبَتْ ... أَيْنَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَّامِ مِنْجَابِ

فبَينَما هو يومًا يقولُ ذلكَ، وإذا بجاريتِهِ أجابَتْهُ مِن طاقٍ[٢] تقولُ: قَرنان[٣]!

---

(١) الفتنة وموقف المسلم منها في القرآن الكريم: (ص٢٢٥).

(٢) **طاق**: الطاق ما عطف من الأبنية، والجمع: الطاقات والطيقان. **انظر**: الصحاح: (١٥١٩/٤).

(٣) **القرنان**: الدَّيُّوثُ المشارَكُ في قَرينتِهِ. **انظر**: القاموس المحيط: (ص١١٢٨).

هَلَّا جَعَلْتَ سَرِيعًا إِذْ ظَفِرْتَ بِهَا   حِرْزًا عَلَى الدَّارِ أَوْ قُفْلًا عَلَى البَابِ

فازدادَ هَيمانُهُ واشتَدَّ هيجانُهُ، ولم يَزَلْ على ذلكَ حتَّى كانَ هذا البيتُ آخِرَ كلامِهِ منَ الدُّنيا، فانظُرْ كيفَ كانت فِتنةُ ذلكَ الرَّجُلِ بتِلكَ المرأةِ سببًا في عَدَمِ قَبولِهِ لكلمةِ: «لا إلٰهَ إلَّا اللهُ»، نَسأَلُ اللهَ السَّلامةَ والعافيةَ»[1].

ومِن فِتَنِ النِّساءِ ما نشاهِدُهُ اليومَ[2] من خُروجِ النِّساءِ كاسياتٍ عارياتٍ؛ كما وَصَفَ النَّبيُّ ﷺ؛ حيثُ قال: (**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ البَقَرِ، يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مَائِلَاتٌ مُمِيلَاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ[3] المَائِلَةِ[4] لَا يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا**)[5].

وقدِ استخدَمَ الأعداءُ هذه الفتنةَ في إضلالِ النَّاسِ وصَدِّهِم عنِ الحقِّ.

قال ابنُ عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «ولهذا كانَ أعداؤُنا ـ أعداءُ الإسلامِ ـ بل أعداءُ اللهِ ورسولِهِ ﷺ منَ اليَهودِ والنَّصارَى والمشركِينَ والشُّيُوعِيِّينَ وأشباهِهِم وأذنابِهِم وأتباعِهِم ـ: كلُّ هؤلاءِ يَحرِصُونَ غايةَ الحرصِ على

---

(١) الداء والدواء: (ص٢٥٧ ـ ٢٥٨)، وأخرجها البيهقي في الجامع لشعب الإيمان: (٨/ ٤٨٥).

(٢) ذكر صاحب كتاب: (الفتنة وموقف المسلم منها في ضوء القرآن) كثيرًا من الصور لفتنة النساء في هذا العصر. **انظر**: (ص٢٢٧ ـ ٢٢٨).

(٣) **البُخْت**: الإبل. **انظر**: الصحاح: (١/ ٢٤٣).

(٤) قال النووي: «ومعنى: (**رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ**): أن يكبرنها ويُعَظِّمْنَهَا بلَفِّ عمامةٍ أو عصابةٍ أو نحوِهما. **انظر**: صحيح مسلم بشرح النووي: (١٤/ ١١٦).

(٥) صحيح مسلم: (٢/ ١٠٢١)، كتاب اللباس والزينة، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات، حديث رقم: (٢١٢٨).

أن يَفتِنُوا المسلمِينَ بالنِّساءِ؛ يَدعُونَ إلى التَّبَرُّجِ، يَدعونَ إلى اختلاطِ المرأةِ بالرَّجلِ، يَدعونَ إلى التَّفسُّخِ في الأخلاقِ، يَدعونَ إلى ذلكَ بألسِنَتِهِم وأقلامِهِم وأعمالِهِم، والعياذُ باللهِ؛ لأنَّهُم يعلمونَ أنَّ الفتنةَ العظيمةَ الَّتِي يَنسَى بها الإنسانُ ربَّهُ ودِينَهُ إنما تكونُ في النِّساءِ»[1].

ثانيا: فتنةُ المالِ

جَعَلَ اللهُ ﷻ المالَ فتنةً واختبارًا لبني آدمَ؛ لِينظُرَ مَن كانت له هذه الأموالُ سببًا لطاعةِ اللهِ، ومَن كانت سببًا له في معصيةِ اللهِ.

قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

قال ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ للمؤمنِينَ: واعلمُوا أيُّها المؤمنونَ أنَّما أموالُكُمُ الَّتِي خَوَّلَكُمُوها اللهُ، وأولادُكُمُ الَّتِي وَهَبَها اللهُ لكم اختبارٌ وبلاءٌ أعطاكُمُوها؛ لِيَختَبِرَكُم بها ويَبتَلِيَكُم؛ لِينظُرَ كيفَ أنتم عاملونَ من أداءِ حقِّ اللهِ عليكم فيها، والانتهاءِ إلى أمرِهِ ونهيِهِ فيها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾؛ يقولُ: واعلَمُوا أنَّ اللهَ عندَهُ خيرٌ وثوابٌ عظيمٌ على طاعتِكُم إيَّاهُ فيما أمَرَكُم ونهاكُم في أموالِكُم وأولادِكُمُ الَّتِي اختَبَرَكُمْ بها في الدُّنيا، وأطيعُوا اللهَ فيما كَلَّفَكُم فيها تنالُوا به الجزيلَ من ثوابِهِ في معادِكُم»[2].

وقالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: اختبارٌ وامتحانٌ منه لكم إذ أعطاكُمُوهَا؛ لِيَعلَمَ أتشكُرُونَهُ عليها وتُطِيعُونَهُ فيها، أو تَشتَغِلُونَ بها عنه، وتَعْتاضُونَ بها منه؟

(١) شرح رياض الصالحين: (١/ ٩٥). (٢) جامع البيان: (١١/ ١٢٦).

كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥]، وقال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ﴾ [التغابن: ١٤]»[١].

وقد دلَّ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ على شِدَّةِ فتنةِ المالِ وكثرةِ مَنِ افْتُتِنَ بها.

قالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وجَعْلُ نفسِ الأموالِ والأولادِ فتنةً لكثرةِ حدوثِ فتنةِ المرءِ من جَرَّاءِ أحوالِهما مُبالغةٌ في التَّحذيرِ من تلكَ الأحوالِ وما يَنشَأُ عنها؛ فكأنَّ وجودَ الأموالِ والأولادِ نفسُ الفتنةِ»[٢].

ولهذا نَهَى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عبادَهُ عن الِالتهاءِ بالأموالِ لأنَّها سببٌ في صَدِّ العبدِ عن ذِكرِ اللهِ الَّذي يَشمَلُ التَّوحيدَ والصَّلاةَ والدُّعاءَ وغيرَ ذلكَ[٣]، وبَيَّنَ أنَّ مَن وَقَعَ في ذلكَ فإنَّهُ منَ الخاسِرينَ.

قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى آمِرًا لعبادِهِ المؤمنِينَ بكَثرةِ ذِكرِهِ وناهِيًا لهم عن أن تَشغَلَهُمُ الأموالُ والأولادُ عن ذلكَ، ومُخبِرًا لهم بأنَّهُ مَنِ الْتَهَى بمتاعِ الحياةِ الدُّنيا وزِينَتِها عمَّا خُلِقَ له من طاعةِ ربِّهِ وذِكرِهِ،

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٤/ ٤٢). (٢) التحرير والتنوير: (٩/ ٣٢٥).
(٣) ذكر ابن عَطِيَّةَ أن ذِكرَ اللهِ يَشمَلُ التَّوحيدَ والصَّلاةَ والدُّعاءَ. انظر: المحرر الوجيز: (٨/ ٣١٥).

فإنَّهُ منَ الخاسِرينَ الَّذينَ يَخسَرُونَ أنفُسَهُم وأهلِيهِم يومَ القيامةِ»[١].

وقالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وخَصَّ الأموالَ والأولادَ بتوجُّهِ النَّهيِ عن الِاشتغالِ بها اشتغالًا يُلهِي عن ذِكرِ اللهِ؛ لأنَّ الأموالَ ممَّا يَكثُرُ إقبالُ الناسِ على إنمائِها، والتَّفكيرِ في اكتسابِها بحيثُ تكونُ أوقاتُ الشُّغْلِ بها أكثرَ من أوقاتِ الشُّغلِ بالأولادِ، ولأنَّها كما تَشغَلُ عن ذِكرِ اللهِ؛ بِصَرْفِ الوقتِ في كَسبِها ونمائِها، تَشغَلُ عن ذِكرِهِ أيضًا بالتَّذكيرِ لِكَنْزِهَا بحيثُ يَنْسَى ذِكرَ ما دعا اللهُ إليه من إنفاقِها»[٢].

لقد كانت فتنةُ المالِ سببًا كبيرًا في صَدِّ الإنسانِ عنِ الحقِّ، وفي إعراضِ كثيرٍ منَ النَّاسِ عن ذِكرِ اللهِ وفي كُفرِهِم برَبِّهِم ﷻ، وقد وَرَدَتْ آياتٌ كثيرةٌ تَدُلُّ على هذا.

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ، عندَ قولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

«أي: هذا مِن ابتلاءِ اللهِ لعبادِهِ؛ حيثُ جَعَلَ بعضَهُم غَنِيًّا وبعضَهُم فقيرًا، وبعضَهُم شريفًا وبعضَهُم وَضِيعًا؛ فإذا مَنَّ اللهُ بالإيمانِ على الفقيرِ أوِ الوضيعِ، كانَ ذلكَ محلَّ مِحنَةٍ للغَنِيِّ والشَّريفِ، فإن كانَ قَصدُهُ الحقَّ واتِّباعَهُ، آمَنَ وأسلَمَ، ولم يَمنَعْهُ من ذلكَ مشاركةُ الَّذي يراه دونَهُ بالغِنَى أوِ الشَّرَفِ، وإن لم يكن صادقًا في طَلَبِ الحقِّ، كانت هذه عقبةً تَرُدُّهُ عنِ اتِّباعِ الحقِّ»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٨/ ١٣٣).
(٢) التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٥١).
(٣) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧).

فمِن فتنةِ المالِ: أنَّهُ سببٌ في الكُفرِ بآياتِ اللهِ والإعراضِ عنها.

قال تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٤، ١٥].

قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى: هذا مقابلةُ ما أنعَمَ اللهُ عليه[1] منَ المالِ والبنينَ كَفَرَ بآياتِ اللهِ وأعرَضَ عنها، وزَعَمَ أنَّها كَذِبٌ مأخوذٌ من أساطيرِ الأوَّلِينَ»[2].

وقال الشَّيخُ السعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «**أي:** لِأَجْلِ كثرةِ مالِهِ ووَلَدِهِ طَغَى واستكبَرَ عنِ الحقِّ ودَفَعَهُ حينَ جاءَهُ وجَعَلَهُ من جملةِ أساطيرِ الأوَّلِينَ الَّتي يُمكِنُ صِدقُها وكَذِبُها»[3].

ومن فتنةِ المالِ: أنَّهُ سببٌ في إنكارِ البَعثِ؛ قال تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٤٩، ٥٠].

قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى: لا يَمَلُّ الإنسانُ من دعائِهِ ربَّهُ بالخَيرِ ـ وهو المالُ وصِحَّةُ الجسمِ وغيرِ ذلكَ ـ وإنْ مَسَّهُ الشَّرُّ ـ وهو البَلاءُ أوِ الفقرُ ـ ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩﴾؛ أي: يَقَعُ في ذِهنِهِ أنَّهُ لا يَتَهَيَّأُ له بعدَ هذا خيرٌ، ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾؛ **أيْ:** إذا أصابَهُ خيرٌ ورِزقٌ بعدَ ما كانَ في شِدَّةٍ، لَيَقُولَنَّ: هذا لي،

---

(١) قيل: هو الوليد بن المغيرة؛ لكن الآية تعم من شمله هذا الوصف. انظر: تيسير الكريم الرحمٰن: (٤/ ١٨٦٦ ـ ١٨٦٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٨/ ١٩٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمٰن: (٤/ ١٨٦٦ ـ ١٨٦٧).

إنِّي كُنتُ أستَحِقُّهُ عندَ ربِّي، ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾؛ أي: يَكفُرُ بقيامِ السَّاعةِ؛ أيْ: لِأجْلِ أنَّهُ خُوِّلَ نِعمَةً يفخَرُ، ويَبطَرُ، ويَكفُرُ؛ كما قالَ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧][(١)].

ومِن فتنةِ المالِ: أنَّهُ سببٌ في رَدِّ دعوةِ الرُّسُلِ.

قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولذلكَ كانَ فقراءُ المؤمنِينَ وضُعفاؤُهم مِن أتباعِ الرُّسُلِ؛ فتنةً لأغنيائِهم ورؤسائِهم؛ امتَنَعُوا منَ الإيمانِ بعدَ معرفتِهِم بصِدقِ الرُّسُلِ وقالُوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] هؤلاء، وقالُوا لنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]»[(٢)].

«وقد كانَ فقراءُ الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ منَ السَّابقِينَ الأوَّلِينَ إلى الإسلامِ؛ فتنةً لأغنياءِ المشركِينَ، وجاءَ بعضُهُم إلى النَّبيِّ ﷺ، وطَلَبُوا منه أن يجلِسَ معهم وَحدَهُم، ولا يجالِسَهُم بفُقراءِ أصحابِهِ كبِلالٍ وعمَّارٍ وصُهَيْبٍ وخَبَّابٍ وابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ»[(٣)].

وقد قَصَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى علينا في كتابِهِ الكريمِ قصَّةَ رجُلَينِ كانَ المالُ سببًا في صَدِّهِما عنِ الحقِّ: إحداهُما: قصَّةُ قارُونَ، والأخرى: قصَّةُ صاحبِ الجنَّتَيْنِ:

• قصَّةُ قارُونَ:

كانَ المالُ الَّذي أُوتِيَهُ قارونُ سببًا في إعراضِهِ عن دعوةِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسببًا في عدمِ قَبولِهِ نصيحةَ قومِهِ الَّذين كانُوا يَنصَحُونَهُ ويَعِظُونَهُ باللهِ.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٧/ ١٨٦).
(٢) إغاثة اللهفان: (٢/ ٨٨٢).
(٣) العواصم من الفتن في سورة الكهف: (ص٦٩).

قالَ تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٧٨].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقالَ قارُونُ ـ رادًّا لِنصيحتِهِم كافرًا بنعمةِ ربِّهِ ـ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾؛ أي: إنَّما أدركتُ هذه الأموالَ بكَسْبِي ومعرفتِي بوجوهِ المكاسبِ، وحِذْقِي، أو على علمٍ منَ اللهِ بحالي؛ يَعلَمُ أنِّي أهلٌ لذلكَ؛ فَلِمَ تنصَحُونِي على ما أعطاني اللهُ تعالى؟! قال تعالى مُبينًا أنَّ عطاءَهُ ليسَ دليلًا على حُسنِ حالةِ المعطَى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾، فما المانعُ من إهلاكِ قارونَ، مع مُضِيِّ عادتِنا وسُنَّتِنا بإهلاكِ مَن هو مِثلُهُ وأعظَمُ، إذا فَعَلَ ما يُوجِبُ الهلاكَ؟! ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾؛ بل يُعاقِبُهُمُ اللهُ، ويُعَذِّبُهُم على ما يَعلَمُهُ منهم؛ فهم وإن أثبَتُوا لأنفُسِهِم حالةً حَسَنَةً، وشَهِدُوا لها بالنَّجاةِ؛ فليسَ قولُهُم مَقبولًا، وليسَ ذلكَ رادًّا عنهم منَ العذابِ شَيئًا؛ لأنَّ ذُنوبَهُم غيرُ خَفِيَّةٍ، فإنكارُهُم لا مَحَلَّ له؛ فلم يَزَلْ قارونُ مُستمِرًّا على عنادِهِ وبَغْيِهِ، وعدمِ قَبولِ نصيحةِ قَومِهِ فَرِحًا بَطِرًا قد أعجَبَتْهُ نفسُهُ، وغَرَّهُ ما أُوتِيَهُ منَ الأموالِ... فلمَّا انتَهَتْ بقارُونَ حالةُ البَغيِ والفَخرِ، وازَّيَّنَتِ الدُّنيا عندَهُ، وكَثُرَ بها إعجابُهُ بَغتَةً العذابُ؛ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]؛ جزاءً من جنسِ عملِهِ؛ فكما رَفَعَ نَفسَهُ على

عبادِ اللهِ أنزَلَهُ اللهُ أسفَلَ سافلِينَ، هو وما اغتَرَّ به، من دارِهِ وأثاثِهِ، ومتاعِهِ ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾؛ أي: جماعةٍ وعُصْبَةٍ وخَدَمٍ وجُنودٍ، ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾؛ أيْ: جاءَهُ العذابُ، فما نُصِر ولا انتَصَرَ»[1].

• قِصَّةُ صاحبِ الجَنَّتَيْنِ:

منَ القِصَصِ الَّتِي قَصَّ اللهُ ﷻ علينا في كتابِهِ، الَّتِي تُبَيِّنُ أنَّ المالَ سببٌ في صدِّ صاحبِهِ عنِ الحَقِّ: قِصَّةُ صاحبِ الجنَّتَيْنِ؛ فقد كانَ المالُ سَبَبًا لإنكارِهِ لأمرٍ عظيمٍ؛ وهو أمرُ البَعثِ وكانَ سببًا في عدمِ قَبولِهِ لِنَصِيحَةِ صاحبِهِ الَّذي كان يَجتَهِدُ في نُصحِهِ.

قالَ تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٣٦].

قال ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: هذا الَّذي جَعَلْنا له جَنَّتَيْنِ من أعنابٍ، ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾، وهي بُستانُهُ، ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾؛ وظُلمُهُ نَفْسَهُ: كُفرُهُ بالبَعثِ، وشَكُّهُ في قيامِ السَّاعةِ، ونِسيانُهُ المعادَ إلى اللهِ تعالى، فأوجَبَ لها بذلكَ سُخطَ اللهِ وأليمَ عقابِهِ، وقولُهُ: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾؛ يقولُ جلَّ ثناؤُهُ: قال لمَّا عايَنَ جَنَّتَهُ، ورآها وما

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/١٢٩٨ ـ ١٢٩٩).

فيها منَ الأشجارِ والثِّمارِ والزُّروعِ والأنهارِ المطَّرِدَةِ؛ شَكًّا في المعادِ إلى الله: ما أظنُّ أن تَبِيدَ هذه الجنَّةُ أبدًا، ولا تَفنَى، ولا تَخْرَبُ، وما أظنُّ السَّاعةَ الَّتي وَعَدَ اللهُ خَلْقَهُ الحَشْرَ فيها تقومُ فتَحدُثُ، ثُمَّ تَمَنَّى أُمنِيَّةً أُخرَى على شَكٍّ منه؛ فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾؛ فرَجَعْتُ إليه، وهو غيرُ مُوقِنٍ أنه راجعٌ إليهِ، ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾؛ يقولُ: لَأَجِدَنَّ خيرًا من جَنَّتِي هذه عندَ اللهِ إن رُدِدتُّ إليه مَرجِعًا ومَرَدًّا، يقولُ: لم يُعطِنِي هذه الجنَّةَ في الدُّنيا إلَّا ولي عندَهُ أفضَلُ منها في المعادِ إن رُدِدتُّ إليه»[1]. فلم يَزَلْ صاحبُهُ يَعِظُهُ ويَنصَحُهُ ويُحذِّرُهُ منَ الشِّركِ باللهِ ﷻ، لكنْ لم تَردَعْهُ تلكَ النَّصائحُ؛ فكانت عاقبتُهُ وعاقبةُ أموالِهِ؛ كما قالَ اللهُ سبحانه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف: ٤٢، ٤٣].

قالَ ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: وأحاطَ الهلاكُ والجوائحُ بثَمَرِهِ، وهي صُنوفُ ثمارِ جَنَّتِهِ الَّتي كانَ يقولُ لها: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾ فأصبَحَ هذا الكافرُ صاحبُ هاتَينِ الجنَّتَيْنِ يُقلِّبُ كَفَّيْهِ ظَهْرًا لبَطنٍ؛ تَلَهُّفًا وأَسَفًا على ذَهابِ نفقتِهِ الَّتي أنفَقَ في جنَّتِهِ، ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾؛ يقولُ: وهي خاليةٌ على نباتِها وبُيوتِها»[2].

فلْيَعتَبِرِ المعتبرونَ بهاتَينِ القصَّتَيْنِ، ولْيَحْذَرْ صاحبُ المالِ أن يكونَ مالُهُ سَبَبًا في صَدِّهِ عنِ الحقِّ، ولْيَستعمِلْ هذا المالَ في طاعةِ اللهِ ﷻ؛ حتَّى ينالَ السَّعادةَ في الدُّنيا والآخرةِ.

---

(١) جامع البيان: (١٥/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣).
(٢) جامع البيان: (١٥/ ٢٦٨).

ثالثًا: فتنةُ الأزواجِ والأولادِ

أ ـ فتنةُ الأزواجِ:

منَ الفتنِ الَّتِي تَعرِضُ للإنسانِ وقد تكونُ سَببًا في صَدِّهِ عنِ الحقِّ: فتنةُ الأزواجِ.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يُخبِرُ تعالى عمَّا زُيِّنَ للنَّاسِ في هذه الحياةِ الدُّنيا من أنواعِ الملاذِّ منَ النِّساءِ والبَنِينَ؛ فبَدَأَ بالنِّساءِ؛ لأنَّ الفتنةَ بهِنَّ أشَدُّ»[١].

وقال الحافظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وفي الحديثِ[٢] أنَّ الفتنةَ بالنِّساءِ أَشَدُّ منَ الفتنةِ بغَيرِهِنَّ، ويَشهَدُ له قَولُهُ تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ فجَعَلَهُنَّ من حُبِّ الشَّهَواتِ، وبَدَأَ بهِنَّ قبلَ بَقِيَّةِ الأنواعِ؛ إشارةً إلى أنَّهُنَّ الأصلُ في ذلكَ، ويَقَعُ في المشاهدةِ حُبُّ الرَّجلِ وَلَدَهُ مِن امرأتِهِ الَّتِي هي عندَهُ أكثَرُ من حُبِّهِ وَلَدَهُ من غَيرِها، ومن أمثلةِ ذلكَ قصَّةُ النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في الهبةِ، وقد قالَ بعضُ الحُكماءِ: النِّساءُ شَرٌّ كُلُّهُنَّ وأَشَرُّ ما فيهِنَّ عَدَمُ الاستغناءِ عَنهُنَّ ومع أنَّها ناقصةُ العقلِ والدِّينِ، تَحمِلُ الرَّجُلَ على تَعاطِي ما فيه نَقصُ العَقلِ والدِّينِ؛ كشَغلِهِ عن طَلَبِ أُمورِ الدِّينِ، وحَمْلِهِ على التَّهالُكِ على طَلَبِ الدُّنيا، وذلكَ أشدُّ الفسادِ»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٢/١٩)، ويدخل في عموم النساء في الآية الأزواج.

(٢) يقصد: حديث النبي ﷺ: (مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ). انظر: (ص١١٥).

(٣) فتح الباري: (١١/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠).

ومن أَجْلِ شِدَّةِ فِتنةِ الأزواجِ ولأنَّهُنَّ قد يَكُنَّ سَبَبًا في صَدِّ الرَّجُلِ عن دِينِهِ؛ حَذَّرَ القُرآنُ الكريمُ من ذلكَ؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

قال ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: يا أيُّها الَّذينَ صَدَقُوا اللهَ ورسولَهُ ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾؛ يَصُدُّونَكُم عن سبيلِ اللهِ، ويُثَبِّطُونَكُمْ عن طاعةِ اللهِ، ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾؛ أن تَقبَلُوا منهم ما يَأمُرُونكُم به مِن تَركِ طاعةِ اللهِ»(١).

وقالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليسَ المرادُ من هذه العداوةِ ما يَفهَمُهُ كثيرٌ مِنَ النَّاسِ أنَّها عداوةُ البغضاءِ والمحادَّةِ، بل إنَّما هي عداوةُ المحبَّةِ الصَّادَّةِ للآباءِ عنِ الهجرةِ والجهادِ وتَعَلُّمِ العِلمِ والصَّدَقَةِ... وغيرِ ذلكَ من أُمورِ الدِّينِ وأعمالِ البِرِّ»(٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَمَرَ تعالى رسولَهُ أن يَتَوَعَّدَ مَن آثَرَ أهلَهُ وقرابَتَهُ وعَشِيرَتَهُ على اللهِ وعلى رسولِهِ ﷺ، وجهادٍ في سَبيلِهِ»(٣).

وقد تكونُ الزَّوجةُ سَبَبًا لصَدِّ الرَّجُلِ عن طاعةِ رَبِّهِ، أو عن صِلَةِ أرحامِهِ.

---

(١) جامع البيان: (٢٣/ ١٤).
(٢) عدة الصابرين: (ص٧٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم: (٤/ ١٢٤).

قال مجاهدٌ ـ رَحِمَهُ اللهُ، في قولِهِ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾، قال ـ: «إنَّهما يَحمِلانِهِ على قطيعةِ رَحِمِهِ، وعلى معصيةِ ربِّهِ؛ فلا يستطيعُ مع حُبِّهِ إلَّا أن يَقطَعَهُ»(١).

ب ـ فِتنةُ الأولادِ:

مِنَ الفِتَنِ الَّتي يُبتَلَى بها العبادُ: فتنةُ الأولادِ؛ لِيَتَبَيَّنَ مَن كانت هذه الفتنةُ سببًا في طاعتِهِ للهِ وقَبولِ الحقِّ، أو تكونُ سَبَبًا له في معصيةِ اللهِ وردِّ الحقِّ.

قالَ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ للمُؤمِنينَ: واعلموا أيُّها المؤمنونَ ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ﴾؛ الَّتي خوَّلَكُموها اللهُ، ﴿وَأَوْلَٰدُكُمْ﴾؛ الَّتي وَهَبَها اللهُ لكم اختبارٌ وبلاءٌ أعطاكُمُوها؛ لِيَختَبِرَكُم بها ويَبتَلِيَكُم لِيَنظُرَ كيفَ أنتم عاملون من أداءِ حقِّ اللهِ عليكم فيها، والانتهاءِ إلى أمرِهِ ونَهيِهِ فيها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾؛ يقولُ: واعلَمُوا أنَّ اللهَ عندَهُ خيرٌ وثوابٌ عظيمٌ على طاعتِكُم إيَّاهُ فيما أَمَرَكُم ونهاكُم في أموالِكُم وأولادِكُمُ الَّتي اخْتَبَرَكُم بها في الدُّنيا، وأَطِيعُوا اللهَ فيما كَلَّفَكُم فيها، تَنالُوا به الجزيلَ من ثوابِهِ في مَعادِكُم»(٢).

وتَدُلُّ هذه الآيةُ على أنَّ فتنةَ الأولادِ من أعظَمِ الفِتَنِ الَّتي يُفتَتَنُ بها الإنسانُ:

قالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وجَعَلَ نفسَ الأموالِ والأولادِ فتنةً؛ لكثرةِ

(١) جامع البيان: (٢٣/ ١٥ ـ ١٦).
(٢) جامع البيان: (١١/ ١٢٦).

حُدوثِ فتنةِ المَرءِ من جَرَّاءِ أحوالِهِما مبالغةٌ في التَّحذيرِ من تلكَ الأحوالِ وما يَنشَأُ عنها؛ فكأنَّ وجودَ الأموالِ والأولادِ نفسُ الفتنةِ»[١].

ولذلكَ نَهَى اللهُ ﷻ عن أن يكونَ الولدُ سببًا للانشغالِ عن ذِكرِهِ والصَّدِّ عن سبيلِهِ.

قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

قال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى آمِرًا لعبادِهِ المؤمِنينَ بكَثرةِ ذِكرِهِ وناهِيًا لهم عن أن تَشغَلَهُمُ الأموالُ والأولادُ عن ذلكَ، ومُخبِرًا لهم بأنَّهُ مَنِ الْتَهَى بمتاعِ الحياةِ الدُّنيا وزِينَتِها عمَّا خُلِقَ له من طاعةِ ربِّهِ وذِكرِهِ، فإنَّهُ منَ الخاسرِينَ الَّذينَ يَخسَرُونَ أنفُسَهُم وأهلِيهِم يومَ القيامةِ»[٢].

وقالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وأمَّا ذِكرُ الأولادِ، فهو إدماجٌ؛ لأنَّ الاشتغالَ بالأولادِ والشَّفَقَةَ عليهم، وتدبيرَ شُؤونِهم وقضاءَ الأوقاتِ في التَّأنُّسِ بهم: مِن شأنِهِ أن يُنْسِيَ عن تَذَكُّرِ أمرِ اللهِ ونهيِهِ في أوقاتٍ كثيرةٍ؛ فالشُّغْلُ بهذَينِ أكثرُ منَ الشُّغْلِ بغَيرِهِما»[٣].

وبما أنَّ فتنةَ الأموالِ من أعظَمِ الفِتَنِ؛ فقد كانت سببًا لإعْرَاضِ بعض النَّاسِ وبُعدِهم عَن دِيْنِ اللهِ.

قالَ تعالى: ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [نوح: ٢١].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ: واتَّبَعُوا في مَعصِيَتِهِم إيَّايَ مَن دعاهُم

(١) التحرير والتنوير: (٩/ ٣٢٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم: (٨/ ١٣٣).
(٣) التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٥١).

إلى ذلكَ، ممَّن كَثُرَ مالُهُ وولدُهُ؛ فلم تَزِدْهُ كثرةُ مالِهِ وولدِهِ إلَّا خسارًا، وبُعْدًا من اللهِ، وذَهابًا عن مَحَجَّةِ الطَّريقِ»[1].

ومِن فتنةِ الأولادِ: أنَّهم سببٌ في التَّكذيبِ والكُفرِ باللهِ ﷻ:

قالَ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

قالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا من تمويهِ الحقائقِ بما يَحِفُّ بها منَ العوارضِ فجَعَلُوا ما حَفَّ بحالِهِم في كُفرِهِم من وَفرةِ المالِ والولدِ حُجَّةً على أنَّهُم مَظِنَّةُ العنايةِ عندَ اللهِ، وأنَّ ما هم عليه هو الحقُّ»[2].

وقد دَلَّتْ هذه الآيةُ والَّتي قَبلَها؛ وهي قولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥] على أنَّ فتنةَ الأولادِ سببٌ في رَدِّ دعوةِ الرُّسُلِ.

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول تعالى ذِكرُهُ: وقالَ أهلُ الاستكبارِ على اللهِ مِن كلِّ قريةٍ أَرسَلْنَا فيها نَذِيرًا لأنبيائِها ورُسُلِها: نحنُ أكثرُ مِنكُم أموالًا وأولادًا وما نحنُ في الآخرةِ بمُعَذَّبِينَ؛ لأنَّ اللهَ لو لم يكن راضيًا ما نحن عليه مِنَ المِلَّةِ والعَمَلِ، لم يُخَوِّلْنَا الأموالَ والأولادَ، ولم يَبسُطْ لنا في الرِّزقِ، وإنَّما أعطانا ما أعطانا من ذلكَ؛ لِرِضَاهُ أعمالَنَا، وآثَرَنَا بما آثَرَنَا على غَيرِنا؛ لفَضلِنا، وزُلفَةٍ لنا عندَهُ»[3].

ويَدُلُّ على ذلكَ أيضًا قولُهُ تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ

(١) جامع البيان: (٢٣/ ٣٠١).
(٢) التحرير والتنوير: (٢٢/ ٢١٢ ـ ٢١٣).
(٣) جامع البيان: (١٩/ ٢٩٤).

﴿كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٩ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [التوبة: ٦٩، ٧٠].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى مُحَذِّرًا المنافقِينَ أن يُصِيبَهُم ما أصابَ مَن قبلَهم منَ الأُمَمِ المكذِّبَةِ ﴿قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾؛ أي: قُرَى قومِ لُوطٍ؛ فكُلُّهُم ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾؛ أي: بالحقِّ الواضحِ الجليِّ المُبِينِ لحقائقِ الأشياءِ؛ فكَذَّبُوا بها؛ فجَرَى عليهم ما قَصَّ اللهُ علينا؛ فأنتُم أعمالُكُم شَبِيهَةٌ بأعمالِهِم؛ اسْتَمْتَعْتُمْ بخَلَاقِكِم؛ أي: بنَصِيبِكُم منَ الدُّنيا؛ فتناوَلْتُمُوهُ على وجهِ اللَّذَّةِ والشَّهوةِ مُعرِضِينَ عنِ المرادِ منه، واسْتَعَنْتُمْ به على معاصِي اللهِ، ولم تَتَعَدَّ هِمَّتُكُم وإرادتُكُم ما خُوِّلْتُمْ منَ النِّعَمِ؛ كما فَعَلَ الَّذِينَ من قَبلِكُم ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾؛ أي: وخُضتُّمْ بالباطلِ والزُّورِ وجادَلْتُمْ بالباطلِ لِتُدْحِضُوا به الحقَّ؛ فهذه أعمالُهُم وعلومُهُم؛ استمتاعٌ بالخَلاقِ وخَوضٌ بالباطلِ؛ فاستَحَقُّوا مِنَ العقوبةِ والإهلاكِ ما استَحَقَّ مَن قَبلَهُم ممَّن فَعَلُوا كَفِعْلِهِم.

وأمَّا المؤمنونَ، فهم وإنِ استَمْتَعُوا بنَصِيبِهِم وما خُوِّلُوا منَ الدُّنيا، فإنَّهُ على وجهِ الاستعانةِ به على طاعةِ اللهِ، وأمَّا عُلُومُهُم، فهي علومُ الرُّسُلِ، وهي الوصولُ إلى اليقينِ في جميعِ المطالِبِ العاليةِ، والمجادَلةِ بالحقِّ لإدحاضِ الباطلِ»[1].

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٦٦٦ ـ ٦٦٧).

ومِن فتنةِ الأولادِ: أنَّهم قد يَصُدُّونَ عنِ الهجرةِ والجهادِ وطَلَبِ العلمِ وغيرِ ذلكَ من أُمورِ الخيرِ.

قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، وليسَ المرادُ من هذه العداوةِ ما يَفهَمُهُ كثيرٌ منَ النَّاسِ أنَّها عداوةُ البغضاءِ والمحادَّةِ؛ بل إنَّما هي عداوةُ المحبَّةِ الصَّادَّةِ للآباءِ عنِ الهجرةِ والجهادِ وتَعلُّمِ العلمِ والصَّدقةِ... وغيرِ ذلكَ من أُمورِ الدِّينِ وأعمالِ البرِّ»[1].

وقالَ تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا تقديمُهُم على الأموالِ في تَيْنِكَ الآيَتَيْنِ[2]؛ فلِحِكمَةٍ باهرةٍ؛ وهي: أنَّ براءةَ مُتضَمِّنَةٌ لوعيدِ مَن كانت تلكَ الأشياءُ المذكورةُ فيها أَحَبَّ إليه منَ الجهادِ في سبيلِ اللهِ، ومعلومٌ أنَّ تَصَوُّرَ المجاهدِ فِراقَ أهلِهِ وأولادِهِ وآبائِهِ وإخوانِهِ وعَشِيرتِهِ يَمنَعُهُ منَ الخُروجِ عنهم أكثرَ ممَّا يَمنَعُهُ مُفارقتَهُ مالَهُ، فإن تَصَوَّرَ مع

---

(١) عدة الصابرين: (ص٧٨).

(٢) يقصد: قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

هذا أن يُقتَلَ فيُفارِقَهُم فِراقَ الدَّهرِ نَفِرَتْ نفسُهُ عن هذه أكثرَ وأكثرَ»[١].

ومِن فِتنتِهِم أنَّ حُبَّهُم قد يَصُدُّ الإنسانَ عن طاعةِ اللهِ كصِلَةِ الرَّحِمِ ونحوِها، أو يُوقِعُهُ في معصيةِ ربِّهِ؛ كما سَبَقَ من قولِ مجاهدٍ[٢].

❁ ❁ ❁

(١) بدائع الفوائد: (١/ ١٣٢).

(٢) سبق ذكره. انظر: (ص١٥٠).

المطلب الثالث

فِتنةُ المُلكِ والجاهِ

والكلامُ على هذه الفتنةِ من جانبَينِ:

الجانبُ الأوَّلُ: أنَّ فتنةَ المُلكِ أوِ الجاهِ سببٌ في صَدِّ صاحبِها عنِ الحقِّ.

الجانبُ الثَّاني: أنَّ صاحبَ المُلكِ أوِ الجاهِ قد يكونُ فتنةً على قَومِهِ فيَصُدُّهُم عن دِينِ اللهِ.

الجانبُ الأوَّلُ: أنَّ فتنةَ المُلكِ أوِ الجاهِ سببٌ في صَدِّ صاحبِها عنِ الحقِّ:

وهذه الفتنةُ من أعظَمِ الفِتَنِ الَّتِي قد تَصُدُّ مَنِ افتُتِنَ بها عنِ الحقِّ؛ ولذلكَ فقد ذَكَرَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ أنَّ مِنَ الأسبابِ الَّتِي تَصُدُّ عن قَبولِ الحقِّ: الرِّياسَةَ والمُلكَ[1].

وإنَّ المتأمِّلَ في قِصَصِ الرُّسُلِ الَّتِي وَرَدَتْ في القرآنِ الكريمِ يَجِدُ أنَّ أكثرَ مَن يكونُ معارِضًا للرُّسُلِ هو مَن كانَ صاحبَ مُلكٍ أو جاهٍ وشَرَفٍ في قَومِهِ.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة: (١/ ١٥٣).

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: وما بَعَثْنَا إلى أهلِ قريةٍ نذيرًا يُنذِرُهُم بَأْسَنَا أن يَنزِلَ بهم على معصيتِهِم إيَّانا إلَّا قالَ كبراؤُها ورؤساؤُها في الضَّلالةِ كما قالَ قومُ فِرعونَ منَ المشركِينَ له: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾؛ مِنَ النِّذارةِ، وبُعِثْتُم به من توحيدِ اللهِ، والبراءةِ منَ الآلهةِ والأندادِ ﴿كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾»[1].

فأوَّلُ الرُّسُلِ إلى أهلِ الأرضِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا أرسَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى قومِهِ فأَمَرَهُم بعبادةِ اللهِ وَحدَهُ؛ فكانَ رَدُّ وُجَهاءِ القَومِ وأشرافِهِمُ الإنكارَ والإعراضَ.

قالَ تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٠].

قالَ الشَّيخُ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾؛ أي: الرُّؤساءُ الأغنياءُ المتبوعونَ الَّذينَ قد جرَتِ العادةُ باستكبارِهِم على الحقِّ، وعَدَمِ انقيادِهِم للرُّسُلِ، ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾، فلم يَكفِهِم - قَبَّحَهُمُ اللهُ - أنَّهم لم يَنقادُوا له، بلِ استَكْبَرُوا عن الانقيادِ له، وقَدَحُوا فيه أعظَمَ قَدْحٍ، ونَسَبُوهُ إلى الضَّلالِ، ولم يَكتَفُوا بمُجَرَّدِ الضَّلالِ حتَّى جَعَلُوهُ ضَلَالًا مُبِينًا واضحًا لكلِّ أحدٍ»[2].

وذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بشاعةَ قَولِهِم أيضًا في سورةِ هُودٍ وما حَمَلَهُمْ على ذلكَ إلَّا اغترارُهُم بشَرَفِهِمْ وَجَاهِهِمْ.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا

(١) جامع البيان: (١٩/٢٩٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/٥٥٤).

وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: فقالَ الكُبَراءُ من قَومِ نُوحٍ وأشرافِهِم وهمُ الملأُ الَّذين كَفَرُوا باللهِ وجَحَدُوا نُبُوَّةَ نَبِيِّهِم نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿مَا نَرَىٰكَ﴾، يا نوح ﴿إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾؛ يَعنُونَ بذلكَ أنَّهُ آدمِيٌّ مِثلُهُم في الخَلقِ والصُّورةِ والجِنسِ، كأنَّهُم كانوا مُنكِرِينَ أن يكونَ اللهُ يُرسِلُ مِنَ البَشَرِ رَسُولًا إلى خَلقِهِ، وقولُهُ: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾، يقولُ: وما نَراكَ اتَّبَعَكَ إلَّا الَّذينَ هم سِفْلَتُنا مِنَ النَّاسِ دونَ الكُبَرَاءِ والأشرافِ، فيما نَرَى ويَظهَرُ لَنا»[١].

ومِن قِصَصِ الرُّسُلِ الَّتِي قَصَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى علينا في كتابِهِ الكريمِ والَّتي تَبيِّنَ أنَّ المُلكَ سَبَبٌ لعَدَمِ قَبولِ الحقِّ قِصَّةُ المَلِكِ الَّذي حَاجَّ إبراهيمَ في رَبِّهِ.

قالَ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وما حَمَلَهُ على هذا الطُّغيانِ والكُفرِ الغَليظِ والمعاندةِ الشَّديدةِ إلَّا تَجبُّرُهُ، وطُولُ مُدَّتِهِ في المُلكِ؛ وذلكَ أنَّهُ يقالُ: إنَّهُ مَكَثَ أربعَمِائَةِ سَنَةٍ في مُلكِهِ؛ ولهذا قالَ: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾[٢]».

---

(١) جامع البيان: (١٢/ ٣٧٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (١/ ٦٨٦).

وكذلكَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ دعا قومَهُ إلى عبادةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فعارَضَهُ أهلُ الجاهِ من قَومِهِ وأنكَرُوا دعوتَهُ ووَصَفُوهُ بالسَّفَهِ والكَذِبِ.

قالَ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٥، ٦٦].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾؛ والمَلأُ هُمْ: الجمهورُ والسَّادةُ والقادةُ منهم، ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾؛ أي: في ضلالةٍ؛ حيثُ دَعَوْتَنا إلى تَركِ عبادةِ الأصنامِ، والإقبالِ إلى عبادةِ اللهِ وحدَهُ لا شريكَ له»[١].

وكذلكَ شُعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقد أرسَلَهُ اللهُ تَعَالَى إلى أهلِ مَدْيَنَ[٢] يَدعُوهُم إلى عبادتِهِ وحدَهُ فقامَ في وجهِهِ السَّادةُ منهم، وهَدَّدُوهُ إن لم يَرجِعْ إلى دِينِهِم بالإجلاءِ من وَطنِهِ هو والَّذينَ آمنوا معه.

قالَ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥]... إلى

(١) المصدر السابق: (٣/ ٤٣٤).

(٢) مدين: بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الياء المثناة من تحت وآخره نون، قال أبو زيد: مدين على بحر القلزم، محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل، وهي أكبر من تبوك، وبها البئر الَّتي استقى منها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لسائمة شعيب، قال: ورأيت هذه البئر مغطاة قد بني عليها بيت، وماء أهلها من عين تجري، ومدين اسم القبيلة وهي في الإقليم الثالث طولها إحدى وستون درجة وثلث وعرضها تسع وعشرون درجة، وهي مدينة قوم شعيب؛ سميت بمدين بن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. انظر: معجم البلدان: (٥/ ٩٢)، وتقع الآن في منطقة تبوك. انظر: دليل المواقع الجغرافية: (ص٥٦٤).

أن قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾؛ وهُم الأشرافُ والكُبراءُ منهم الَّذينَ اتَّبَعُوا أهواءَهُم وَلُهُوا بلَذَّاتِهِم؛ فلمَّا أتاهُمُ الحقُّ ورَأَوْهُ غيرَ موافِقٍ لأهوائِهِمُ الرَّدِيئَةِ، رَدُّوهُ واستَكْبَرُوا عنه؛ فقالُوا لِنَبِيِّهِم شُعَيبٍ ومَن معه منَ المؤمنِينَ المُستضعفِينَ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾؛ استَعمَلُوا قُوَّتَهُم السَّبُعِيَّةَ في مقابلةِ الحقِّ، ولم يُراعُوا دِينًا ولا ذِمَّةً ولا حَقًّا، وإنَّما راعَوْا واتَّبَعُوا أهواءَهُم وعقولَهُمُ السَّفِيهَةَ الَّتِي دَلَّتْهُم عَلَى هذا القَولِ الفاسدِ؛ فقالُوا: إمَّا أن تَرجِعَ أنتَ ومَن معكَ إلى دِينِنا، أو لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِن قَرْيَتِنا»[١].

وقد كانت قصَّةُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فِرعَونَ من أكثرِ القِصَصِ وُرُودًا في القُرآنِ الكريمِ؛ ذلكَ لِمَا اشْتَمَلَتْ عليه مِنَ العِبَرِ والعِظاتِ؛ وفي قصَّةِ مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرِدُ ذِكرُ فِرعَونَ الَّذي أُوتِيَ مُلكًا عظيمًا فاغْتَرَّ به وأُعجِبَ به؛ فكانَ ذلكَ سَبَبًا في تَجَبُّرِهِ وطُغيانِهِ، ورَدِّهِ لدَعوَةِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقد بَذَلَ في سبيلِ ذلكَ كُلَّ ما يَستَطِيعُ من أَجْلِ أن يُطفِئَ نُورَ الحقِّ الَّذي جاءَ به موسى.

ومِنَ الآياتِ الَّتِي دَلَّتْ على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢].

قالَ ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقولُهُ: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾؛ يقولُ: أفَلَا تُبصِرُونَ أيُّها القومُ ما أنا فيه مِنَ النَّعيمِ والخيرِ، وما فيه موسى مِنَ الفَقرِ

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٥٦٤).

وعِيِّ اللِّسانِ؛ افْتَخَرَ بمِلْكِهِ مِصرَ عَدُوُّ اللهِ، وما قد مُكِّنَ له منَ الدُّنيا استِدْرَاجًا منَ اللهِ له، وحَسِبَ أنَّ الَّذي هو فيه من ذلكَ نالَهُ بيَدِهِ وحَوْلِه، وأنَّ موسى إنَّما لم يَصِلْ إلى الَّذي هو فيه لِضَعْفِهِ؛ فنَسَبَهُ من أجْلِ ذلكَ إلى المهانةِ مُحْتَجًّا على جَهَلَةِ قَومِهِ بأنَّ موسى عليه السلام لو كانَ مُحِقًّا فيما يأتِي به منَ الآياتِ والعِبَرِ، ولم يكن ذلكَ سِحْرًا؛ لَأكْسَبَ نَفسَهُ منَ المُلكِ والنِّعمةِ مثلَ الَّذي هو فيه من ذلكَ؛ جَهْلًا باللهِ واغْتِرَارًا منه بإملائِهِ إيَّاهُ»[1].

وقالَ السَّعديُّ رحمه الله: «﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ﴾؛ مُستَعْلِيًا بباطِلِهِ قد غَرَّهُ مُلكُهُ، وأطْغَاهُ مالُهُ وجنودُهُ: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾؛ أي: ألَسْتُ المالِكَ لذلكَ المُتَصَرِّفَ فيهِ؟! ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾؛ أي: الأنهارُ المُنسَحِبَةُ منَ النِّيلِ في وسطِ القُصُورِ والبَساتِينِ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١﴾، هذا المُلكُ الطَّويلُ العريضُ، وهذا مِن جَهلِهِ البليغِ؛ حيثُ افْتَخَرَ بأمرٍ خارجٍ عن ذاتِهِ، ولم يَفخَرْ بأوصَافٍ حميدةٍ، ولا أفعالٍ سديدةٍ»[2].

وكذلكَ الملأُ من قَومِهِ؛ مَنَعَهُم مِنِ اتِّباعِ موسى اغترارُهُم بجاهِهِم وقُربِهِم من فرعونَ.

قالَ تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩، ١١٠].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رحمه الله: «أي: قال المَلأُ - وهمُ الجمهورُ والسَّادةُ من قَومِ فِرعَونَ - موافِقِينَ لقَولِ فِرعَونَ فيه بعدَ ما رَجَعَ إليه رُوعُهُ، واستَقَرَّ على

---

(١) جامع البيان: (٢٠/ ٦١٠ - ٦١١).

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٤/ ١٦١٤).

سَرِيرِ مَملَكَتِهِ بعدَ ذلكَ؛ قالَ للمَلأِ حَولَهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ١٠٩﴾ فوافَقُوهُ وقالُوا كمَقالَتِهِ، وتَشاوَرُوا في أمرِهِ، وماذا يَصنَعُونَ في أمرِهِ، وكيفَ تكونُ حِيلَتُهُم في إطفاءِ نُورِهِ وإخمادِ كَلِمَتِهِ...»[1].

وكذلكَ كانَ المُلكُ والجاهُ والشَّرَفُ سَبَبًا في عَدَمِ قَبولِ سادةِ قُريشٍ دعوةَ نَبِيِّنا محمَّدٍ ﷺ.

قالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وقولُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾؛ أي: ابْتَلَيْنا واختَبَرْنا وامْتَحَنَّا بعضَهُم ببعضٍ، ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ﴾؛ وذلكَ أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ كانَ غالبُ مَنِ اتَّبَعَهُ في أوَّلِ البَعثَةِ ضُعفاءَ النَّاسِ منَ الرِّجالِ والنِّساءِ والعَبيدِ والإماءِ، ولم يَتَّبِعْهُ مِنَ الأشرافِ إلا قليلٌ»[2].

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وقالُوا مُحتَقِرِينَ لِمَنْ يَرَوْنَهُم دُونَهُم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ﴾؛ فَمَنَعَهُم هذا مِنِ اتِّباعِ الحقِّ؛ لعَدَمِ زكائِهِم»[3].

هذه بعضُ القِصَصِ الَّتِي ذُكِرَتْ في القُرآنِ الكريمِ والَّتي تُبَيِّنُ أنَّ المُلكَ والجاهَ فِتنةٌ عظيمةٌ قد تكونُ سببًا في الإعراضِ عنِ الحقِّ.

وقد تَدخُلُ هذه الفِتنةُ العظيمةُ على مَنِ اتَّصَفَ بالعِلمِ فيُعرِضُ عنِ الحقِّ ويَضِلُّ ويُضِلُّ.

قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «كلُّ مَن آثَرَ الدُّنيا من أهلِ العِلمِ واستَحَبَّها

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٣/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦). (٢) تفسير القرآن العظيم: (٣/ ٢٦١).

(٣) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٤٧٧).

فلا بُدَّ أن يقولَ على اللهِ غيرَ الحقِّ في فتواهُ وحُكمِهِ، في خَبَرِهِ وإلزامِهِ؛ لأنَّ أحكامَ الرَّبِّ سبحانه كثيرًا ما تأتِي على خلافِ أغراضِ النَّاسِ؛ ولا سِيَّمَا أهلُ الرِّئاسَةِ والَّذينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ؛ فإنَّهُم لا تَتِمُّ لهم أغراضُهُم إلَّا بمُخالفةِ الحقِّ ودَفعِهِ كثيرًا؛ فإذا كانَ العالِمُ والحاكمُ محبَّيْنِ للرِّئاسةِ مُتَّبِعَيْنِ للشَّهَوَاتِ، لم يَتِمَّ لهما ذلكَ إلَّا بدَفعِ ما يُضادُّهُ منَ الحقِّ، ولا سِيَّمَا إذا قامَتْ له شُبهةٌ، فتَتَّفِقُ الشُّبهةُ والشَّهوةُ، ويَثُورُ الهَوَى، فيَخفَى الصَّوابُ، ويَنطَمِسُ وَجهُ الحقِّ، وإنْ كانَ الحقُّ ظاهِرًا لا خفاءَ به ولا شُبهةَ فيه؛ أقدَمَ على مخالفتِهِ، وقالَ: لي مَخرَجٌ بالتَّوبةِ»(١).

الجانبُ الثَّاني: أنَّ المَلِكَ أو صاحبَ الجاهِ قد يكونُ فِتنةً على قَومِهِ فيَصُدُّهُم عَنِ الحقِّ:

وهذه منَ الفتنِ الَّتِي يُبْتَلَى بها العبادُ؛ لِيَسْتَبِينَ الصَّادقُ في إيمانِهِ منَ الكاذبِ.

قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: ولقدِ اخْتَبَرْنَا الَّذِينَ مِن قَبلِهِم منَ الأُمَمِ ـ ممَّن أرسَلْنَا إليهِم رُسُلَنَا؛ فقالُوا مِثْلَ ما قالَتْهُ أُمَّتُكَ يا محمَّدُ ـ بأعدائِهِم، وتَمْكِينِنا إيَّاهُم مِن أذاهُم؛ كمُوسَى إذ أرسَلْنَاهُ إلى بنِي إسرائيلَ؛ فابتَلَيْنَاهُم بفِرعَونَ ومَلَئِهِم، وكعِيسَى إذ أرسَلْنَاهُ إلى بنِي إسرائيلَ؛ فابتَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَهُ بمَن تَوَلَّى عنه؛ فكذلكَ ابْتَلَيْنَا أتباعَكَ

---

(١) الفوائد: (ص١٥٦ ـ ١٥٧).

بِمُخالِفِيكَ من أعدائِكَ ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾؛ منهم في قِيلِهِم: آمَنَّا، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ③﴾؛ منهم في قِيلِهِم ذلكَ، واللهُ عالِمٌ بذلكَ منهم. قبلَ الاختبارِ، وفي حالِ الاختبارِ، وبعدَ الاختبارِ، ولكن معنَى ذلكَ: ولَيُظْهِرَنَّ اللهُ صِدقَ الصَّادقِ منهم في قِيلِهِ آمَنَّا باللهِ مِن كَذِبِ الكاذبِ منهم؛ بابتلائِهِ إيَّاهُ بعَدُوِّهِ، لِيَعْلَمَ صِدْقَهُ مِن كَذِبِهِ أولياؤُهُ»[1].

وقد ذَكَرَ اللهُ ﷻ أنَّ السَّادةَ والكُبراءَ سببٌ في إضلالِ أتباعِهِم وصَدِّهِم عنِ اتِّباعِ الحقِّ.

قالَ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: وقالَ الكافرونَ يومَ القيامةِ في جَهَنَّمَ: رَبَّنا إنَّا أَطَعْنَا أئِمَّتَنَا في الضَّلالةِ وكُبراءَنا في الشِّركِ، ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ⑥⑦﴾؛ يقولُ: فأزالُونا عن مَحَجَّةِ الحقِّ وطريقِ الهُدَى والإيمانِ بِكَ والإقرارِ بوَحْدَانِيَّتِكَ وإخلاصِ طاعَتِكَ في الدُّنيا»[2].

وقد ذَكَرَ اللهُ ﷻ قِصَصَ بعضِ المُلوكِ الَّذينَ صَدُّوا أقوامَهُم عنِ اتِّباعِ الهُدَى الَّذي جاءَتْ به الرُّسُلُ، ومِنهُم فرعونُ؛ فقد صَدَّ كثيرًا من قَومِهِ عنِ اتِّباعِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد دَلَّتْ على هذا آياتٌ كثيرةٌ.

منها: قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ⑨⑥ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٦، ٩٧].

قالَ ابنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «**والمعنَى**: أَرسَلْنَاهُ إليهِم لِيُؤمِنُوا باللهِ تعالى فصَدَّهُم فرعونُ فاتَّبَعُوا أمرَهُ، ولم يُؤمِنُوا وكَفَرُوا»[3].

---

(١) جامع البيان: (١٨/ ٣٥٧).
(٢) جامع البيان: (١٩/ ١٨٨ ـ ١٨٩).
(٣) المحرر الوجيز: (٥/ ١٣).

وقالَ تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقولُ جلَّ ثناؤُهُ: وجارَ فرعونُ بقَومِهِ عن سواءِ السَّبيلِ، وأَخَذَ بهم على غيرِ استقامةٍ، وذلكَ أنَّهُ سَلَكَ بهم طريقَ أهلِ النَّارِ؛ بأمرِهِم بالكُفرِ باللهِ، وتَكذِيبِ رُسُلِهِ ﴿وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾؛ يقولُ: وما سَلَكَ بهمُ الطَّريقَ المستقيمَ، وذلكَ أنَّهُ نَهاهُم عنِ اتِّباعِ رسولِ اللهِ موسى، والتَّصديقِ به؛ فأطاعُوهُ؛ فلم يَهدِهِمْ بأمْرِهِ إيَّاهُم بذلكَ، ولم يَهتَدُوا باتِّباعِهِم إيَّاهُ»[1].

وكذلكَ ذَكَرَ اللهُ ﷻ عن كثيرٍ منَ الأحبارِ والرُّهبانِ الَّذينَ هم أصحابُ جاهٍ في أقوامِهِم؛ أنَّهمُ استَغَلُّوا مَنزِلَتَهُم منَ النَّاسِ فصَدُّوهُم عن سبيلِ اللهِ.

قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

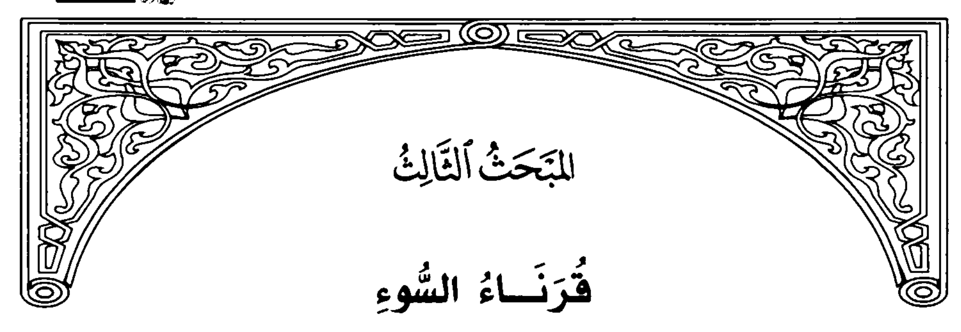
قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ﴾؛ أي: وهم مع أكلِهِمُ الحرامَ يَصُدُّونَ النَّاسَ عنِ اتِّباعِ الحقِّ، ويلْبِسُونَ الحقَّ بالباطلِ، ويُظهِرُونَ لِمَنِ اتَّبَعَهُم منَ الجَهَلَةِ أنَّهُم يَدعُونَ إلى الخيرِ، ولَيسُوا كما يَزعُمُونَ، بل هم دُعاةٌ إلى النَّارِ، ويومَ القيامةِ لا يُنصَرُونَ»[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) جامع البيان: (١٦/ ١٢٣ ـ ١٢٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٤/ ١٣٨).



المَبْحَثُ الثَّالِثُ

قُرَنَاءُ السُّوءِ

قَرِينُ الإنسانِ وصاحبُهُ له تأثيرٌ كبيرٌ عليهِ سواءٌ كانَ القَرِينُ صالحًا، أو كان فاسِدًا؛ فإن كانَ صالحًا، أَثَّرَ عليه في الخيرِ، وإن كانَ فاسِدًا، أَثَّرَ عليه في الشَّرِّ، والكلامُ هنا على قَرِينِ السُّوءِ الَّذي يَصُدُّ صاحبَهُ عنِ الحقِّ، وعن كُلِّ ما هو خيرٌ.

وقد ذَكَرَ اللهُ سبحانه في كتابِهِ المجيدِ عِظَمَ خَطَرِ قرينِ السُّوءِ وكيفَ أنَّهُ يُضِلُّ صاحبَهُ ويَصُدُّهُ عنِ الحقِّ.

قالَ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ[1] عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

قالَ ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وقولُهُ: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ

---

(١) ذكر أهل التفسير أن المعنيَّ بالظالم: عقبة بن أبي معيط، وقالوا: فلان هو أبي بن خلف، وقيل: فلان: أمية بن خلف، وقيل: فلان: الشيطان. انظر: جامع البيان: (١٧/ ٤٤٠ ـ ٤٤١).
لكن الآية تعم كل من اتخذ قرين سوء فأضله عن سبيل الله، قال ابن كثير: «وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي مُعَيط أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم»، وقال أيضًا: «وسواء في ذلك أمية بن خلف، أو أخوه أبي بن خلف، أو غيرهما» [يقصد بهذا: المعني بفلان]. انظر: تفسير القرآن العظيم: (٦/ ١٠٨).

إِذْ جَآءَنِي﴾؛ يقولُ جلَّ ثناؤُهُ ـ مُخبِرًا عن هذا النَّادم على ما سَلَفَ منه في الدُّنيا من معصيةِ ربِّهِ في طاعةِ خليلِهِ ـ: لقد أضَلَّنِي خليلي عنِ الإيمانِ بالقُرآنِ؛ وهو الذِّكْرُ ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ من عند الله؛ فَصَدَّنِي عنه»(١).

وذَكَرَ اللهُ سبحانه في كتابِهِ الكريم قصَّةَ ذلكَ الرَّجُلِ الَّذي أدخَلَهُ اللهُ الجنَّةَ؛ فذَكَرَ أنَّهُ كانَ له قَرِينٌ في الدُّنيا كادَ أن يَصُدَّهُ عن طاعةِ اللهِ ويُوقِعَهُ في الكُفرِ باللهِ والتَّكذيبِ بكتابِهِ.

قالَ تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥١ ـ ٥٧].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «لمَّا ذَكَرَ تعالى نَعِيمَهُم، وتمامَ سُرورِهِم بالمآكِلِ والمشارِبِ، والأزواجِ الحسانِ، والمجالسِ الحَسَنَةِ؛ ذَكَرَ تذاكُرَهُم فيما بَينَهُم، ومُطارحتَهم للأحاديثِ عنِ الأُمورِ الماضيةِ، وأنَّهُم ما زالُوا في المحادثةِ والتَّساؤُلِ حتَّى أفضَى ذلكَ بهم إلى أن قالَ قائلٌ منهم: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾؛ في الدُّنيا يُنكِرُ البَعثَ، ويَلُومُنِي على تَصدِيقِي به، ويقولُ لي: ﴿...أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾؛ أي: مُجازونَ بأعمالِنَا؟ أيْ: كيفَ تُصَدِّقُ بهذا الأمرِ البعيدِ الَّذي في غايةِ الاستغرابِ، وهو أنَّنَا إذا تَمَزَّقْنَا؛ فصِرْنَا تُرابًا وعِظامًا؛ أنَّنَا نُبعَثُ ونُعادُ، ثمَّ نُحاسَبُ ونُجازَى بأعمالِنا؟

أي: يقولُ صاحبُ الجنَّةِ لإخوانِهِ: هذه قِصَّتِي، وهذا خبري، أنا وقَرِينِي ما زلتُ أنا مُؤمِنًا مُصدِّقًا، وهو ما زالَ مُكَذِّبًا مُنكِرًا للبَعثِ حتَّى

---

(١) جامع البيان: (١٧/ ٤٣٩ ـ ٤٤٠).

مِتْنَا، ثم بُعِثْنَا؛ فوَصَلْتُ أنا إلى ما تَرَوْنَ منَ النَّعيم الَّذي أَخْبَرَتْنَا به الرُّسُلُ، وهو لا شَكَّ أنه قد وَصَلَ إلى العذابِ؛ ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾؛ لِنَنْظُرَ إليه؛ فنَزْدَادَ غِبْطَةً وسُرُورًا بما نحنُ فيه، ويكونُ ذلكَ رَأْيَ عَينٍ؟

والظَّاهرُ من حالِ أهلِ الجنَّةِ، وسُرورِ بعضِهِم ببعضٍ، وموافقةِ بعضِهِم بَعْضًا أَنَّهم أجابُوهُ لِمَا قالَ، وذَهَبُوا تَبَعًا له؛ للاطلاعِ على قرينِهِ؛ ﴿فَٱطَّلَعَ﴾، فَرَأى قرينَهُ، ﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾؛ أي: في وَسطِ العذابِ وغَمَرَاتِهِ، والعذابُ قد أحاطَ به؛ فقالَ له ـ لائمًا على حالِهِ، وشاكِرًا للهِ على نِعمَتِهِ أن نَّجَّاهُ مِن كَيدِهِ ـ: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾؛ أي: تُهلِكُنِي بسببِ ما أدخلتَ عَلَيَّ مِنَ الشُّبَهِ بزَعْمِكَ»[(١)].

وقالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وفي هذه الآيةِ عِبْرَةٌ مِنَ الحَذَرِ من قُرناءِ السُّوءِ، ووُجوبِ الاحتراسِ ممَّا يَدعُونَ إليه ويُزَيِّنُونَهُ منَ المَهالِكِ»[(٢)].

وممَّا يَدُلُّ على عظيمِ خَطَرِ قُرناءِ السُّوءِ الحديثُ الَّذي رواهُ المسيَّبُ رَحِمَهُ اللهُ: «أنَّهُ لمَّا حَضَرَتْ أبا طالبٍ الوفاةُ، جاءَهُ رسولُ اللهِ ﷺ؛ فوَجَدَ عندَهُ أبا جهلِ بنَ هشامٍ، وعبدَ اللهِ بنَ أبي أُمَيَّةَ بنِ المُغيرةِ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لأبي طالبٍ: (**يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**)؛ فقالَ أبو جهلٍ وعبدُ اللهِ بنُ أبي أُمَيَّةَ: يا أبا طالبٍ، أَتَرْغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ؟ فلم يَزَلْ رسولُ اللهِ ﷺ يَعرِضُها عليه ويعودانِ بتِلكَ المقالةِ حتَّى قال أبو طالبٍ آخِرَ ما كَلَّمَهُمْ: هو على مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ، وأَبَى أن يقولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (**أَمَا وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**)؛ فأنزَلَ اللهُ تعالى فيه: ﴿مَا كَانَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١٤٧٠ ـ ١٤٧١).
(٢) التحرير والتنوير: (٢٣/ ١١٩).

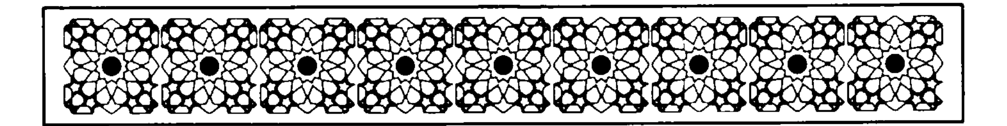
﴿لِلنَّبِيِّ﴾... الآية[(١)]»[(٢)].

حاوَلَ النَّبيُّ ﷺ أن يَنطِقَ عمُّه أبو طالبٍ بكلمةِ التَّوحيدِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؛ فيُحاجُّ له بها عندَ اللهِ، لكنَّ قُرناءَ السُّوءِ كانَ لهم أثَرٌ كبيرٌ في صَدِّهِ عن كلمةِ التَّوحيدِ.



(١) يعني: قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

(٢) صحيح البخاري: (١/٤٠٣ ـ ٤٠٤)، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إلـه إلا الله، حديث رقم: (١٣٦٠)، صحيح مسلم: (١/٣٣)، كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول: لا إلـه إلا الله، حديث رقم: (٣٩).

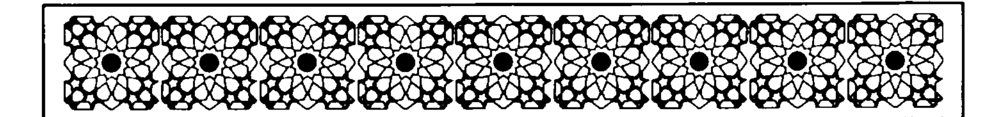


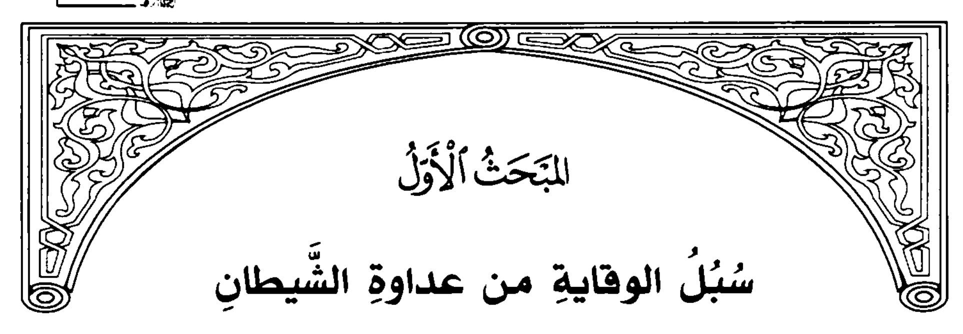
ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي

سُبُلُ الوِقايةِ منَ الأسبابِ الخارجيَّةِ

ويَحتَوِي على مَبحَثَيْنِ:

- المبحثُ الأوَّلُ: سُبُلُ الوقايةِ من عداوةِ الشَّيطانِ.
- المبحثُ الثَّاني: سُبُلُ الوقايةِ مِنَ الفتنِ





المَبْحَثُ الأَوَّلُ

سُبُلُ الوقايةِ من عداوةِ الشَّيطانِ

ويحتوي على تسعةِ مطالِبَ:

- المطلبُ الأَوَّلُ: اتِّخاذُهُ عَدُوًّا.
- المطلبُ الثَّاني: الإيمانُ باللهِ ﷻ.
- المطلبُ الثَّالثُ: التَّوكُّلُ على اللهِ ﷻ.
- المطلبُ الرَّابعُ: الإخلاصُ للهِ ﷻ.
- المطلبُ الخامسُ: طاعةُ اللهِ ﷻ.
- المطلبُ السَّادسُ: التَّحصُّنُ بذِكرِ اللهِ ﷻ.
- المطلبُ السَّابعُ: الاستعاذةُ باللهِ ﷻ منَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ.
- المطلبُ الثَّامنُ: الحَذَرُ من معصيةِ اللهِ ﷻ.
- المطلبُ التَّاسعُ: عدمُ اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ.

❁ ❁ ❁

المطلبُ الأوَّلُ

اتِّخاذُهُ عدُوًّا

تَبَيَّنَ فيما مَضَى ـ عندَ الكلامِ على عداوةِ الشَّيطانِ لبَنِي آدَمَ ـ شدَّةُ عداوتِهِ، وأنَّه: ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨] لِبَنِي آدَمَ قد أبانَ عداوتَهُ لهم؛ فلذلكَ أَمَرَ اللهُ ﷻ باتِّخاذِهِ عَدُوًّا، وإنزالِهِ منَ النَّفسِ منزلةَ العَدُوِّ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾، الَّذِي نَهَيْتُكُم أيُّها النَّاسُ أن تَغتَرُّوا بغُرورِهِ إيَّاكُم باللهِ ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ﴾؛ يقولُ: فأَنزِلُوهُ من أنفُسِكُم منزلةَ العَدُوِّ منكم، واحذَرُوهُ؛ بطاعةِ اللهِ واستغشاشِكُم إيَّاهُ، حِذْرَكُمْ مِن عَدُوِّكُمُ الَّذِي تخافونَ غائلتَهُ على أنفُسِكُم؛ فلا تُطِيعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِهِ؛ فإنَّهُ إنَّما ﴿يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ﴾؛ يَعنِي: شِيعَتَهُ، ومَن أطاعَهُ إلى طاعتِهِ والقَبولِ منه، والكفرِ باللهِ؛ ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾؛ يقولُ: لِيَكُونُوا منَ المُخَلَّدِينَ في نارِ جَهَنَّمَ الَّتِي تَتَوَقَّدُ على أهلِهَا»[١].

وقالَ ابنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللهُ، في معنَى الآيةِ ـ: «والأمرُ باتِّخاذِهِ عَدُوًّا تَنْبِيهٌ على استفراغِ الوُسعِ في محاربتِهِ ومجاهدتِهِ كأنَّهُ عَدُوٌّ لا يَفْتُرُ ولا يَقصُرُ عن محاربةِ العبدِ على عددِ الأنفاسِ»[٢].

---

(١) جامع البيان: (١٩/ ٣٣١).

(٢) زاد المعاد: (٣/ ٦).

وعداوةُ الشَّيطانِ مُستمرَّةٌ لا تَنقَطِعُ، ومكائدُهُ لا تُؤمَنُ؛ لِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ باتِّخاذِهِ عَدُوًّا، بل يجبُ أن تكونَ معاداتُهُ مُستمِرَّةً لا يَتَخَلَّلُها عَفْوٌ ولا صَفْحٌ.

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾؛ أي: لِتَكُنْ منكم عداوتُهُ على بالٍ، ولا تُهمِلُوا محاربتَهُ كلَّ وقتٍ، فإنَّهُ يَراكُم وأنتم لا تَرَوْنَهُ[1]، وهو دائمًا لكم بالمِرصادِ»[2].

وقالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللهُ: «فعداوةُ الشَّيطانِ لمَّا كانت جِبِلِّيَّةً لا يُرجَى زوالُها مع مَن يَعفُو عنه، لم يأمُرِ اللهُ إلَّا باتِّخاذِهِ عَدُوًّا؛ لأنَّهُ إذا لم يُتَّخَذْ عَدُوًّا لم يُراقِبْ المُسلِمُ مكائِدَهُ ومُخادعتَهُ»[3].

وقد أنكَرَ اللهُ ﷻ على مَنِ اتَّخذَ الشَّيطانَ وذُرِّيَّتَهُ أولياءَ مِن دونِهِ؛ فكانَ الواجبُ عليهِمُ اتِّخاذُهُ عَدُوًّا.

قالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «يُخبِرُ تعالى عن عداوةِ إبليسَ لآدَمَ وذُرِّيَّتِهِ، وأنَّ اللهَ أَمَرَ الملائكةَ بالسُّجودِ لآدَمَ؛ إكرامًا وتعظيمًا، وامتِثَالًا لأمرِ اللهِ؛ فامتَثَلُوا ذلكَ؛ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، وقالَ: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، وقالَ: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]؛

---

(١) يشير لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وهذا من دقة ربطه للآيات ببعضها رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/١٤٢٨). (٣) التحرير والتنوير: (٢٢/٢٦١).

فتَبَيَّنَ بهذا عداوتُهُ للهِ ولأبيكم ولكم؛ فكيفَ تَتَّخِذُونَهُ وذُرِّيَّتَهُ؛ أيِ: الشَّياطينَ ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾؛ أيْ: بِئْسَ ما اختارُوا لأنفُسِهِم من ولايةِ الشَّيطانِ الَّذي لا يَأمُرُهُم إلَّا بالفحشاءِ والمُنكَرِ عن وَلايةِ الرَّحمٰنِ الَّذي كُلُّ السَّعادةِ والفَلاحِ والسُّرُورِ في وَلايتِهِ، وفي هذه الآيةِ: الحَثُّ على اتِّخاذِ الشَّيطانِ عَدُوًّا، والإغراءُ بذلكَ، وذِكْرُ السَّببِ المُوجِبِ لِذَلِكَ، وأنَّهُ لا يَفعَلُ ذلكَ إلَّا ظالمٌ، وأيُّ ظُلمٍ أعظَمُ من ظُلمِ مَنِ اتَّخذَ عَدُوَّهُ الحقيقيَّ وَلِيًّا، وتَرَكَ الوَلِيَّ الحَمِيدَ!»[١].

ولْيَعْلَمِ العبدُ أنَّهُ إذا اتَّخذَ الشَّيطانَ عَدُوًّا، كانَ هذا من تحقيقِ العبوديَّةِ للهِ ﷻ، وهي أَحَبُّ الأُمورِ إلى اللهِ ﷻ.

قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «ومنها: أن نَفْسَ اتِّخاذِهِ عَدُوًّا مِن أكبَرِ أنواعِ العبوديَّةِ وأَجَلِّهَا؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، فاتِّخاذُهُ عَدُوًّا أنفَعُ شَيءٍ للعَبدِ، وهو محبوبٌ للرَّبِّ»[٢].

فاتِّخاذُ الشَّيطانِ عَدُوًّا منَ السُّبُلِ العظيمةِ للوقايةِ من مكائدِ الشَّيطانِ، وقد يَدخُلُ ما يأتي من سُبُلٍ في اتِّخاذِهِ عَدُوًّا، ولكن لِوُرُودِهِ صَرِيحًا في القُرآنِ ذُكِرَ على أنه أحدُ السُّبُلِ.

❊ ❊ ❊

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ٩٦٧).
(٢) مدارج السالكين: (٢/ ١٩٧)، وقد ذكر هذا في سياق المحاب الَّتي ذكرها في الحكمة من خلق الشيطان.

المَطْلَبُ الثَّانِي

الإيمانُ باللهِ ﷻ

الإيمانُ باللهِ من أعظَمِ السُّبُلِ الَّتِي يَتَحَصَّنُ بها العبدُ من مكائدِ الشَّيطانِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

قالَ القُرطُبيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾؛ أي: بالإغواءِ والكُفرِ»[١]؛ بل إنَّ الإيمانَ يُضعِفُ كَيْدَ الشَّيطانِ ويُوهِنُهُ.

قالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللهُ: «فالمعنى: أنَّ الإيمانَ مَبْدَأٌ أصيلٌ لِتَوْهِينِ سُلطانِ الشَّيطانِ في نفسِ المؤمنِ، فإذا انضَمَّ إليه التَّوكُّلُ على اللهِ، انْدَفَعَ سُلطانُ[٢] الشَّيطانِ عنِ المُؤمِنِ المُتوكِّلِ»[٣].

ومِنَ الآياتِ الَّتِي دَلَّتْ على هذا المعنى: قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «إخبارٌ بتأييدِهِ تعالى عبادَهُ المؤمنِينَ، وحِفْظِهِ إيَّاهُم، وحراستِهِ لهم مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ؛ ولهذا قالَ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٢/٤٢٦).

(٢) ذكر ابن القيم أنه لا سلطان له عليهم لا من جهة القدرة ولا من جهة الحجة. انظر: إغاثة اللهفان: (١/١٩٣).

(٣) التحرير والتنوير: (١٤/٢٧٩).

﴿وَكِيلًا ۝٦٥﴾؛ أي: حافظًا ومؤيدًا وناصرًا»[(١)][(٢)].

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠].

قالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ووقوعُ «شَيْئًا» ـ وهو نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ ـ يُفِيدُ: عمومَ نفيِ كلِّ ضُرٍّ منَ الشَّيطانِ؛ أيِ: انتَفَى كلُّ شيءٍ من ضُرِّ الشَّيطانِ عنِ المؤمنِينَ؛ فيَشمَلُ ضُرَّ النَّجوَى وضُرَّ غيرِها»[(٣)].



---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٥/ ٩٥).

(٢) قد يُشكِلُ على هذا تَسَلُّطُ الشَّيطانِ على آدَمَ وحوَّاءَ، وتَسَلُّطُهُ على بعضِ الصَّحابةِ، والجوابُ كما قال الإمامُ أحمدُ: أما قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠] يقولُ: عبادي الذين استخلصهم الله لدينه ليس لإبليس عليهم سلطان أن يضلهم في دينهم، أو عبادة ربهم، ولكنه يصيب منهم من قبل الذنوب، فأما الشرك فلا يقدر إبليس أن يضلهم عن دينهم لأن الله سبحانه استخلصهم لدينه. انظر: الرد على الزنادقة والجهمية: (ص١٩١).

(٣) التحرير والتنوير: (٢٨/ ٣٥).

المَطلبُ الثَّالِثُ

التَّوكُّلُ على اللهِ ﷻ

التَّوكُّلُ على اللهِ ﷻ منَ الأُمورِ الَّتِي يَنبَغِي للعَبدِ أن يَحرِصَ عليها، سواءٌ في أُمورِ دِينِهِ، أو في أُمورِ دُنياهُ؛ فإنَّ العَبدَ إذا تَوكَّلَ على اللهِ؛ كَفَاهُ.

قالَ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: ٣].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: في أمرِ دِينِهِ ودُنياهُ؛ بأن يَعتَمِدَ على اللهِ في جَلْبِ ما يَنفَعُهُ، ودَفْعِ ما يَضُرُّهُ، ويَثِقَ به في تَسهِيلِ ذلكَ؛ ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾؛ أي: كافيهِ الأمرَ الَّذِي تَوكَّلَ عليه فيهِ، وإذا كانَ الأمرُ في كفالةِ الغَنِيِّ القويِّ العزيزِ الرَّحيمِ، فهو أقرَبُ إلى العبدِ من كلِّ شيءٍ، ولكن رُبَّمَا أن الحكمةَ الإلٰهيَّةَ اقتَضَتْ تأخيرَهُ إلى الوقتِ المناسِبِ له؛ فلهذا قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾؛ أي: لا بُدَّ من نُفوذِ قضائِهِ وقَدَرِهِ، ولكنَّهُ قَدْ جَعَلَ لِكُلِ شَيْءٍ قَدْرًا؛ أي: وَقْتًا ومِقْدَارًا، لا يَتَعَدَّاهُ، ولا يَقصُرُ عنه»[١].

ولهذا فإنَّ من أعظَمِ السُّبُلِ الَّتِي يَعتَصِمُ بها العبدُ منَ الشَّيطانِ: التَّوكُّلَ على اللهِ ﷻ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٤/١٨٤٦).

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فإنَّ الشَّيطانَ ﴿لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾؛ أي: تَسلُّطٌ؛ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وَحدَهُ لا شَريكَ لَهُ: ﴿يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾؛ فَيَدفَعُ اللهُ عنِ المؤمنِينَ المُتوكِّلِينَ عليه شَرَّ الشَّيطانِ، ولا يُبقِي له عليهِم سبيلٌ»(١).

وقالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللهُ: «**فالمعنَى**: أنَّ الإيمانَ مَبدَأٌ أَصِيلٌ لِتَوْهِينِ سُلطانِ الشَّيطانِ في نَفسِ المؤمنِ، فإذا انضَمَّ إليهِ التَّوكُّلُ على اللهِ، انْدَفَعَ سُلطانُ الشَّيطانِ عنِ المؤمِنِ المُتوكِّلِ»(٢).

ومِنَ الآياتِ الَّتِي دَلَّتْ على هذا المعنَى ـ: قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠].

قال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «**أي**: إنَّما النَّجوَى ـ وهي المُسارَّةُ ـ حيثُ يَتَوَهَّمُ مُؤمنٌ بها سُوءًا ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾؛ **يَعنِي**: إنَّما يَصدُرُ هذا من المُتناجِينَ عن تَسويلِ الشَّيطانِ وتَزْيِينِهِ، ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾؛ **أي**: لِيَسُوءَهُم، وليسَ ذلكَ بضَارِّهِم شيئًا إلا بإذنِ اللهِ، ومَن أَحَسَّ من ذلكَ شيئًا فَلْيَسْتَعِذْ باللهِ، ولْيَتَوَكَّلْ على اللهِ؛ فإنَّه لا يَضُرُّهُ شيءٌ بإذنِ اللهِ»(٣).

وقالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللهُ: «ولهذا ذَيَّلَ بقولِهِ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾؛ لأنَّهُم إذا تَوكَّلُوا على اللهِ تَوكُّلًا حَقًّا؛ بأنِ اسْتَفرَغُوا وُسْعَهُم في التَّحرُّزِ من كَيْدِ الشَّيطانِ، واسْتَعانُوا باللهِ على تَيْسِيرِ ذلكَ لهم، فإنَّ اللهَ يَحفَظُهُم من كَيدِ الشَّيطانِ؛ قالَ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]»(٤).

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٩٠١).
(٢) التحرير والتنوير: (١٤/ ٢٧٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم: (٨/ ٤٤).
(٤) التحرير والتنوير: (٢٨/ ٣٦).

المَطْلَبُ الرَّابِعُ

الإخلاصُ للهِ ﷻ

إنَّ الإخلاصَ يَمنَعُ مِن تسلُّطِ الشَّيطانِ على العَبدِ، ولذا اهتَمَّ السَّلَفُ رحمهم الله تعالى به، **ولهم في تعريفِهِ كلماتٌ نوادِرُ؛ منها:**

قال سَهلٌ[(١)]: «أن يكونَ سُكونُ العبدِ وحَركاتُهُ للهِ تعالى»[(٢)]، وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ[(٣)]: «الإخلاصُ صِدْقُ النِّيَّةِ مع اللهِ»[(٤)]، وقالَ أبو عُثمانَ[(٥)]: «الإخلاصُ نِسيانُ رُؤيَةِ الخَلقِ لِدَوَامِ النَّظَرِ إلى الخالقِ»[(٦)].

فالإخلاصُ سَدٌّ مَنِيعٌ في وَجهِ الشَّيطانِ لا يَتَمَكَّنُ معه من إغواءِ العَبدِ، وقد عَلِمَ ذلكَ إبليسُ.

---

(١) **سهل بن عبد الله بن يونس، الصوفي الزاهد**: له كلمات نافعة ومواعظ حسنة، توفي سنة: (٢٨٣هـ). **انظر**: سير أعلام النبلاء: (١٣/ ٣٣٠).

(٢) إحياء علوم الدين: (٤/ ٣٣١).

(٣) **إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر**: القدوة الإمام العارف، سيد الزهاد، حدَّث عن أبيه، ومحمد بن زياد الجمحي، وأبي إسحاق السبيعي، وحدَّث عنه: رفيقه سفيان الثوري، وشقيق البلخي، توفي سنة: (١٦٢). **انظر**: سير أعلام النبلاء: (٧/ ٣٨٧ ـ ٣٩٦).

(٤) إحياء علوم الدين: (٤/ ٣٣١).

(٥) **أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور النيسابوري الحيري الصوفي المحدِّث الواعظ**: سمع من محمد بن مقاتل الرازي، وموسى بن نصر، حدَّث عنه الرئيس أبو عمرو أحمد بن نصر، توفي سنة: (٢٩٨هـ). **انظر**: سير أعلام النبلاء: (١٤/ ٦٤).

(٦) الجامع لشعب الإيمان: (٩/ ١٨٧).

قالَ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وعَنَى بقولِهِ: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لَأُحَسِّنَنَّ لهم مَعاصِيَكَ، ولَأُحَبِّبَنَّهَا إليهم في الأرضِ، ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩﴾؛ يقولُ: ولأُضِلَّنَّهُم عن سبيلِ الرَّشادِ، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾؛ يقولُ: إلَّا مَن أَخْلَصْتَهُ بتَوْفِيقِكَ فهَدَيْتَهُ؛ فإنَّ ذلكَ ممَّنْ لا سُلطانَ لي عليهِ ولا طاقةَ لي بِهِ. وقد قُرِئَ: «إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ»[1] فمَن قَرَأَ ذلكَ كذلكَ؛ فإنَّهُ يَعنِي به: إلَّا مَن أَخْلَصَ طَاعَتَكَ؛ فإنَّهُ لا سبيلَ لي عليهِ»[2].

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩﴾؛ أي: أَصُدُّهُم كُلَّهُم عنِ الصِّراطِ المستقيمِ، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾؛ أي: الَّذينَ أَخْلَصْتَهُم وَاجْتَبَيْتَهُم لإِخْلاصِهِم وإيمانِهِم وتَوَكُّلِهِم»[3].

ووَرَدَ هذا المعنَى في سورةِ ص؛ قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «فعَلِمَ عَدُوُّ اللهِ أنَّ مَنِ اعْتَصَمَ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وأخلَصَ له، وتَوَكَّلَ عليهِ، لا يَقدِرُ على إغوائِهِ وإضلالِهِ، وإنَّما يكونُ له السُّلطانُ على مَن تَوَلَّاهُ وأشرَكَ مع اللهِ؛ فهؤلاءِ رَعِيَّتُهُ وهو وَلِيُّهُم وسُلطانُهُم ومَتْبُوعُهُم»[4].

---

(١) قرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف بفتح اللام، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر ويعقوب بكسر اللام. انظر: إتحاف فضلاء البشر: (٢/ ١٧٥).

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: (١٤/ ٦٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٨٦٢). (٤) إغاثة اللهفان: (١/ ١٩٣).

فالإخلاصُ أمرٌ عظيمٌ يجبُ على العبدِ الحِرصُ عليه؛ حتَّى يَسلَمَ من إضلالِ الشَّيطانِ، وإلَّا اسْتَوْلَتْ على قَلبِهِ الشَّياطينُ.

قالَ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «ومَن لم يكن خالصًا للهِ عَبْدًا له قد صارَ قلبُهُ مُعَبَّدًا لرَبِّهِ وَحدَهُ لا شَرِيكَ له، بحيثُ يكونُ اللهُ أحَبَّ إليهِ من كلِّ ما سواهُ، ويكونُ ذَلِيلًا له خاضعًا وإلَّا اسْتَعْبَدَتْهُ الكائناتُ، واسْتَوْلَتْ على قلبِهِ الشَّياطينُ، وكانَ مِنَ الغاوِينَ إخوانِ الشَّياطِينِ، وصارَ فيه مِنَ السُّوءِ والفَحْشَاءِ ما لا يَعلَمُهُ إلَّا اللهُ، وهذا أمرٌ ضروريٌّ لا حِيلَةَ فيه، فالقَلبُ إن لم يكن حَنِيفًا مُقبِلًا على اللهِ مُعرِضًا عمَّا سِواهُ وإلَّا كانَ مُشرِكًا، قالَ تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠] إلى قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]»[1].

فالسَّعادةُ والنَّجاةُ في المحافظةِ على الإخلاصِ.

قالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «فما أعظَمَ سعادَةَ مَن دَخَلَ هذا الحِصنَ وصارَ داخِلَ اليزكِ[2]، لقد أوَى إلى حِصنٍ لا خَوفَ على مَن تَحَصَّنَ به، ولا ضَيْعَةَ على مَن أوَى إليهِ، ولا مَطمَعَ للعَدُوِّ في الدُّنُوِّ إليه منهُ؛ و: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤]»[3].

❁ ❁ ❁

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٢١٦ ـ ٢١٧).

(٢) اليزك: تَزَكَّكَ تزكُّكًا إذا أخذ عُدَّته، وهو في زِكَّتِهِ وشِكَّتِهِ؛ أي: في سلاحِهِ. انظر: لسان العرب: (٦/ ٦٣).

(٣) بدائع الفوائد: (٢/ ٧٧٠).

المَطْلَبُ الخَامِسُ

طاعةُ اللهِ ﷻ

طاعةُ اللهِ ﷻ هي سببُ السَّعادةِ في الدُّنيا والآخرةِ، وهي سببُ الفَوزِ العظيمِ في يومِ الجزاءِ والحسابِ؛ قالَ تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

ومِنَ الأُمورِ العظيمةِ الَّتِي تَمنَعُ مِن تَسلُّطِ الشَّيطانِ على العَبدِ: طاعةُ اللهِ ﷻ؛ وقدِ استَدَلَّ بعضُ العلماءِ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]؛ على اتِّخاذِهِ عَدُوًّا بطاعةِ اللهِ ﷻ.

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾؛ الَّذي نَهَيْتُكم أيُّها النَّاسُ أن تَغتَرُّوا بغُرورِهِ إيَّاكُم باللهِ، ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ يقول: فأنزِلُوهُ مِن أنفُسِكُم مَنزِلَةَ العَدُوِّ منكم، واحذَرُوهُ ـ بطاعةِ اللهِ واستِغْشَاشِكُم إيَّاهُ ـ حِذْرَكُمْ من عَدُوِّكُمُ الَّذي تخافُونَ غائلتَهُ على أنفُسِكُم؛ فلا تُطيعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا خطواتِهِ»[1].

وذَكَرَ ابنُ القَيِّمِ أنَّ المُؤمِنَ يَطرُدُ شَيطانَهُ بالطَّاعةِ؛ قالَ رَحِمَهُ اللهُ: «وفي أَثَرٍ عن بعضِ السَّلَفِ: إنَّ المُؤمِنَ يُنْضِي[2] شَيْطَانَهُ كَمَا يُنْضِي الرَّجُلُ

(١) جامع البيان: (١٩/ ٣٣١).

(٢) يُنضِي: النِّضْوُ منَ الإبلِ: الذي أنضته الأسفار؛ كأنه برَته وجرَّدته من اللحم. انظر: معجم مقاييس اللغة: (٥/ ٤٣٧).

بَعِيرَهُ في السَّفرِ(١)؛ لأنَّهُ كُلَّمَا اعْتَرَضَهُ، صَبَّ عليهِ سِياطَ الذِّكْرِ والتَّوَجُّهِ والاستغفارِ والطاعةِ؛ فشَيطانُهُ معه في عذابٍ شديدٍ، ليسَ بمَنزلةِ شَيطانِ الفاجرِ الَّذي هو معه في راحةٍ ودَعَةٍ؛ ولهذا يكونُ قَوِيًّا عاتِيًا شَدِيدًا؛ فمَن لم يُعذِّبْ شَيطانَهُ في هذه الدارِ بذِكرِ اللهِ تعالى وتوحيدِهِ واستغفارِهِ وطاعتِهِ، عَذَّبَهُ شَيطانُهُ في الآخرةِ بعذابِ النَّارِ؛ فلا بُدَّ لِكُلِّ أحدٍ أن يُعَذِّبَ شَيطانَهُ أو يُعَذِّبَهُ شَيطانُهُ»(٢).

وممَّا يُذهِبُ كَيْدَ الشَّيطانِ وإلقاءَهُ العداوةَ بينَ المؤمنِينَ: القَوْلُ الحَسَنُ، وهو من طاعةِ اللهِ ﷻ؛ ولذلكَ أَمَرَ اللهُ سبحانَهُ وتعالى به.

قالَ تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا أمْرٌ بكُلِّ كلامٍ يُقَرِّبُ إلى اللهِ؛ من قراءةٍ وذِكرٍ وعِلمٍ، وأمْرٍ بمَعرُوفٍ، ونَهيٍ عن مُنكَرٍ، وكلامٍ حَسَنٍ لطيفٍ مع الخَلقِ على اختلافِ مَراتِبِهِم ومَنازِلِهِم، وأنَّهُ إذا دارَ الأمرُ بينَ أمرَينِ حَسَنَيْنِ، فإنَّهُ يُؤمَرُ بإيثارِ أحسَنِهِما إن لم يُمكِنِ الجَمعُ بَينَهُما، والقولُ الحَسَنُ داعٍ لكلِّ خُلُقٍ جميلٍ وعَمَلٍ صالحٍ؛ فإنَّ مَن مَلَكَ لِسانَهُ، مَلَكَ جميعَ أمرِهِ، وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: يَسعَى بينَ العبادِ بما يُفسِدُ عليهِم دِينَهُم ودُنياهُم؛ فدواءُ هذا أن لا يُطِيعُوهُ في الأقوالِ غيرِ الحَسَنَةِ الَّتِي يَدعُوهُم إليها، وأن يَلِينُوا فيما بَينَهم؛ لِيَنْقَمِعَ الشَّيطانُ الَّذي يَنزَغُ بَينَهُم؛ فإنَّهُ عَدُوُّهُمُ الحقيقيُّ الَّذي يَنبَغِي لهم أن يُحارِبُوهُ؛ فإنَّهُ يَدعُوهُم ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]»(٣).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده مرفوعًا إلى النبي ﷺ: (١٤/ ٥٠٤) حديث رقم: (٨٩٤٠)، بلفظ: (**إِنَّ المُؤْمِنَ لَيُنْضِي شَيَاطِينَهُ كَمَا يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي السَّفَرِ**)، قال الألباني: «حسن». انظر: السلسلة الصحيحة: (٧/ ١٥٦٣)، ولم أقف عليه من كلام السلف.

(٢) بدائع الفوائد: (٢/ ٧٩٢ ـ ٧٩٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٩٢٥).



التَّحصُّنُ بذِكرِ اللهِ ﷻ

ذِكرُ اللهِ ﷻ مِنَ الأُمورِ العظيمةِ الَّتِي يَتَحَصَّنُ بها العبدُ من عدوِّهِ الشَّيطانِ، فلِلذِّكرِ أهميَّةٌ عظيمةٌ في حفظِ العبدِ منَ الشَّيطانِ.

قالَ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ الَّذي قد عُلِمَ بالسَّمعِ والعَقلِ أنَّه إذا فَرَّغَ قلبَهُ من كلِّ شيءٍ، حَلَّتْ فيه الشَّياطينُ، ثمَّ تَنَزَّلَتْ عليه الشَّياطينُ؛ كما كانت تَتَنَزَّلُ على الكُهَّانِ؛ فإنَّ الشَّيطانَ إنَّما يَمنَعُهُ منَ الدُّخولِ إلى قلبِ ابنِ آدَمَ ما فيه من ذِكرِ اللهِ الَّذي أَرسَلَ به رُسُلَهُ؛ فإذا خَلَا من ذلكَ، تَوَلَّاهُ الشَّيطانُ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧]»(١).

تَدُلُّ هذه الآيةُ على خَطَرِ الإعراضِ عن ذِكرِ اللهِ.

قالَ ابنُ جُزَيٍّ رَحِمَهُ اللهُ: «ومعنَى الآيةِ: أنَّ مَن غَفَلَ عن ذِكرِ اللهِ، يَسَّرَ اللهُ له شَيطانًا يكونُ له قَرِينًا؛ فتِلكَ عقوبةٌ على الغَفلةِ عنِ الذِّكرِ بتَسلِيطِ الشَّيطانِ؛ كما أنَّ مَن داوَمَ على الذِّكرِ، تباعَدَ عنه الشَّيطانُ»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٣٩٩).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل: (٢/ ٣١٣).

وقد وَرَدَ في السُّنَّةِ[١] ما يَدُلُّ على أهميَّةِ الذِّكرِ وأنَّهُ يَحفَظُ من الشَّيطانِ؛ من ذلك ما وَرَدَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: (**إِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا أَن يَقُومَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ...**) ومنها قولُهُ: (**وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا، حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ، فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ؛ كَذَلِكَ العَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ**)[٢].

قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «فلَو لم يكن في الذِّكرِ إلَّا هذه الخَصلةُ الوَاحِدَةُ، لكانَ حَقِيقًا بالعبدِ أن لَّا يَفتُرَ لسانُهُ مِن ذِكرِ اللهِ تعالى، وأن لَّا يَزالَ لَهِجًا بذِكرِهِ؛ فإنَّهُ لا يُحرِزُ نَفسَهُ من عَدُوِّهِ إلَّا بالذِّكرِ ولا يَدخُلُ عليه العَدُوُّ إلَّا من بابِ الغَفلةِ؛ فهو يَرصُدُهُ، فإذا غَفَلَ، وَثَبَ عليه وافْتَرَسَهُ، وإذا ذَكَرَ اللهَ تعالى، انْخَنَسَ عَدُوُّ اللهِ تعالى وتصاغَرَ وانْقَمَعَ حتَّى يكونَ كالوَصَعِ[٣] وكالذُّبابِ؛ ولهذا سُمِّيَ الوَسْواسَ الخنَّاسَ؛ أي: يُوَسْوِسُ في الصُّدورِ، فإذا ذُكِرَ اللهُ تعالى، خَنَسَ؛ أيْ: كَفَّ وَانْقَبَضَ»[٤].

والأذكارُ الَّتي وَرَدَ النَّصُّ بأنَّها تَحفَظُ منَ الشَّيطانِ كثيرةٌ؛ منها:

---

(١) ذكر ابن مفلح في كتاب: «مصائب الإنسان في مصائد الشيطان» أحاديثَ كثيرةً تدل على أهمية الذكر في حفظ العبد من الشيطان. **انظر**: مصائب الإنسان: (ص٩٢ - ١٠٥).

(٢) سنن الترمذي: (١٣٦/٥)، أبواب الأمثال عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء مثل الصلاة والصيام والصدقة، حديث رقم: (٣٠٧٩)، قال الألباني: «صحيح». **انظر**: صحيح سنن الترمذي: (١٤٣/٣).

(٣) **الوصع**: طائر أصغر من العصفور. **انظر**: الصحاح: (١٢٩٩/٣).

(٤) الوابل الصيب: (ص٨٨).

أوَّلًا: القُرآنُ الكريمِ:

يقولُ ابنُ الجَوزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «لا يزالُ الإنسانُ صريعًا تحتَ الشَّيطانِ حتَّى يَذكُرَ اللهَ ويَتلُوَ القُرآنَ؛ فحِينَئذٍ يَستَوِي الإنسانُ قائِمًا ويَخِرُّ الشَّيطانُ صريعًا؛ فمَن شاءَ أن يكونَ العَدُوُّ عن لَحاقِهِ بَطِيئًا، فَلْيَكُنْ إلى الذِّكرِ والتِّلاوةِ سَرِيعًا»(١).

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ، في تفسيرِهِ قولَهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]: «يُخبِرُ تعالى عن عقوبتِهِ البليغةِ بمَن أعرضَ عن ذِكرِهِ؛ فقالَ: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾؛ أي: يُعرِضُ ويَصِدُّ، ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ الَّذي هو القُرآنُ العظيمُ، الَّذي هو أعظَمُ رَحمَةٍ رَحِمَ بها الرحمٰنُ عبادَهُ؛ فمَن قَبِلَها، فقد قَبِلَ خيرَ المواهِبِ، وفازَ بأعظَمِ المطالِبِ والرَّغائبِ، ومَن أعرَضَ عنها ورَدَّها، فقد خابَ وخَسِرَ خَسارةً لا يَسعَدُ بعدَها أبدًا، وقَيَّضَ له الرحمٰنُ شَيطانًا مَرِيدًا يُقارِنُهُ ويُصاحِبُهُ، ويَعِدُهُ ويُمَنِّيهِ، ويَؤُزُّهُ إلى المعاصي أزًّا»(٢).

والسُّوَرُ والآياتُ الَّتِي وَرَدَ النَّصُّ بأنَّها تَحفَظُ منَ الشَّيطانِ كثيرةٌ؛ منها:

- **قراءةُ سورةِ البقرةِ في البَيتِ:**

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **(لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ؛ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ البَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ البَقَرَةِ)**(٣).

---

(١) التذكرة في الوعظ: (ص١٥٢). (٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٤/١٦١٠).

(٣) صحيح مسلم: (١/٥٣٣)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد، حديث رقم: (٧٨٠).

- **قراءةُ آيةِ الكُرْسِيِّ:**

عن أبي هُريرةَ ﷺ قالَ: وَكَّلَنِي رسولُ اللهِ ﷺ بحِفظِ زكاةِ رمضانَ، فأتَانِي آتٍ، فجَعَلَ يَحْثُو منَ الطَّعامِ؛ فأخَذْتُهُ، وقُلتُ: واللهِ لَأرْفَعَنَّكَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، قالَ: إنِّي محتاجٌ وعليَّ عيالٌ ولي حاجةٌ شديدةٌ، قال: فخَلَّيْتُ عنه، فأصبحتُ؛ فقالَ النَّبيُّ ﷺ: (**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ؟**)، قالَ: قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حاجةً شديدةً وعِيالًا فرَحِمْتُهُ فخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قالَ: (**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ**)، فعَرَفْتُ أنَّهُ سَيَعُودُ؛ لقولِ رسولِ اللهِ ﷺ: (**إِنَّهُ سَيَعُودُ**) فرَصَدتُّهُ فجاءَ يَحثُو منَ الطَّعامِ؛ فأخَذْتُهُ فقُلتُ: لَأرْفَعَنَّكَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، قالَ: دَعْنِي فإنِّي مُحتاجٌ وعَلَيَّ عيالٌ لا أعودُ، فرَحِمْتُهُ فخَلَّيْتُ سبيلَهُ، فأصبحتُ، فقالَ لي رسولُ اللهِ ﷺ: (**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟**)، قُلتُ: يَا رسولَ اللهِ شَكَا حاجَةً شديدةً وعِيالًا فرَحِمْتُهُ فخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قالَ: (**أَمَا إِنَّهُ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ**) فرَصَدتُّهُ الثالثةَ؛ فجاءَ يَحثُو منَ الطَّعامِ؛ فأخذتُهُ فقلتُ: لَأرْفَعَنَّكَ إلى رسولِ اللهِ، وهذا آخِرُ ثلاثِ مرَّاتٍ تَزعُمُ لا تَعُودُ، ثم تَعُودُ! قالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنفَعُكَ اللهُ بها، قلتُ: ما هو؟ قالَ: إذَا أَوَيْتَ إلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] حَتَّى تَختِمَ الآيةَ؛ فإنَّكَ لن يَزالَ عليكَ منَ اللهِ حافظٌ، ولا يَقرَبَنَّكَ شَيطانٌ حتَّى تُصبِحَ؛ فخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ؛ فأصبحتُ فقالَ لي رسولُ اللهِ ﷺ: (**مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ؟**) قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، زَعَمَ أنَّهُ يُعَلِّمُنِي كلماتٍ يَنفَعُنِي اللهُ بها، فخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قالَ: (**مَا هِيَ؟**) قُلتُ: قال لي: إذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ مِن أوَّلِها حتَّى تَختِمَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ... ﴿٢٥٥﴾﴾، وقالَ لي: لَن يَّزالَ عليكَ منَ اللهِ حافظٌ، ولا يَقْرَبُكَ شَيطانٌ حتَّى تُصبِحَ ـ وكانُوا أحرَصَ شَيءٍ على الخيرِ ـ

فقالَ النَّبيُّ ﷺ: **(أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يا أَبَا هُرَيْرَةَ؟!)** قالَ: لا، قالَ: **(ذَاكَ شَيْطَانٌ)**[١].

قالَ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «ومع هذا، فقد جَرَّبَ المجرِّبُونَ الَّذينَ لا يُحصَوْنَ كثرةً أنَّ لها منَ التَّأثيرِ في دَفعِ الشَّياطِينِ، وإبطالِ أحوالِهِم ما لا يَنضَبِطُ من كَثرتِهِ وقُوَّتِهِ؛ فإنَّ لها تَأثِيرًا عظيمًا في دَفْعِ الشَّيطانِ عن نفسِ الإنسانِ، وعنِ المصروعِ، وعن من تُعِينُهُ الشَّياطينُ؛ مثلَ: أهلِ الظُّلمِ والغَضَبِ، وأهلِ الشَّهوةِ والطَّرَبِ، وأربابِ السَّماعِ المُكَاءِ والتَّصْدِيةِ إذا قُرِئَتْ عليهم بصِدقٍ، دَفَعَتِ الشَّياطينَ، وبَطَلَتِ الأمورُ الَّتِي يُخَيِّلُها الشَّيطانُ، ويَبطُلُ ما عندَ إخوانِ الشَّياطينِ من مُكاشفةٍ شَيطانِيَّةٍ وتَصَرُّفٍ شيطانيٍّ، إذ كانتِ الشَّياطينُ يُوحُونَ إلى أوليائِهِم بأمورٍ يَظُنُّها الجُهَّالُ مِن كراماتِ أولياءِ اللهِ المتَّقِينَ؛ وإنَّما هي من تَلبيساتِ الشَّياطينِ على أوليائِهِمُ المغضوبِ عليهم والضَّالِّينَ»[٢].

- **قراءةُ آخِرِ آيتَينِ من سُورَةِ البقرةِ:**

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **(إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَن يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِأَلْفَيْ عَامٍ، فَأَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ، فَخَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ البَقَرَةِ، فَلَا يُقْرَآنِ فِي دَارٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَيَقْرَبُهَا الشَّيْطَانُ)**[٣].

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا: (٢/ ٦٨٧)، كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلًا؛ فترك الوكيل شيئًا فأجازه الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مسمًّى جاز، حديث رقم: (٢٣١١).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٩/ ٥٥ ـ ٥٦).

(٣) مسند الإمام أحمد: (٣٠/ ٣٦٣)، حديث رقم: (١٨٤١٤)، سنن الترمذي: (٥/ ١٥٣ ـ ١٥٤)، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء في آخر سورة البقرة، حديث رقم: (٣١٠٠)، سنن النسائي الكبرى: (٩/ ٣٥٤)، كتاب عمل اليوم والليلة، ذكر ما يجير من الجن والشياطين وذكر اختلاف الناقلين لخبر أبيٍّ فيه، حديث رقم: (١٠٧٣٦)، قال الألباني: صحيح. انظر: صحيح سنن الترمذي: (٣/ ١٥٣ ـ ١٥٤).

• قراءةُ المُعَوِّذَتَيْنِ:

عن أبي سعيدٍ الخُدرِيِّ ﷺ قالَ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الجَانِّ وَعَيْنِ الإِنْسَانِ حَتَّى نَزَلَتِ المُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتَا، أَخَذَ بِهِمَا، وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا)[١].

ثانيًا: البَسْمَلَةُ:

البَسْمَلَةُ لها أثرٌ عظيمٌ في حِفظِ العبدِ منَ الشَّيطانِ خاصَّةً في الأحوالِ الَّتِي وَرَدَتْ بها السُّنَّةُ، وهي:

١ ـ عِندَ تَعَثُّرِ الدَّابَّةِ:

عن أبي تَمِيمَةَ[٢]، عن رَجُلٍ، عن رَدِيفِ[٣] النَّبيِّ ﷺ قالَ: عَثَرَ بالنَّبيِّ ﷺ حِمَارُهُ فقُلتُ: تَعِسَ الشَّيطانُ! فقالَ النَّبيُّ ﷺ: (لَا تَقُلْ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ؛ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ، تَعَاظَمَ وَقَالَ: بِقُوَّتِي صَرَعْتُهُ، وَإِذَا قُلْتَ: بِسْمِ اللهِ، تَصَاغَرَ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ)[٤].

---

(١) سنن الترمذي: (٤/ ١٤٥)، أبواب الطب عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الرقية بالمعوذتين، حديث رقم: (٢١٨٥)، سنن النسائي الكبرى: (٧/ ٢٠٠)، كتاب الاستعاذة، ذكر فضل ما يتعوذ به المتعوذون، حديث رقم: (٧٨٠٤)، سنن ابن ماجه: (٤/ ٥٤٤)، أبواب الطب، باب من استرقى من العين، حديث رقم: (٣٥١١)، قال الألباني: صحيح. انظر: صحيح سنن الترمذي: (٢/ ٤٠٥).

(٢) أبو تميمة: طَريف بن مجالد الهُجيمي، أبو تميمة البصري التابعي، قال ابن عبد البر: يروي عن أبي هريرة وأبي موسى، ويروي عنه قتادة وبكر المزني، وقد ذكره بعضهم في الصحابة وهو غلط. انظر: الوافي بالوفيات: (١٦/ ٢٤٩).

(٣) ورد ذكر اسم الرديف في المعجم الكبير للطبراني، وهو: أسامة بن عمير الهُذلي. انظر: المعجم الكبير: (١/ ١٣٩ ـ ١٤٥).

(٤) مسند الإمام أحمد: (٣٤/ ١٩٩)، حديث رقم: (٢٠٥٩٢)، سنن أبي داود: (٥/ ١٦٣)، كتاب الأدب، باب لا يقال: خبثت نفسي، حديث رقم: (٤٩٨٢)، سنن النسائي الكبرى: (٩/ ٢٠٥)، كتاب عمل اليوم والليلة، ما يقول إذا عثرت به دابته، =

٢ ـ عندَ دُخولِ البَيتِ والأَكْلِ:

قالَ الرَّسولُ ﷺ: **(إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ؛ قَالَ: أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ وَالعَشَاءَ)**[1].

وقد وَرَدَ تعيينُ هذا الذِّكرِ بأَنَّهُ البَسمَلَةُ في أحاديثَ أُخرَى؛ أمَّا عندَ الأكلِ فعَن عُمَرَ بنِ أبي سَلَمَةَ رضي الله عنه قالَ: كُنتُ غُلامًا في حِجرِ رَسولِ اللهِ ﷺ، وكانت يَدِي تَطِيشُ في الصَّحْفَةِ؛ فقالَ لي رسولُ اللهِ ﷺ: **(يَا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ)**، فما زَالَتْ تلكَ طِعْمَتِي بعدُ»[2].

وأمَّا عندَ دُخولِ البيتِ: فقد وَرَدَ عنه ﷺ أَنَّهُ قالَ: **(إِذَا وَلَجَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ؛ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ المَوْلَجِ وَخَيْرَ المَخْرَجِ، بِسْمِ اللهِ وَلَجْنَا، وَبِسْمِ اللهِ خَرَجْنَا، وَعَلَى اللهِ رَبِّنَا تَوَكَّلْنَا، ثُمَّ لْيُسَلِّمْ عَلَى أَهْلِهِ)**[3].

= حديث رقم: (١٠٣١٢)، قال الألباني: صحيح. انظر: صحيح سنن أبي داود: (٣/ ٢٢٤).

(١) صحيح مسلم: (٢/ ٩٧١)، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، حديث رقم: (٢٠١٨).

(٢) صحيح البخاري: (٤/ ١٧٣٢)، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، حديث رقم: (٥٣٧٦)، صحيح مسلم: (٢/ ٩٧٢)، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، حديث رقم: (٢٠٢٢).

(٣) سنن أبي داود: (٥/ ٢٠٦)، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا خرج من بيته، حديث رقم: (٥٠٩٦)، قال الألباني: ضعيف. انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة: (١٢/ ٧٣٠)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح. انظر: زاد المعاد: (٢/ ٣٤٨).

٣ ـ عندَ الخُروجِ منَ البيتِ:

عن أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: (**مَنْ قَالَ ـ يَعني: إِذَا خَرَجَ مِن بَيتِهِ ـ: بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، يُقَالُ لَهُ: كُفِيتَ وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ**)[١]... وغيرُ ذلكَ منَ المواضِعِ.

٤ ـ عندَ جِماعِ الرَّجُلِ أَهلَهُ:

عنِ ابنِ عبَّاسٍ ﷺ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: (**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا؛ فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ، لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ**)[٢].

ثالثًا: التَّهلِيلُ:

عن أبي هُريرةَ ﷺ قالَ: قالَ الرَّسولُ ﷺ: (**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عِدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ**)[٣].

---

(١) سنن الترمذي، واللفظ له: (٦/٤٩)، أبواب الدعوات، باب ما يقول إذا خرج من بيته، حديث رقم: (٣٧٢٤)، سنن أبي داود: (٥/٢٠٦)، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا خرج من بيته، حديث رقم: (٥٠٩٥)، سنن النسائي الكبرى: (٩/٣٩)، كتاب عمل اليوم والليلة، نوع آخر، حديث رقم: (٩٨٣٧).

(٢) صحيح البخاري: (١/٧٣)، كتاب الوضوء، باب التسمية على كل حال وعند الوقاع، حديث رقم: (١٤١)، صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع، حديث رقم: (١٤٣٤).

(٣) صحيح البخاري: (٢/١٠١٢ ـ ١٠١٣)، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، حديث رقم: (٣٢٩٣)، صحيح مسلم: (٢/١٢٤٠)، كتاب الذكر =

رابعًا: تَذَكُّرُ القَلبِ:

كما أنه يَنبَغِي للعبدِ أن يَلزَمَ لسانُهُ ذِكرَ اللهِ، كذلكَ يَنبَغِي له أن لا يَنسَى أن يَذكُرَ اللهَ بقَلبِهِ.

قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾؛ اللهَ مِن خَلقِهِ؛ فخَافُوا عقابَهُ؛ بأداءِ فرائضِهِ، واجتنابِ معاصِيهِ، ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾؛ يقول: إذَا أَلَمَّ بِهِمْ طَيفٌ منَ الشَّيطانِ؛ مِن غَضَبٍ أو غيرِهِ ممَّا يَصُدُّ عن واجبِ حقِّ اللهِ عليهم، ﴿تَذَكَّرُواْ﴾؛ عقابَ اللهِ وثوابَهُ، ووَعْدَهُ ووَعِيدَهُ، وأَبصَرُوا الحقَّ فعَمِلُوا به، وانتَهَوْا إلى طاعةِ اللهِ فيما فَرَضَ عليهم، وتَرَكُوا فيه طاعةَ الشَّيطانِ»[1].

فعلى العبدِ أن يكونَ قلبُهُ عامِرًا بخَشيَةِ اللهِ وتَذكُّرِ عظمتِهِ ورجاءِ ثوابِهِ؛ فإن هذا ممَّا يَرفَعُهُ عندَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ويَحفَظُهُ من غَوايةِ الشَّيطانِ.

قالَ ابنُ مُفلحٍ رَحِمَهُ اللهُ: «الذِّكرُ مَيدَانُهُ اللِّسانُ، والتَّذكُّرُ مَيدَانُهُ القَلبُ»[2].

= والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، حديث رقم: (٢٦٩١).

* قال ابن عثيمين: «خمس فضائل إذا قلت: «لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير» مائةَ مرَّةٍ، وهذه سهلة يمكن وأنت تنتظر صلاة الفجر بعد أن تأتي للمسجد تقولها، أو بعد طلوع الفجر تقولها تنتفع بها، وهذا أيضًا من الأمور الَّتِي ينبغي للإنسان أن يداوم عليها، وينبغي أن يقولها في أول النهار؛ لتكون حرزًا له من الشيطان». انظر: شرح رياض الصالحين: (٤٨٨/٥).

(١) جامع البيان: (٦٤٦/١٠ ـ ٦٤٧).

(٢) مصائب الإنسان من مكائد الشيطان: (ص٩١).

المَطْلَبُ السَّابِعُ

الاستعاذةُ باللهِ ﷻ منَ الشَيطانِ الرَجيمِ

الاستعاذةُ حِصنٌ حَصِينٌ ومَأوًى أمينٌ يَتَحَصَّنُ به العبدُ منَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ؛ ولذلكَ أَمَرَ بها ﷻ في كتابِهِ الكريمِ.

قالَ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أي: أيَّ وَقتٍ، وفي أيِّ حالٍ ﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾؛ أي: تُحِسُّ منه بوَسوَسَةٍ، وتَثْبِيطٍ عنِ الخَيرِ، أو حَثٍّ على الشَّرِّ، وإيعازٍ إليهِ، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: الْتَجِئْ واعتَصِمْ باللهِ، واحتَمِ بحِماهُ؛ فإنَّهُ ﴿سَمِيعٌ﴾؛ لِمَا تَقُولُ، ﴿عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾ بِنِيَّتِكَ وضَعفِكَ، وقُوَّةِ الْتِجَائِكَ له؛ فسَيحْمِيكَ من فتنتِهِ، ويَقِيكَ من وَسوَسَتِهِ»[1].

فمِنَ الآياتِ الَّتِي دلَّتْ على الأمرِ بالاستعاذةِ: قولُهُ تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وقولُهُ تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٦، ٩٧]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٥، ٣٦].

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٦٠٢).

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذهِ ثلاثُ آياتٍ ليسَ لهُنَّ رابعةٌ في معناها، وهو أنَّ اللهَ يَأمُرُ بمُصانَعَةِ العَدُوِّ الإنسِيِّ والإحسانِ إليهِ؛ لِيَرُدَّهُ عنه طَبْعُهُ الطَّيِّبُ الأصلِ إلى المُوادَّةِ والمُصافاةِ، ويأمرُ بالاستعاذةِ به منَ العَدُوِّ الشَّيطانيِّ لا محالةَ؛ إذ لا يَقبَلُ مُصانَعَةً ولا إحسانًا ولا يَبتَغِي غيرَ هلاكِ ابنِ آدَمَ؛ لِشِدَّةِ العداوةِ بَينَهُ وبينَ أبيهِ آدَمَ من قَبلُ»[1].

وكذلكَ أَمَرَ اللهُ ﷻ بالاستعاذةِ في سُورةِ النَّاسِ؛ قالَ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذه السُّورةُ مُشتَمِلَةٌ على الاستعاذةِ برَبِّ النَّاسِ ومَالِكِهِم وإِلَهِهِم منَ الشَّيطانِ الَّذي هو أَصلُ الشُّرورِ كُلِّها ومادَّتُها، الَّذي من فتنتِهِ وشَرِّهِ أنه يُوَسْوِسُ في صُدورِ النَّاسِ؛ فيُحَسِّنُ لهمُ الشَّرَّ، ويُرِيهِم إيَّاهُ في صورةٍ حَسَنَةٍ، ويُنَشِّطُ إرادَتَهُم لِفِعْلِهِ، ويُثَبِّطُهُم عنِ الخَيرِ، ويُرِيهِم إيَّاهُ في صورةٍ غيرِ صورتِهِ، وهو دائمًا بهذه الحالِ يُوَسْوِسُ ثُمَّ يَخْنُسُ؛ أَيْ: يَتَأَخَّرُ عنِ الوسوسةِ إذا ذَكَرَ العبدُ رَبَّهُ واستعانَ به على دَفعِهِ»[2].

وفيها أيضًا: «إرشادُ النَّبيِّ ﷺ لأن يَتَعَوَّذَ باللهِ ربِّهِ من شَرِّ الوَسواسِ الَّذي يحاوِلُ إفسادَ عَمَلِ النَّبيِّ ﷺ، وإفسادَ إرشادِهِ النَّاسَ، ويُلقِي في نفوسِ النَّاسِ الإعراضَ عن دعوتِهِ، وفي هذا الأمرِ إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ تعالى مُعِيذُهُ من ذلكَ فعاصِمُهُ في نفسِهِ من تَسَلُّطِ الوَسواسِ عليه، ومُتَمِّمٌ دعوتَهُ حتَّى تَعُمَّ في النَّاسِ، ويَتبَعُ ذلكَ تعليمُ المسلمِينَ التَّعوُّذَ بذلكَ؛ فيكونُ لهم هذا التَّعوُّذُ ما هو حَظُّهُم من قَابليَّةِ التعرُّضِ إلى الوَسواسِ، ومنَ السَّلامةِ منه بمِقدارِ مراتِبِهِم في الزُّلْفَى»[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (١/ ١١٠).
(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٤/ ٢٠٠٢).
(٣) التحرير والتنوير: (٣٠/ ٦٣٢).

* مواضعُ الاستعاذةِ:

أوَّلًا: عندَ قراءةِ القُرآنِ:

يَدُلُّ على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

وقد ذَكَرَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ حِكَمًا من مَشروعيَّةِ الاستعاذةِ قبلَ قراءةِ القُرآنِ، مُلَخَّصُها.

أوَّلًا: أنَّ القُرآنَ شِفاءُ ما في الصُّدورِ؛ يُذْهِبُ ما يُلقِيهِ الشَّيطانُ فيها من الوساوسِ والشَّهَواتِ والإراداتِ الفاسدةِ؛ فهو دواءٌ لِمَا أَثَّرَهُ فيها الشَّيطانُ؛ فأُمِرَ أن يَطرُدَ مادَّةَ الدَّاءِ ويُخَلِّيَ منه القَلبَ؛ لِيُصادِفَ الدَّوَاءُ محلًّا خاليًا فيَتَمَكَّنَ منه ويُؤَثِّرَ فيه.

ثانيًا: أنَّ القُرآنَ مادَّةُ الهُدَى والعِلمِ والخَيرِ في القَلبِ، كما أنَّ الماءَ مادَّةُ النَّباتِ، والشَّيطانَ نارٌ يُحرِقُ النَّباتَ أوَّلًا فأوَّلًا؛ فكُلَّما أحسَّ بنباتِ الخيرِ منَ القلبِ، سَعَى في إفسادِهِ وإحراقِهِ؛ فأُمِرَ أن يستعيذَ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ منه؛ لِئَلَّا يُفسِدَ عليهِ ما يَحصُلُ له بالقُرآنِ.

والفَرقُ بينَ هذا الوجهِ والوجهِ الَّذي قبلَهُ: أنَّ الاستعاذةَ في الوجهِ الأوَّلِ؛ لأَجْلِ حصولِ فائدةِ القُرآنِ، وفي الوجهِ الثَّاني؛ لأَجْلِ بقائِها وحِفظِها وثباتِها.

ثالثًا: أنَّ الملائكةَ تَدنُو من قارئِ القُرآنِ، وتَستَمِعُ لقراءتِهِ؛ كما في حديثِ[1] أُسَيدِ بنِ حُضَيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأُمِرَ القارئُ أن يَطلُبَ منَ اللهِ تعالى

---

(١) صحيح البخاري: (٣/١٦١٧ ـ ١٦١٨)، كتاب فضائل القرآن، باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن، حديث رقم: (٥٠١٨).

مُباعدَةَ عَدُوِّهِ عنه حتَّى يَحضُرَهُ خاصُّ ملائكتِهِ؛ فهذه منزلةٌ لا تَجتَمِعُ فيها الملائكةُ والشَّياطينُ.

رابعًا: أنَّ الشَّيطانَ يَجلِبُ على القارئِ بِخَيلِهِ ورَجلِهِ حتَّى يَشغَلَهُ عنِ المقصودِ بالقُرآنِ وهو تَدَبُّرُهُ وتَفهُّمُهُ ومعرفةُ ما أرادَ به المتكلِّمُ به سبحانه؛ فيَحرِصُ بجُهدِهِ على أن يَحُولَ بينَ قلبِهِ وبينَ مقصودِ القُرآنِ؛ فلا يَكمُلُ انتفاعُ القارئِ به؛ فأُمِرَ عندَ الشُّروعِ أن يستَعِيذَ باللهِ ﷻ منه.

خامسًا: أنَّ القارِئَ يُناجِي اللهَ تعالى بكلامِهِ واللهُ تعالى أشَدُّ أَذَنًا[1] للقارئِ الحَسَنِ الصَّوتِ بالقُرآنِ من صاحبِ القَيْنَةِ[2] إلى قَينَتِهِ، والشَّيطانُ إنَّما قراءتُهُ الشِّعرُ والغناءُ[3]، فأُمِرَ القارئُ أن يَطرُدَهُ بالاستعاذةِ عندَ مُناجاتِهِ اللهَ تعالى، واستماعِ الرَّبِّ قِراءتَهُ.

سادسًا: أنَّ اللهَ سبحانه أخبَرَ أنَّهُ ما أرسَلَ من رسولٍ ولا نبيٍّ إلَّا إذا تَمَنَّى، أَلْقَى الشَّيطانُ في أُمنِيَّتِهِ والسَّلَفُ كلُّهُم على أنَّ المعنَى: إذا تَلَا، أَلْقَى الشَّيطانُ في تِلاوتِهِ.. فإذا كانَ هذا فِعلَهُ مع الرُّسُلِ ﷺ؛ فكيفَ بغَيرِهِم؟! ولهذا يُغَلِّطُ القارئَ تارةً، ويَخلِطُ عليه القِراءةَ، ويُشَوِّشُها عليه؛ فيُخَبِّطُ عليه لسانَهُ، أو يُشَوِّشُ عليه فَهمَهُ وقلبَهُ، فإذا حَضَرَ عندَ القراءةِ، لم يَعدِمْ منه القارئُ هذا أو هذا، وربَّما جَمَعَهُما له؛ فكانَ من أَهَمِّ الأُمورِ الاستعاذةُ باللهِ تعالى منه.

سابعًا: أنَّ الشَّيطانَ أحرَصُ ما يكونُ على شَغْلِ الإنسانِ عندَما

---

(١) **أذَنًا**: أذِنَ له أَذَنًا: استمع. **انظر**: الصحاح: (٥/٢٠٦٨).

(٢) **القَينَةُ**: الأمة مُغَنِّيَةً كانت أو غيرَ مُغنِّيَةٍ. **انظر**: الصحاح: (٦/ ٢١٨٥ ـ ٢١٨٦).

(٣) يشير لقوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]، وإلى ما ذكره العلماء في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

يَهُمُّ بالخَيرِ، أو يَدخُلُ فيه؛ فهو يَشتَدُّ عليه حينئذٍ لِيَقْطَعَهُ عنه.. وكُلَّما كانَ الفعلُ أنفَعَ للعبدِ وأَحَبَّ إلى اللهِ تعالى، كانَ اعتراضُ الشَّيطانِ له أكثَرَ.. فهو بالرَّصَدِ ولا سِيَّمَا عندَ قراءةِ القُرآنِ؛ فأَمَرَ سبحانه العبدَ أن يحارِبَ عَدُوَّهُ الَّذي يَقطَعُ عليه الطَّريقَ، ويَستَعِيذَ باللهِ تعالى منه أوَّلًا، ثم يأخُذَ في السَّيرِ كما أنَّ المسافِرَ إذا عَرَضَ له قاطعُ طريقٍ، اشتَغَلَ بدَفعِهِ، ثُمَّ اندَفَعَ في سَيرِهِ.

ثامنًا: أنَّ الاستعاذةَ قبلَ القراءةِ عنوانٌ وإعلامٌ بأنَّ المأتِيَّ به بعدَها القُرآنُ؛ ولهذا لم تُشرَعْ الاستعاذةُ بينَ يَدَيْ كلامِ غَيرِهِ، بل الاستعاذةُ مُقدِّمَةٌ وتنبيهٌ للسَّامعِ أنَّ الَّذي يأتي بعدَها هو التِّلاوةُ؛ فإذا سَمِعَ السَّامعُ الاستعاذةَ، استعدَّ لاستماعِ كلامِ اللهِ تعالى، ثمَّ شُرِعَ ذلكَ للقارئِ وإنْ كانَ وَحدَهُ لِمَا ذَكَرْنَا منَ الحِكَمِ وغَيرِها[1].

ثانيًا: الاستعاذةُ عندَ الغَضَبِ:

الغَضَبُ منَ الحالاتِ الَّتِي يَصعُبُ على كثيرٍ منَ النَّاسِ قَبولُ الحقِّ عندَ حُدوثِهِ فأَرشَدَ اللهُ ﷻ في كتابِهِ الكريمِ إلى علاجِ هذه الحالةِ.

قالَ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يَعنِي جَلَّ ثناؤُهُ بقولِهِ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾: وإمَّا يُغْضِبَنَّكَ منَ الشَّيطانِ غَضَبٌ يَصُدُّكَ عنِ الإعراضِ عنِ الجاهلِينَ، ويَحمِلُكَ على مُجازاتِهِم، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ﴾؛ يقولُ: فاسْتَجِرْ باللهِ من نَزغِهِ ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾؛

(١) إغاثة اللهفان: (١/ ١٨١ ـ ١٨٤)، باختصار.

يقولُ: إنَّ اللهَ الَّذي تَستَعِيذُ به مِن نَزغِ الشَّيطانِ ﴿عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾؛ لجهلِ الجاهلِ عليكَ، ولاستعاذتِكَ به من نَزغِهِ، ولغيرِ ذلكَ من كلامِ خَلقِهِ لا يَخفَى عليه منه شَيءٌ ﴿عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾؛ بما يُذهِبُ عنكَ نَزغَ الشَّيطانِ، وغيرِ ذلكَ من أُمورِ خَلقِهِ»[1].

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

والحكمةُ من تأكيدِ الوَصفِ واقترانِهِ بالألِفِ واللَّامِ في سورةِ فُصِّلَتْ وعدمِهِ في سُورةِ الأعرافِ هو ـ كما قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ ـ: «وتَأَمَّلْ سِرَّ القُرآنِ الكريمِ كيفَ أكَّدَ الوَصفَ بالسَّميعِ العليمِ بِذِكرِ صيغةِ: «هو» الدَّالِّ على تأكيدِ النِّسبةِ واختصاصِها.

وعَرَّفَ الوَصفَ بالألِفِ واللَّامِ في سورةِ «حم»؛ لاقتضاءِ المقامِ لهذا التأكيدِ، وتَرَكَهُ في سورةِ «الأعراف»؛ لاستغناءِ المقامِ عنه؛ فإنَّ الأمرَ بالاستعاذةِ في سورةِ «حم» وَقَعَ بعدَ الأمرِ بأشَقِّ الأشياءِ على النَّفسِ وهو مُقابلةُ إساءةِ المُسيءِ بالإحسانِ إليه، وهذا أمرٌ لا يَقدِرُ عليه إلَّا الصَّابرُونَ، ولا يَلْقَاهُ إلَّا ذُو حظٍّ عظيمٍ؛ كما قالَ الله تعالى»[2].

وقد وَرَدَ في السُّنَّةِ ما يَدُلُّ على أنَّ الاستعاذةَ تُسَنُّ عندَ الغَضَبِ بل إنَّها تُذهِبُه؛ فعن سُليمانَ بنِ صُرَد رضي الله عنه قالَ: اسْتَبَّ رجلانِ عندَ النَّبيِّ ﷺ، ونحنُ عندَهُ جُلوسٌ، وأحدُهُما يَسُبُّ صاحبَهُ مُغضَبًا قدِ احْمَرَّ وجهُهُ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: **(إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا، لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ؛ لَوْ قَالَ: أَعُوذُ**

(١) جامع البيان: (١٠/ ٦٤٥).

(٢) بدائع الفوائد: (٢/ ٨١٠).

بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)، فقالُوا للرَّجُلِ: أَلَا تَسمَعُ ما يقولُ النَّبيُّ ﷺ؟ قال: إنِّي لَستُ بمَجنُونٍ[1].

وهناكَ كثيرٌ منَ المواضعِ والحالاتِ[2] تُستَحَبُّ فيها الاستعاذةُ دَلَّتْ عليها السُّنَّةُ المُطَهَّرَةُ؛ فَعَلَى العَبدِ أن يَعتَصِمَ باللهِ ﷻ، وأن يَلتَجِئَ إليه، ويَستَعِيذَ به منَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ؛ حتَّى يَسلَمَ بإذنِ اللهِ ﷻ من مكائدِهِ ومصائِدِهِ.

❁ ❁ ❁

---

(١) صحيح البخاري: (١٩٢٨/٤)، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، حديث رقم: (٦١١٥)، صحيح مسلم: (١٢٠٩/٢)، كتاب: البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، وبأي شيء يذهب الغضب، حديث رقم: (٢٦١٠).

(٢) ذكر الشيخ أ. د. عبد العزيز العبيد كثيرًا من المواضع الَّتِي ينبغي للعبد أن يحرص على الاستعاذة عندها. **انظر**: عداوة الشيطان للإنسان كما جاءت في القرآن: (ص١٥١ ـ ١٥٨).

المَطْلَبُ الثَّامِنُ

الحَذَرُ مِن معصيةِ اللهِ

قد دَلَّتْ بعضُ الآياتِ من كتابِ اللهِ ﷻ أنَّ الذُّنوبَ والمعاصِيَ سَبَبٌ لِتَسَلُّطِ الشَّيطانِ على العَبدِ؛ كقَولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «يُخبِرُ تعالى عن حالِ الَّذينَ انْهَزَمُوا يومَ «أُحُدٍ»، وما الَّذي أوجَبَ لهمُ الفِرارَ، وأنَّهُ من تَسوِيلِ الشَّيطانِ، وأنَّهُ تَسَلَّطَ عليهم ببعضِ ذُنوبِهِم؛ فهُمُ الَّذينَ أدخَلُوهُ على أنفُسِهِم، ومَكَّنُوهُ بما فَعَلُوا من المعاصي؛ لأنَّها مَركَبُهُ ومَدخَلُهُ، فلوِ اعتَصَمُوا بطاعةِ ربِّهِم لَمَا كَانَ له عليهم من سُلطانٍ؛ قالَ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، ثُمَّ أخبَرَ أنَّهُ عَفَا عنهم بعدَما فَعَلُوا ما يُوجِبُ المُؤاخَذَةَ، وإلَّا فلو آخَذَهُم لَاسْتَأْصَلَهُم»(١).

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

قالَ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «فإذا كانَ الشَّيطانُ ليسَ له سُلطانٌ إلَّا على مَن أشرَكَ، فكُلُّ مَن أطاعَ الشَّيطانَ في معصيةِ اللهِ؛ فقد تَسَلَّطَ الشَّيطانُ

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤).

عليه، وصارَ فيه مِنَ الشِّركِ بالشَّيطان بقَدرِ ذلكَ»[١].

فإذا عَلِمَ العبدُ أنَّ المعصيةَ سَبَبٌ لِتَسَلُّطِ الشَّيطانِ؛ فإنَّهُ يَجِبُ عليه أن يحذَرَ من هذه الذُّنوبِ الَّتِي هي سببٌ لتَسَلُّطِ الأعداءِ.

قالَ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «وإنْ كانَ الجِنُّ مِنَ العفاريتِ وهو ضعيفٌ فقد تُؤذِيهِ؛ فيَنبَغِي لِمِثلِ هذا أن يَحتَرِزَ بقِراءةِ العِوَذِ؛ مِثلَ: آيةِ الكُرسِيِّ والمُعَوِّذاتِ، والصَّلاةِ، والدُّعاءِ، ونحوِ ذلكَ ممَّا يُقَوِّي الإيمانَ، ويُجنِّبُ الذُّنوبَ الَّتِي بها يُسَلَّطُونَ عليه؛ فإنَّهُ مجاهِدٌ في سبيلِ اللهِ، وهذا من أعظَمِ الجهادِ؛ فلْيَحْذَرْ أن يَنصُرَ العَدُوَّ عليه بذُنُوبِهِ، وإنْ كانَ الأمرُ فَوقَ قُدرَتِهِ فلا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلَّا وُسعَهَا، فلا يَتَعَرَّضْ مِنَ البَلاءِ لِمَا لا يُطِيقُ»[٢].

وقالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «فما سُلِّطَ على العبدِ مَن يُؤذِيهِ إلَّا بذَنبٍ يَعلَمُهُ أو لَا يَعلَمُهُ، وما لا يَعلَمُهُ العَبدُ من ذُنُوبِهِ أضعافُ ما يَعلَمُهُ منها، وما يَنساهُ ممَّا عَلِمَهُ وعَمِلَهُ أضعافُ ما يَذكُرُهُ»[٣].



(١) قاعدة في المحبة: (ص١٧٨).
(٢) مجموع الفتاوى: (١٩/ ٥٣).
(٣) بدائع الفوائد: (٢/ ٧٧٠ ـ ٧٧١).

المَطْلَبُ التَّاسِعُ

عدمُ اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ

تَبيَّنَ فيما مَضَى[١] أنَّ مِن أساليبِ الشَّيطانِ في صَدِّ النَّاسِ عن قَبولِ الحَقِّ خُطواتِهِ؛ ولذلكَ نَهى اللهُ ﷻ عنِ اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ في أكثرَ من موضعٍ في القُرآنِ الكريمِ؛ **لشِدَّةِ خَطَرِ اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ؛ منها:**

ـ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨].

ـ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «والمعنَى في النَّهيِ عنِ اتِّباعِ خُطُواتِهِ النَّهيُ عن طريقِهِ وأثرِهِ فيما دعا إليه ممَّا هو خلافُ طاعةِ اللهِ»[٢].

وقالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «ثمَّ قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾؛ **يَعنِي**: طرائقَهُ ومَسالكَهُ وما يَأمُرُ به، ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾: هذا تنفيرٌ وتحذيرٌ من ذلكَ بأفصَحِ العبارةِ وأوجَزِهَا وأبلَغِهَا وأحسَنِهَا»[٣].

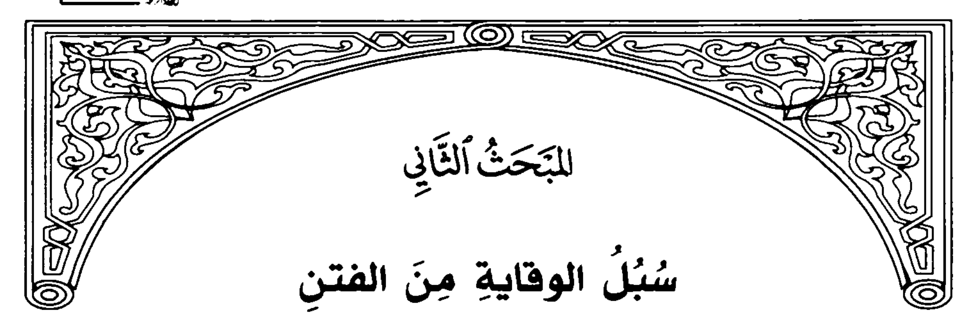
إنَّ الشَّيطانَ مع شِدَّةِ مَكرِهِ وخِداعِهِ قد لا يَستطيعُ أن يُضِلَّ الإنسانَ

---

(١) **انظر**: (ص٥٩).
(٢) جامع البيان: (٣/ ٣٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم: (٦/ ٣٠).

من أوَّلِ وَهلَةٍ؛ لكنَّهُ يَبدَأُ معه بخُطوةٍ هَيِّنَةٍ سهلةٍ؛ فإذا وَقَعَ الإنسانُ معه في هذه الخُطوةِ انتَقَلَ به إلى خُطوةٍ أُخرَى أعظَمَ منَ الأُولَى، وهكذا حتَّى يُوقِعَهُ في الضَّلالِ؛ فعلى العبدِ أن يَحْذَرَ من خُطُواتِ الشَّيطانِ، ولْيَعْصِ الشَّيطانَ في أوَّلِ خُطوةٍ يَدعُوهُ إليها، ولْيَتَذَكَّرْ قولَهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ﴾.

* * *



المَبحَثُ الثَّانِي

سُبُلُ الوقايةِ مِنَ الفتنِ

ويَحتَوِي على ثلاثةِ مطالِبَ:

- المطلبُ الأوَّلُ: سُبُلُ الوِقايةِ من فتنةِ فُشُوِّ الشِّركِ والمعاصي.
- المطلبُ الثَّانِي: سُبُلُ الوقايةِ من فِتَنِ الحياةِ الدُّنيا؛ ويَحتَوِي على ثلاثِ مسائِلَ:
  - المسألةُ الأُولى: سُبُلُ الوِقايةِ من فِتنةِ النِّساءِ.
  - المسألةُ الثَّانيةُ: سُبُلُ الوقايةِ من فِتنةِ المالِ.
  - المسألةُ الثَّالثةُ: سُبُلُ الوقايةِ من فتنةِ الأزواجِ والأولادِ.
- المطلبُ الثَّالثُ: سُبُلُ الوقايةِ من فتنةِ المُلكِ والجاهِ.



المَطْلَبُ الأَوَّلُ

سُبُلُ الوقايةِ من فتنةِ فُشُوِّ الشِّركِ والمعاصي

وذلكَ يكونُ بأمورٍ؛ منها:

الأمرُ الأوَّلُ: الهجرةُ:

شَرَعَ اللهُ الهجرةَ لِمَنْ كانَ في موضعٍ أو مجتَمَعٍ يَصُدُّهُ عنِ الحقِّ، ولا يستطيعُ أن يُقيمَ في هذا المكانِ شعائرَ دِينِهِ، بل أنكرَ اللهُ ﷻ على مَن تَرَكَ الهجرةَ من بلدِ الشِّركِ، ورَتَّبَ على ذلكَ الوعيدَ الشَّديدَ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٧، ٩٨].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يَعنِي: جلَّ ثناؤُهُ بقَولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ إنَّ الَّذينَ تَقبِضُ أرواحَهُمُ الملائكةُ ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ يَعنِي: مُكْسِبِي أنفُسِهِم غَضَبَ اللهِ وسَخَطَهُ... ﴿قَالُوا۟﴾؛ يقولُ: قالتِ الملائكةُ لهم: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾؛ في أيِّ شيءٍ كُنتُمْ من دِينِكُم ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ يَعنِي: قالَ الَّذينَ تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظالِمِي أنفُسِهِم: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ يَستَضْعِفُنا أهلُ الشِّركِ باللهِ في أرضِنا وبلادِنا بكثرةِ عددِهِم وقُوَّتِهِم؛ فيَمنعُونا منَ الإيمانِ باللهِ، واتِّباعِ نَبيِّهِ ﷺ، معذرةٌ ضعيفةٌ وحُجَّةٌ واهيةٌ، ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾؛ يقولُ:

فتَخرُجُوا من أرضِكُم ودُورِكُم، وتُفارِقُوا مَن يَمنَعُكُم بها منَ الإيمانِ باللهِ واتِّباعِ رسولِهِ ﷺ إلى الأرضِ الَّتِي يَمنَعُكُم أهلُها من سُلطانِ أهلِ الشِّركِ باللهِ؛ فتُوَحِّدُوا اللهَ فيها وتَعبُدُوهُ، وتَتَّبِعُوا نَبِيَّهُ ﷺ، يقولُ اللهُ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: فهؤلاءِ الَّذِينَ وَصَفْتُ لكم صِفَتَهُمُ الَّذين تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظالمي أنفُسِهِم ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ يقولُ: مَصِيرُهُم في الآخرةِ جَهَنَّمُ، وهي مَسْكَنُهُم ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٩٧﴾؛ يعني: وساءَتْ جَهَنَّمُ لأَهلِهَا الَّذينَ صارُوا إليها ﴿مَصِيرًا ۝٩٧﴾ ومَسْكَنًا ومَأْوَى.

ثمَّ استَثْنَى جلَّ ثناؤُهُ المُستضعفِينَ الَّذينَ استَضْعَفَهُمُ المشركُونَ ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾؛ وهُمُ العَجَزَةُ عنِ الهجرةِ بالعُسْرةِ، وقِلَّةِ الحِيلَةِ، وسُوءِ البَصَرِ والمعرفةِ بالطَّريقِ مِن أرضِهِم أرضِ الشِّركِ إلى أرضِ الإسلام منَ القومِ الَّذينَ أخبَرَ جلَّ ثناؤُهُ أنَّ مَأْوَاهُم جهنَّمُ؛ أن تكونَ جَهنَّمُ مَأْوَاهُم؛ للعُذرِ الَّذي هم فيه على ما بَيَّنَهُ تعالى ذِكرُهُ»[1].

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «هذا الوعيدُ الشَّديدُ لِمَنْ تَرَكَ الهِجرةَ مع قُدرتِهِ عليها حتَّى ماتَ؛ فإنَّ الملائكةَ الَّذين يَقبِضُونَ رُوحَهُ يُوَبِّخُونَهُ بهذا التَّوبيخِ العظيمِ، ويقولون لهم: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾؛ أيْ: على أيِّ حالٍ كُنتُم؟ وبأيِّ شيءٍ تَمَيَّزْتُمْ عنِ المشركِينَ؟ بل كَثَّرْتُم سَوادَهُم، ورُبَّما ظاهَرْتُمُوهُم على المؤمنِينَ، وفاتَكُمُ الخَيرُ الكثيرُ، والجهادُ مع رسولِهِ، والكونُ مع المسلمِينَ، ومعاونتهم على أعدائِهِم»[2].

وقد حَضَّ اللهُ ﷻ على الهجرةِ من بلدِ الشِّركِ لما في الهجرةِ منَ المنافعِ الكثيرةِ.

قالَ تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً

---

(١) جامع البيان: (٧/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠).
(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٣٤٢).

وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

قال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «هذا تحريضٌ على الهجرةِ، وترغيبٌ في مفارقةِ المشركِينَ، وأنَّ المؤمِنَ حَيثُما ذَهَبَ وَجَدَ عنهم مَندُوحَةً ومَلْجَأً يَتَحصَّنُ فيه»(١).

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «هذا في بيانِ الحثِّ على الهجرةِ والتَّرغيبِ، وبيانِ ما فيها منَ المصالِحِ، فوَعَدَ الصَّادقُ في وَعدِهِ أنَّ مَن هَاجَرَ في سبيلِهِ ابتغاءَ مَرضاتِهِ أنَّه يَجِدُ مُراغَمًا في الأرضِ وسَعَةً، فالمُراغَمُ مُشتَمِلٌ على مصالِحِ الدِّينِ، والسَّعَة على مصالحِ الدُّنيا؛ وذلكَ أنَّ كثيرًا منَ النَّاسِ يَتَوَهَّمُ أنَّ في الهجرةِ شَتَاتًا بعدَ الأُلفَةِ، وفَقْرًا بعدَ الغِنَى، وذُلًّا بعدَ العِزِّ، وشِدَّةً بعدَ الرَّخاءِ؛ والأمرُ ليسَ كذلكَ؛ فإنَّ المؤمِنَ ما دامَ بَينَ أظهُرِ المشركِينَ فدِينُهُ في غايةِ النَّقصِ؛ لا في العباداتِ القاصرةِ عليه؛ كالصَّلاةِ ونحوِها، ولا في العباداتِ المتعدِّيَةِ؛ كالجهادِ بالقَولِ والفِعلِ، وتوابِعِ ذلكَ؛ لعَدَمِ تمكُّنِهِ من ذلكَ، وهو بصَدَدِ أن يُفْتَنَ عن دِينِهِ خُصوصًا إن كانَ مُستَضْعَفًا؛ فإذا هاجَرَ في سبيلِ اللهِ، تَمَكَّنَ من إقامةِ دِينِ اللهِ وجهادِ أعداءِ اللهِ ومُراغَمَتِهِم، فإنَّ المُراغَمَةَ: اسمٌ جامعٌ لكُلِّ ما يَحصُلُ به إغاظةٌ لأعداءِ اللهِ؛ من قولٍ وفِعلٍ، وكذلكَ يَحصُلُ له سَعَةٌ في رِزقِهِ، وقد وَقَعَ كما أخبَرَ اللهُ تعالى.

واعتَبِرْ ذلكَ بالصَّحابةِ رضي الله عنهم؛ فإنَّهم لمَّا هاجَرُوا في سبيلِ اللهِ، وتركُوا ديارَهُم وأولادَهُم وأموالَهُم للهِ؛ كَمُلَ بذلكَ إيمانُهُم، وحَصَلَ لهم منَ الإيمانِ التَّامِّ والجهادِ العظيمِ والنَّصرِ لِدِينِ اللهِ ما كانُوا به أئِمَّةً

(١) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٣٩٠ ـ ٣٩١).

لمن بعدَهُم، وكذلكَ حَصَلَ لهم ممَّا يَتَرَتَّبُ على ذلكَ مِنَ الفُتوحاتِ والغنائمِ، ما كانُوا به أغنَى النَّاسِ، وهكذا كلُّ مَن فَعَلَ فِعلَهُم، حَصَلَ له ما حَصَلَ لهم إلى يومِ القيامةِ»[1].

الأمرُ الثَّاني: الحَذَرُ من مُخالَطَةِ المشركِينَ وأهلِ البِدَعِ والمعاصي:

مِنَ الأسبابِ الَّتِي تَجعلُ الإنسانَ يُعرِضُ عن دِينِ اللهِ: الاختلاطُ بالمشركِينَ وأهلِ البِدَعِ والمعاصِي سواءٌ في مَجالِسِهِم أو في اجتماعاتِهِم أو في ندواتِهِم؛ فإنَّ الإنسانَ رُبَّما تَأَثَّرَ بهم؛ فنَهَى اللهُ ﷻ عن ذلكَ.

قالَ تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾؛ للهِ بالتَّوحيدِ، وانقادَ له بالطَّاعةِ؛ لأنِّي أولَى من غيري بامتثالِ أوامرِ ربِّي، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾؛ أيْ: ونُهِيتُ أيضًا عن أنْ أكونَ مِنَ المشركِينَ لا في اعتقادِهِم، ولا في مُجالَسَتِهِم، ولا في الاجتماعِ بهم، فهذا أفرَضُ الفُروضِ عليَّ، وأوجَبُ الواجباتِ»[2].

وقالَ تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وفي هذه الآيةِ الدَّلالةُ الواضحةُ على النَّهيِ

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٣٤٣ - ٣٤٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٤٦٤ - ٤٦٥).

عن مُجالسةِ أهلِ الباطِلِ من كُلِّ نوعٍ منَ المبتَدِعَةِ والفَسَقَةِ عندَ خَوضِهِم في باطِلِهِم»[١].

وقالَ القُرطبيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فدَلَّ بهذا على وُجوبِ اجتنابِ أصحابِ المعاصِي إذا ظَهَرَ منهم مُنكَرٌ؛ لأنَّ مَن لم يَجتَنِبْهُم، فقد رَضِيَ فِعلَهُم، والرِّضَا بالكُفرِ كُفرٌ؛ قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾؛ فكُلُّ مَن جَلَسَ في مجلسِ معصيةٍ، ولم يُنكِرْ عليهم، يكونُ معهم في الوِزرِ سواءً، ويَنبَغِي أن يُنكِرَ عليهم إذا تكلَّمُوا بالمعصيةِ وعَمِلُوا بها؛ فإن لم يَقدِرْ على النَّكيرِ عليهم؛ فيَنبَغِي أن يَقُومَ عنهم؛ حتَّى لا يكونَ من أهلِ هذه الآيةِ»[٢].



(١) جامع البيان: (٧/ ٦٠٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٧/ ١٨٥).

المَطْلَبُ الثَّانِي

سُبُلُ الوقايةِ مِن فِتَنِ الحياةِ الدُّنيا

المسألةُ الأولى: سُبلُ الوقايةِ من فتنةِ النِّساءِ

ويكونُ ذلك بأُمورٍ؛ أَهمُّها:

١ ـ تَذَكُّرُ ما أعدَّهُ اللهُ للمُتَّقِينَ يومَ القيامةِ:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ ﷻ فِتنَ الدُّنيا ومنها فتنةُ النِّساءِ؛ في قولِهِ تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤]، قالَ بعدَها: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥]، وفي هذا دَلالةٌ على أنَّ اللهَ ﷻ يُذَكِّرُ عِبادَهُ بأنَّ مَنِ اتَّقَى اللهَ ﷻ ولم تَغُرَّهُ فِتَنُ الدُّنيا ـ ومنها فِتنةُ النِّساءِ ـ فإنَّ له أفضلَ مِن ذلكَ يومَ القيامةِ.

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وتمامُ ذلكَ أنَّ الله تعالى أخبَرَ بعدَها عن دارِ القرارِ ومصيرِ المتَّقِينَ الأبرارِ، وأخبَرَ أنَّها خَيرٌ مِن ذلكمُ المذكورِ، ألَا وهِيَ الجنَّاتُ العالياتُ ذاتُ المنازلِ الأنيقةِ، والغُرَفِ العاليةِ، والأشجارِ المتنوِّعَةِ المُثمِرَةِ بأنواعِ الثِّمارِ، والأنهارِ الجاريةِ على حَسَبِ مُرادِهِم، والأزواجِ المُطهَّرةِ من كُلِّ قَذَرٍ ودَنَسٍ وعَيبٍ ظاهرٍ وباطنٍ، مع الخُلودِ

الدائمِ الَّذي به تمامُ النَّعيمِ، مع الرِّضوانِ منَ اللهِ الَّذي هو أكبَرُ نعيمٍ؛ فقِسْ هذه الدَّارَ الجليلةَ بتِلكَ الدَّارِ الحقيرةِ، ثمَّ اخترْ لِنَفسِكَ أحسنَهُما واعرِضْ على قلبِكَ المفاضَلَةَ بينَهُما ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥]؛ أيْ: عالِمٌ بما فيهم منَ الأوصافِ الحَسَنَةِ والأوصافِ القَبِيحَةِ، وما هو اللَّائِقُ بأحوالِهِم، يُوَفِّقُ مَن شاءَ منهم، ويَخذُلُ مَن شاءَ؛ فالجنَّةُ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ وَصْفَهَا ونَعْتَها بأكمَلِ نعتٍ؛ وَصَفَ أيضًا المُستحقِّينَ لها؛ وهمُ الَّذينَ اتَّقَوْهُ بفِعلِ ما أَمَرَ به وتَرْكِ ما نَهَى عنه»[1].

٢ ـ الإخلاصُ:

إنَّ الإخلاصَ منَ الأُمورِ العظيمةِ الَّتِي يَعصِمُ اللهُ به عبدَهُ منَ الفواحشِ والمُنكراتِ وخاصَّةً المنكراتِ الكبيرةَ، وأكبَرُ دليلٍ على هذا قصَّةُ النَّبيِّ الكريمِ يُوسُفَ ـ عليهِ الصلاة والسَّلامُ ـ عندَما راوَدَتْهُ امرأةُ العزيزِ عن نفسِهِ فعَصَمَهُ اللهُ ﷻ بإخلاصِهِ.

قالَ تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٣، ٢٤][2].

قالَ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «فامرأةُ العزيزِ كانت مُشرِكَةً فوَقَعَتْ مع تزوُّجِها فيما وقعَتْ فيه منَ السُّوءِ، ويُوسُفُ عليه السلام مع عُزُوبَتِهِ، ومُراوَدَتِها

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (ص١٢٤).

(٢) قرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف بفتح اللام من: ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب بكسرها. انظر: إتحاف فضلاء البشر: (٢/ ١٤٥).

له، واستعانتِها عليه بالنِّسوةِ، وعقوبتِها له بالحَبسِ على العِفَّةِ؛ عَصَمَهُ اللهُ بإخلاصِهِ للهِ»(١).

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «والجامعُ لذلكَ كلِّهِ أنَّ اللهَ صَرَفَ عنه السُّوءَ والفَحشاءَ؛ لأنَّهُ من عِبادِهِ المُخلَصِينَ له في عباداتِهِمُ الَّذينَ أخلَصَهُمُ اللهُ واختارَهُم، واختَصَّهُم لنفسِهِ، وأسدَى عليهم مِنَ النِّعَمِ، وصَرَفَ عنهم مِنَ المكارِهِ ما كانُوا به من خيارِ خَلقِهِ»(٢).

«ومِن فوائدِ هذه الآياتِ بيانُ أنَّ الإخلاصَ ممَّا يُكسَى به العبدُ ثَوبَ العِفَّةِ، وبه يُنْجَى مِنَ الفِتنةِ؛ فمَن كانَ أشدَّ حُبًّا للهِ، قَدَّمَ مَحبُوبَ اللهِ على حَظِّ نفسِهِ، واضْمَحَلَّ عندَهُ حُبُّ غيرِهِ مَهمَا تعارَضَ الحُبَّانِ واعتَرَكَا، وبهذا نَجَّى اللهُ تعالى عبدَهُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ من هذه الفتنةِ العظيمةِ؛ لأنَّهُ كانَ عَبْدًا مُخلَصًا ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾؛ خَلَّصَ قَلبَهُ منَ الشِّركِ ومِنِ اتِّباعِ الهَوَى؛ فخَلَّصَهُ اللهُ تعالى بفَضلِهِ منَ الفِتَنِ»(٣).

٣ ـ غَضُّ البَصَرِ:

البَصَرُ مِنَ النِّعَمِ العظيمةِ الَّتِي أنعَمَ اللهُ بها على الإنسانِ؛ لكِنَّ بعضَ النَّاسِ عَصَى اللهَ بهذه النِّعمَةِ وأطلَقَ بَصَرَهُ فيما حَرَّمَ اللهُ؛ فأثَّرَ على قَلبِهِ وأورَدَهُ المَهالِكَ.

قالَ ابنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «والبَصَرُ هو البابُ الأكبَرُ للقَلبِ، وأعمَرُ طُرُقِ الحواسِّ إليه، وبحَسَبِ ذلكَ كَثُرَ السُّقوطُ من جِهَتِهِ، ووَجَبَ

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٥/ ٤٢١).

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٧٨٤)، ولاحِظْ كيفَ جمع رَحِمَهُ اللهُ في الآية المعنيين على القراءتين.

(٣) آيات للسائلين: (ص١٦٠).

التَّحذيرُ منه»(١)؛ ولذلكَ أَمَرَ اللهُ عبادَهُ المؤمِنِينَ بِغَضِّ أبصارِهِم حتَّى لا يَقَعُوا في الفِتَنِ.

قالَ تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

قالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللهُ: «والأمرُ بِحِفظِ الفُروجِ عَقِبَ الأمرِ بالغَضِّ مِنَ الأبصارِ؛ لأنَّ النَّظَرَ رائِدُ الزِّنى؛ فلَمَّا كانَ ذَرِيعَةً له، قَصَدَ المُتَذَرِّعُ إليه بالحِفظِ تَنْبِيهًا على المبالَغَةِ في غَضِّ الأبصارِ في محاسِنِ النِّساءِ»(٢).

وقد ذَكَرَ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ ثلاثَ فوائِدَ لِغَضِّ البَصَرِ؛ وهِيَ:

أَوَّلًا: حلاوةُ الإيمانِ ولَذَّتُهُ الَّتِي هي أَحلَى وأطيَبُ مما تَرَكَهُ للهِ؛ فإنَّ مَن تَرَكَ شَيئًا للهِ، عَوَّضَهُ اللهُ خَيْرًا منه.

ثانيًا: نُورُ القَلبِ والفراسةُ.

ثالثًا: قُوَّةُ القَلبِ وثَباتُهُ وشَجاعَتُهُ؛ فيَجعلُ اللهُ له سُلطانَ البصيرةِ مع سُلطانِ الحُجَّةِ(٣).

٤ ـ الزَّواجُ:

لمَّا أَمَرَ اللهُ تعالى المؤمِنِينَ والمؤمناتِ بغَضِّ البَصَرِ؛ في قَولِهِ تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ

---

(١) المحرر الوجيز: (٦/ ٣٧٣).
(٢) التحرير والتنوير: (١٨/ ٢٠٤).
(٣) انظر: مجموع الفتاوى: (١٥/ ٤٢٠ ـ ٤٢٦) باختصار.

بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠، ٣١]، عَقَّبَهُ بالأمرِ بالزَّواجِ؛ لأنَّه يَحصُلُ به غَضُّ البَصرِ، وإحصانُ الفَرْجِ.

قالَ تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

قالَ الزَّمخشريُّ(١) رَحِمَهُ اللهُ: «وما أحسَنَ ما رَتَّبَ هذه الأوامِرَ؛ حيثُ أَمَرَ أوَّلًا بما يَعصِمُ منَ الفتنةِ ويُبعِدُ من مُواقَعةِ المعصيةِ وهو غَضُّ البَصَرِ، ثمَّ بالنِّكاحِ الَّذي يُحصَنُ به الدِّينُ ويَقَعُ به الاستغناءُ بالحلالِ عنِ الحرامِ، ثمَّ بالحَمْلِ على النَّفْسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ وعَزْفِها عنِ الطُّموحِ إلى الشَّهوةِ عندَ العَجزِ عنِ النِّكاحِ إلى أن يُرزَقَ القُدرةَ عليه»(٢).

وقالَ: «فإنْ قُلتَ: لِمَ خَصَّ الصَّالحِينَ؟:

قُلتُ: لِيُحصِنَ دِينَهُم، ويَحفَظَ عليهم صلاحَهُم»(٣).

وقالَ محمَّدُ سيد طنطاوي رَحِمَهُ اللهُ: «أي: زوِّجوا ـ أيُّها الأولياءُ والسَّادةُ ـ مَن لا زَوجَ له منَ الرِّجالِ المسلمِينَ أوِ النِّساءِ المسلماتِ، ويَسِّرُوا لهم هذا الأمرَ ولا تُعَسِّرُوهُ؛ لأنَّ الزَّواجَ هو الطَّريقُ المشروعُ لقضاءِ الشَّهوةِ، ولِحفظِ النَّوعِ الإنسانيِّ، ولصِيانةِ الأنسابِ من الاختلاطِ، ولإيجادِ مجتمَعٍ تَفشُو فيه الفضيلةُ، وتموتُ فيه الرَّذِيلَةُ»(٤).

---

(١) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري من علماء اللغة، مذهبه الاعتزال، وكان داعية إليه، توفي سنة: (٥٣٨هـ). انظر: سير أعلام النبلاء: (٣٩/ ١٤٥).

(٢) الكشاف: (٤/ ٣٠١).

(٣) المصدر السابق: (٤/ ٢٩٨).

(٤) التفسير الوسيط: (١٠/ ١٢١).

وقد وَرَدَ في السُّنَّةِ المبارَكةِ الحثُّ على الزَّواجِ؛ قال ﷺ: **(يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ، فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلفَرْجِ، وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ، فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ)**[1].

بل إنَّ من فَضلِ اللهِ ﷻ أنْ شَرَعَ للرَّجُلِ التَّعدُّدَ منَ النِّساءِ إلى أربعِ زَوجاتٍ:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وذلكَ لأنَّ الرَّجُلَ قد لا تَندَفِعُ شَهوَتُهُ بالواحدةِ؛ فأُبيحَ له واحدةٌ بعدَ واحدةٍ، حتَّى يَبلُغَ أربعًا؛ لأنَّ في الأربعِ غُنيةً لِكُلِّ أحَدٍ، إلا ما نَدَرَ، ومع هذا فإنَّما يُباحُ له ذلكَ إذا أَمِنَ على نفسِهِ الجَوْرَ والظُّلمَ، ووَثِقَ بالقيامِ بحُقُوقِهِنَّ»[2].

٥ ـ الصَّوْمُ:

بعدَ أن أَمَرَ اللهُ ﷻ بالنِّكاحِ وحَثَّ عليه، ولأنَّهُ يُوجَدُ منَ النَّاسِ مَن ليسَ لَدَيْهِ قُدرةٌ على الزَّواجِ من جهةِ المالِ؛ فقد أَمَرَ اللهُ هذا الصِّنفَ مِنَ النَّاسِ بالاستعفافِ حتَّى يُغنِيَهُمُ اللهُ مِن فَضلِهِ.

---

(١) صحيح البخاري: (٣/ ١٦٣٢)، كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم، حديث رقم: (٥٠٦٦)، صحيح مسلم: (١/ ٦٣٠)، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، حديث رقم: (١٤٠٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٢٧٥).

قالَ تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣]؛ ويَدخُلُ في الاستعفافِ الصَّومُ؛ فإنَّهُ مِنَ الأُمورِ الَّتِي تُلجِمُ الشَّهوةَ.

قالَ الشَّعراويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَعنِي: يُحاوِلُ العفافَ ويَطلُبُهُ ويَبحَثُ عن أسبابِهِ، يُجاهِدُ أن يكونَ عَفِيفًا، وأوَّلُ أسبابِ العَفافِ أن يَغُضَّ بَصَرَهُ حِينَ يَرَى، فلا يُوجَدُ له مُهَيِّجٌ ومُثِيرٌ، فإنْ وَجَدَ في نَفسِهِ فُتُوَّةً وقوَّةً، فعليهِ أن يُلجِمَها ويُضعِفَها بالوسائلِ الشَّرعيَّةِ؛ كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: (**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ** - يَعنِي: نَفَقاتِ الحياةِ الزَّوجيَّةِ - **فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَن لَّمْ يَجِدْ، فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**)[١].

والصَّومُ يَعمَلُ على انكسارِ هذه الشَّهوةِ ويُهدِّئُ من شَراسةِ الغَريزةِ؛ ذلكَ لأنَّهُ يَأكُلُ فقط ما يُقِيمُ أَوَدَهُ، ولا يَبقَى في بَدَنِهِ ما يُثِيرُ الشَّهوةَ»[٢].

٦ - الْتِزَامُ الحجابِ:

والمقصودُ به سَتْرُ المرأةِ جميعَ بَدَنِها بما في ذلكَ تغطيةُ وَجهِها؛ قال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا لكمالِ الاستتارِ، ويَدُلُّ ذلكَ على أنَّ الزِّينةَ الَّتِي يَحرُمُ إبداؤُها يَدخُلُ فيها جميعُ البَدَنِ»[٣].

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «يَرحَمُ اللهُ نِسَاءَ المُهاجراتِ الأُوَلِ؛ لمَّا أنزَلَ اللهُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، شَقَقْنَ مُرُوطَهُنَّ، فَاخْتَمَرْنَ بِهَا»[٤]،

---

(١) سبق تخريجه. **انظر**: (ص٢١٨). (٢) تفسير الشعراوي: (١٦/ ١٠٢٦٤).
(٣) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١١٦٣).
(٤) صحيح البخاري: (٣/ ١٤٩٢)، كتاب التفسير، باب ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، حديث رقم: (٤٧٥٨).

قالَ الحافظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «فاختَمَرْنَ بها؛ أي: غَطَّيْنَ وُجُوهَهُنَّ»(١).

والأدلَّةُ كثيرةٌ على وُجوبِ التزامِ المرأةِ بالحجابِ؛ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

قال ابنُ بازٍ رَحِمَهُ اللهُ: «فهذه الآيةُ الكريمةُ نَصٌّ واضحٌ في وُجوبِ تحجُّبِ النِّساءِ عنِ الرِّجالِ وتَسَتُّرِهِنَّ منهم، وقد أوضَحَ اللهُ سبحانه في هذه الآيةِ أنَّ التَّحجُّبَ أطهَرُ لقُلوبِ الرِّجالِ والنِّساءِ وأبعَدُ عنِ الفاحشةِ وأسبابِها، وأشارَ سبحانه إلى أنَّ السُّفورَ وعَدَمَ التَّحجُّبِ خُبثٌ ونجاسةٌ، وأنَّ التَّحجُّبَ طهارةٌ وسلامةٌ؛ فيا معاشِرَ المسلمِينَ تأدَّبُوا بتأديبِ اللهِ، وامتَثِلُوا أمْرَ اللهِ، وألزِمُوا نساءَكُم بالتَّحجُّبِ الَّذي هو سببُ الطَّهارةِ ووسيلةُ النَّجاةِ»(٢).

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «هذه الآيةُ الَّتِي تُسَمَّى آيةَ الحِجابِ؛ فأَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ أن يَأمُرَ النِّساءَ عُمومًا، ويَبدَأَ بزَوجاتِهِ وبناتِهِ؛ لأنَّهُنَّ آكَدُ مِن غيرِهِنَّ، . . .أنْ ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾، وهُنَّ اللَّاتِي يَكُنَّ فَوقَ الثِّيابِ من مِلْحَفَةٍ وخِمارٍ ورِداءٍ ونحوِهِ؛ أي: يُغَطِّينَ بها وُجُوهَهُنَّ وصُدُورَهُنَّ.

ثم ذَكَرَ حِكمَةَ ذلكَ؛ فقالَ: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَۗ﴾؛ دَلَّ على وُجودِ أَذِيَّةٍ إن لم يَحتَجِبْنَ، وذلكَ: لأنَّهُنَّ إذا لم يَحتَجِبْنَ، رُبَّما ظُنَّ أنَّهُنَّ غيرُ عَفِيفاتٍ؛ فيَتَعَرَّضُ لَهُنَّ مَن في قَلبِهِ مَرَضٌ؛ فيُؤذِيهِنَّ، ورُبَّما

---

(١) فتح الباري: (١٠/٤٤٦).

(٢) التبرج وخطره: (ص٨).

استُهِينَ بهِنَّ، وظُنَّ أنَّهُنَّ إماءٌ؛ فتهاوَنَ بِهِنَّ مَن يُريدُ الشَّرَّ؛ فالاحتجابُ حاسِمٌ لمطامِعِ الطَّامعِينَ فِيهِنَّ»[١].

فالحجابُ فيه سَدٌّ للفِتنةِ خاصَّةً الوجهَ الَّذي هو أعظَمُ الزِّينةِ وبابُ الفتنةِ.

٧ ـ عَدَمُ خُضوعِ المرأةِ في كلامِهَا:

خُضوعُ المرأةِ في كلامِها من دواعِي الفتنةِ بالنِّساءِ؛ فلِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ ﷻ المرأةَ أَلَّا تخضَعَ في قولِها، ولا تَلِينَ في كلامِها.

قالَ تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾؛ أي: في مخاطَبةِ الرِّجالِ، أو بحَيثُ يَسمَعُونَ فتَلِنَّ في ذلكَ، وتَتَكَلَّمْنَ بكلامٍ رقيقٍ يَدعُو ويَطمَعُ ﴿ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾؛ أي: مَرَضُ شَهوةِ الزِّنا؛ فإنَّهُ مُستَعِدٌّ يَنتَظِرُ أدنَى مُحرِّكٍ يُحرِّكُهُ؛ لأنَّ قَلبَهُ غيرُ صحيحٍ؛ فإنَّ القَلبَ الصَّحيحَ ليسَ فيه شَهوةٌ لمَا حَرَّمَ اللهُ؛ فإنَّ ذلكَ لا تكادُ تُمِيلُهُ ولا تُحَرِّكُهُ الأسبابُ؛ لصِحَّةِ قَلبِهِ، وسلامتِهِ منَ المرضِ بخِلافِ مريضِ القلبِ الَّذي لا يَتَحَمَّلُ ما يَتَحَمَّلُ الصَّحيحُ، ولا يَصبِرُ على ما يَصبرُ عليه؛ فأدنَى سببٍ يُوجَدُ يَدعُوهُ إلى الحرامِ يُجِيبُ دعوتَهُ ولا يَتَعاصَى عليه؛ فهذا دليلٌ على أنَّ الوسائلَ لها أحكامُ المقاصدِ؛ فإنَّ الخُضوعَ بالقَولِ واللِّينِ فيه في الأصلِ مباحٌ، ولكنْ لمَّا كانَ وسيلةً إلى المحرَّمِ؛ مُنِعَ منه؛ ولهذا يَنبَغِي للمَرأةِ في مخاطَبةِ الرِّجالِ أن لَّا تُلِينَ لهمُ القَولَ»[٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١٤٠١) باختصار.

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١٣٨٣ ـ ١٣٨٤).

٨ ـ القرارُ في البَيتِ:

خُروجُ المرأةِ من بَيتِها لغَيرِ حاجةٍ قد يكونُ من دواعِي الفتنةِ؛ فلذلكَ أَمَرَ اللهُ ﷻ المرأةَ بالقَرارِ في بَيتِها.

قالَ تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وقولُهُ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾؛ أي: الزَمْنَ بُيُوتِكُنَّ؛ فلا تَخرُجْنَ لغيرِ حاجةٍ»(١).

وقالَ ابنُ بازٍ رَحِمَهُ اللهُ: «فأَمَرَ اللهُ أُمَّهاتِ المؤمنِينَ ـ وجميعُ المسلماتِ والمؤمناتِ داخلاتٌ في ذلكَ ـ بالقَرارِ في البُيوتِ؛ لِمَا في ذلكَ من صيانتِهِنَّ وإبعادِهِنَّ عن وسائلِ الفسادِ؛ لأنَّ الخُروجَ لغَيرِ حاجةٍ قد يُفضِي إلى التَّبرُّجِ، كما يُفضِي إلى شُرورٍ أُخرَى»(٢)(٣).

المسألةُ الثَّانيةُ: سُبُلُ الوقايةِ من فِتنةِ المالِ

ويكونُ ذلكَ بأُمورٍ؛ أهمُّها:

١ ـ تَذَكُّر أنَّ المالَ قد يكونُ استِدْراجًا منَ اللهِ:

لا بُدَّ لصاحبِ المالِ أن يَحذَرَ كُلَّ الحَذَرِ؛ فقد يكونُ مالُهُ الَّذي وَهَبَهُ اللهُ إيَّاهُ استِدْراجًا له.

قالَ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٦/٤٠٩). (٢) التبرج وخطره: (ص٢٣).

(٣) وهناك سبل أخرى كثيرة للوقاية من هذه الفتنة. انظر: الفتنة وآثارها المدمرة: (ص٧٠ ـ ٧٨).

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يَعني: أَيَظُنُّ هؤلاءِ المغرورُونَ أنَّ ما نُعطِيهِم مِنَ الأموالِ والأولادِ لكَرامَتِهِم علينا ومَعَزَّتِهِم عندَنا؟! كَلَا؛ ليسَ الأمرُ كما يزعمونَ في قولِهِم: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، لقد أخطَؤُوا في ذلكَ وخابَ رجاؤُهُم، بل إنَّما نَفعَلُ بهم ذلكَ استِدرَاجًا وإنظارًا وإملاءً؛ ولهذا قالَ: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾»[1].

٢ ـ تَذَكُّرُ القيامةِ:

عَقَّبَ اللهُ ﷻ بعضَ الآياتِ الَّتِي جاءَ فيها ذِكرُ المالِ بالتَّذكيرِ بالقيامةِ وما يكونُ فيها؛ كقولِهِ تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢٠، ٢١].

قالَ القُرطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قولُهُ تعالى: ﴿كَلَّآ﴾؛ أيْ: ما هكذا يَنبَغِي أن يكونَ الأمرُ؛ فهو رَدٌّ لانكبابِهِم على الدُّنيا وجمعِهِم لها؛ فإنَّ مَن فَعَلَ ذلكَ يَندَمُ يومَ تُدَكُّ الأرضُ، ولا يَنفَعُهُ النَّدمُ»[2].

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أيْ: ليسَ ما أحبَبْتُمْ مِنَ الأموالِ، وتنافَسْتُمْ فيه مِنَ اللَّذَّاتِ بباقٍ لكم، بل أمامَكُم يومٌ عظيمٌ، وهَولٌ جسيمٌ تُدَكُّ فيه الأرضُ والجبالُ وما عليها حتَّى تُجعَلَ قَاعًا صَفْصَفًا لا عِوَجَ فيه ولا أمْتًا»[3].

وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٨].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يُخبِرُ تعالى عنِ الإنسانِ أنَّهُ ذو فَرَحٍ وأَشَرٍ

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٥/ ٤٧٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٢٢/ ٢٨٠).
(٣) تيسير الكريم الرحمٰن: (٤/ ١٩٦٨).

وبَطَرٍ وطُغيانٍ إذا رأى نفسَهُ قدِ استَغْنَى وكَثُرَ مالُهُ، ثم تَهَدَّدَهُ وتَوَعَّدَهُ ووَعَظَهُ؛ فقالَ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾؛ أي: إلى اللهِ المَصيرُ والمَرجِعُ، وسيُحاسِبُكَ على مالِكَ؛ مِن أينَ جَمَعْتَهُ؟ وفِيمَ صَرَفْتَهُ؟»[1][2].

٣ ـ تَذَكُّرُ أنَّ المالَ لا يَنفَعُ يومَ القيامةِ:

دَلَّ القُرآنُ الكريمُ على أنَّ المالَ لا يَنفَعُ صاحبَهُ يومَ القيامةِ؛ قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «أيْ: لا يَقِي المرءَ من عذابِ اللهِ مالُهُ، ولوِ افتَدَى بمِلءِ الأرضِ ذَهَبًا»[3].

وقالَ تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ١١].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ﴾؛ الَّذي أطغَاهُ واستغنَى به وبَخِلَ به إذا هَلَكَ وماتَ؛ فإنَّهُ لا يَصحَبُ الإنسانَ إلَّا عملُهُ الصَّالحُ»[4][5].

وهذا المالُ الَّذي جَعَلَ صاحبَهُ يَبْطَرُ ويَتَكَبَّرُ عنِ الحقِّ ويُعرِضُ عن آياتِ اللهِ لن يُغنِي عن صاحبِهِ شَيئًا من عذابِ اللهِ يومَ القيامةِ.

---

(١) يشير لقوله ﷺ: (لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟)، سنن الترمذي: (٤/ ٤١٨)، قال الألباني: «صحيح». انظر: صحيح سنن الترمذي: (٢/ ٥٧٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٨/ ٤٣٧).

(٣) المصدر السابق: (٦/ ١٤٩).

(٤) يشير لقوله ﷺ: (يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ؛ يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ؛ فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ)، صحيح البخاري: (٤/ ٢٠٤٢)، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، حديث رقم: (٦٥١٤)، صحيح مسلم: (٢/ ١٣٥٣)، كتاب الزهد والرقاق، حديث رقم: (٢٩٦٠).

(٥) تيسير الكريم الرحمٰن: (٤/ ١٩٧٥).

قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُخبِرُ تعالى عنِ الكُفَّارِ أنَّهم وَقودُ النَّارِ، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢] وليسَ ما أُوتُوهُ في الدُّنيا منَ الأموالِ والأولادِ بنافعٍ لهم عندَ اللهِ، ولا بمُنجِيهِم من عذابِهِ وأليمِ عقابِهِ»(١).

٤ ـ تَذَكُّرُ الأجرِ العظيمِ لمَنْ آثَرَ طاعةَ رَبِّهِ على المالِ:

مع شِدَّةِ فتنةِ المالِ وكثرةِ الاغترارِ به، إلَّا أنَّ اللهَ ﷻ رَتَّبَ الأجرَ العظيمَ لمَنِ استَخدَمَ هذا المالَ في طاعتِهِ سبحانه.

قالَ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

قالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وعَطَفَ قولَهُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ على قوله: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ ما عندَ اللهِ منَ الأجرِ على كَفِّ النَّفسِ عنِ المنهيَّاتِ هو خيرٌ منَ المنافعِ الحاصلةِ عنِ اقتحامِ المناهِي لأجْلِ الأموالِ والأولادِ»(٢).

المسألةُ الثَّالثةُ: سُبُلُ الوِقايةِ من فِتنةِ الأزواجِ والأولادِ

وذلكَ في مِحوَرَيْنِ:

المِحوَرُ الأوَّلُ: سُبُلُ الوقايةِ من فتنةِ الأزواجِ:

وذلكَ بأُمورٍ؛ أهمُّهَا:

(١) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ١٥).
(٢) التحرير والتنوير: (٩/ ٣٢٥).

١ ـ الحَذَرُ من طاعةِ الأزواجِ في معصيةِ اللهِ:

بَيَّنَ اللهُ ﷻ في كتابِهِ الكريمِ أنَّ منَ الأزواجِ مَن يكونُ عَدُوًّا، وهذه العداوةُ المقصودُ منها العداوةُ الَّتِي تَصُدُّ عن طاعةِ اللهِ؛ فلِذَلِكَ حَذَّرَ القُرآنُ الكريمُ من هذه الطَّاعةِ.

قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: يا أيُّها الَّذينَ صَدَّقُوا اللهَ ورَسولَهُ، ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾؛ يَصُدُّونَكُم عن سبيلِ اللهِ، ويُثَبِّطُونَكُم عن طاعةِ اللهِ؛ ﴿فَٱحْذَرُوهُمْۚ﴾؛ أن تَقبَلُوا منهم ما يَأمُرُونَكُم به من تَركِ طاعةِ اللهِ»[١].

وممَّا يَدُلُّ على التَّحذيرِ من فتنةِ الأزواجِ ما وَرَدَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: **(مَا رَأَيْتُ مِن نَّاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ!)**[٢].

قالَ الحافظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وليسَ المقصودُ بذِكرِ النَّقصِ في النِّساءِ لَومَهُنَّ على ذلكَ؛ لأنَّهُ مِن أصلِ الخِلقةِ، لكِنِ التَّنبيهُ على ذلكَ؛ تَحذيرًا من الافتتانِ بِهِنَّ؛ ولهذا رُتِّبَ العذابُ على ما ذُكِرَ مِنَ الكُفرانِ وغَيرِهِ، لا على النَّقصِ»[٣].

---

(١) جامع البيان: (٢٣/ ١٤).

(٢) صحيح البخاري: (١/ ١١٥) واللفظ له، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، حديث رقم: (٣٠٤)، صحيح مسلم: (١/ ٥١)، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله ككفر النعمة والحقوق، حديث رقم: (١٣٢).

(٣) فتح الباري: (١/ ٦٨٩).

٢ ـ تعليمُ الأزواجِ الدِّينَ:

أَمَرَ اللهُ ﷻ عبادَهُ المؤمنِينَ بتَعلِيمِ أهلِيهِم أُمورَ الدِّينِ الَّتِي تكونُ بها السَّعادةُ في الدُّنيا والآخرةِ والوقايةُ من عذابِ اللهِ، وحتَّى يكونُوا عَوْنًا للعَبدِ على طاعةِ ربِّهِ وقَبولِ دِينِهِ.

قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

عن قتادةَ رَحِمَهُ اللهُ قالَ: «تَقِيهِم: أن تَأْمُرَهُم بطاعةِ اللهِ، وتَنهَاهُم عن معصيتِهِ، وأن تقومَ عليهم بأمرِ اللهِ؛ تَأْمُرُهُم به، وتساعدُهُم عليه؛ فإذا رأيتَ للهِ ﷻ معصيةً، قَرَعْتَهُم عنها، وزَجَرْتَهُم عنها»[١].

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «ووقايةُ الأهلِ والأولادِ بتَأدِيبِهِم وتعليمِهِم، وإجبارِهِم على أمرِ اللهِ؛ فلا يَسلَمُ العبدُ إلَّا إذا قامَ بما أَمَرَ اللهُ به في نفسِهِ، وفيمَن تحتَ وِلايتِهِ منَ الزَّوجاتِ والأولادِ وغَيرِهِم ممَّن هم تحتَ وِلايتِهِ وتصرُّفِهِ»[٢].

وقد أثنَى اللهُ سبحانه على نَبِيِّهِ إسماعيلَ عليه السلام لقيامِهِ بتعليمِ أهلِهِ، وأمرِهِم بما يَنفَعُهُم في أُمورِ دِينِهِم.

قالَ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أي: كانَ مُقِيمًا لأمرِ اللهِ على أهلِهِ؛ فيَأْمُرُهُم بالصَّلاةِ المُتضمِّنَةِ للإخلاصِ للمعبودِ، وبالزَّكاةِ المتضمِّنَةِ للإحسانِ إلى

---

(١) جامع البيان: (٢٣/ ١٠٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن: (٤/ ١٨٥٣).

العَبيدِ، فكَمَّلَ نفسَهُ، وكمَّلَ غيرَهُ، وخُصوصًا أخصَّ النَّاسِ عندَهُ وهم أهلُهُ؛ لأنَّهُم أحقُّ بدَعوَتِهِ من غَيرِهِم»[١].

٣ ـ تَزَوُّجُ ذاتِ الدِّينِ:

مَدَحَ الله ﷻ في كتابِهِ الكريمِ الزَّوجاتِ الصَّالحاتِ، وفي هذا المدحِ حثٌّ على اختيارِ الزَّوجةِ الصَّالحةِ.

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «هُنَّ أعلَى طبقاتِ النِّساءِ، وخَيرُ ما حازَهُ الرِّجالُ، وهُنَّ المَذكُوراتُ في قولِهِ: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ٣٤].

أيْ: مُطيعاتٌ للهِ ولأزواجِهِنَّ، قد أَدَّتِ الحَقَّيْنِ، وفازَتْ بكِفلَينِ منَ الثَّوابِ، حافظاتٌ أنفُسَهُنَّ من جميعِ الرِّيَبِ، وحافظاتٌ لأمانتِهِنَّ ورعايةِ بُيُوتِهِنَّ، وحافظاتٌ للعائلةِ بالتَّربيةِ الحَسَنَةِ، والأدبِ النَّافعِ في الدِّينِ والدُّنيا، وعليهِنَّ بَذْلُ الجُهدِ والاستعانةُ باللهِ على ذلكَ؛ فلِهَذا قالَ: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾؛ أي: إذا وُفِّقْنَ لهذا الأمرِ الجليلِ فلْيَحْمَدْنَ اللهَ على ذلكَ، ويَعلَمْنَ أنَّ هذا من حِفظِهِ وتَوْفيقِهِ وتَيسِيرِهِ لها، فإنَّ من وُكِلَ إلى نفسِهِ فالنَّفسُ أمَّارةٌ بالسُّوءِ، ومن شاهَدَ مِنَّةَ اللهِ، وتَوَكَّلَ على اللهِ، وبَذَلَ مَقدورَهُ في الأعمالِ النَّافعةِ؛ كفاهُ اللهُ ما أَهَمَّهُ، وأَصلَحَ له أُمورَهُ، ويَسَّرَ له الخَيرَ، وأَجرَاهُ على عوائدِهِ الجميلةِ»[٢].

إنَّ مِن أعظَمِ ما يُعِينُ العبدَ على الصَّلاحِ وعلى قَبولِ هُدَى ربِّهِ الزَّوجةَ الصَّالحةَ وقد أوصَى بذلكَ النَّبيُّ ﷺ؛ فقالَ: (**تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ**:

---

(١) المصدر السابق: (٣/ ١٠٠٤).

(٢) تيسير اللطيف المنان: (ص١٣٧ ـ ١٣٨).

لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ)(١)، قالَ القُرطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فعلى الإنسانِ إذا لم يَصبِرْ في هذه الأزمانِ أن يَبحَثَ عن ذاتِ الدِّينِ لِيَسْلَمَ له الدِّينُ»(٢).

وقالَ النَّوويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وفي هذا الحديثِ الحَثُّ على مُصاحَبَةِ أهلِ الدِّينِ في كلِّ شيءٍ؛ لأنَّ صاحِبَهُم يَستَفِيدُ من أخلاقِهِم وبَرَكَتِهِم وحُسنِ طَرائِقِهِم، ويأمَنُ المفسدةَ من جِهَتِهِم»(٣).

٤ ـ الدُّعاءُ بصَلاحِ الأزواجِ:

من صفاتِ المؤمِنِينَ أنَّهُم يَدعُونَ بصَلاحِ أزواجِهِم؛ حتَّى يكونوا عَونًا لهم على طاعةِ اللهِ؛ قالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «لأنَّ نَفعَهُ يَعودُ عليهم؛ ولهذا جعلوا ذلكَ هِبَةً لهم؛ فقالوا: ﴿هَبْ لَنَا﴾؛ بل دعاؤُهم يعودُ إلى نَفعِ عمومِ المسلِمِينَ؛ لأنَّ بصَلاحِ مَن ذُكِرَ يكونُ سببًا لِصَلاحِ كثيرٍ ممَّنْ يَتَعَلَّقُ بهم ويَنتَفِعُ بهم»(٤).

المحورُ الثَّاني: سُبُلُ الوقايةِ من فتنةِ الأولادِ:

وذلكَ بأُمورٍ؛ أهمُّهَا:

١ ـ تَذَكُّرُ أنَّ كثرةَ الأولادِ قد تكونُ استِدراجًا منَ اللهِ:

إنَّ كثرةَ الأولادِ قد تكونُ استدراجًا منَ اللهِ ﷻ؛ فعلى العبدِ أن

---

(١) صحيح البخاري: (٣/ ١٦٣٩)، كتاب النكاح، باب الأَكْفَاءِ في الدِّينِ، حديث رقم: (٥٠٩٠) صحيح مسلم: (١/ ٦٧٠)، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، حديث رقم: (١٤٦٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٥/ ٤٥).

(٣) شرح النووي على مسلم: (١٠/ ٥٥).

(٤) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١٢٠٩).

يكونَ على حَذَرٍ من ذلكَ، ولْيَكُنْ مالُهُ وولدُهُ سَبَبًا في قَبولِ هُدَى ربِّهِ؛ قالَ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]؛ أي: أَيَظُنُّونَ أنَّ زيادَتَنا إيَّاهُم بالأموالِ والأولادِ دليلٌ على أنَّهُم من أهلِ الخيرِ والسَّعادةِ، وأنَّ لهم خيرَ الدُّنيا والآخرةِ، وهذا مقدَّمٌ لهم! ليسَ الأمرُ كذلكَ؛ ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝﴾؛ أنمَّا نُملِي لهم ونُمهِلُهُم ونُمِدُّهُم بالنِّعَمِ؛ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا، ولِيَتَوَفَّرَ عقابُهُم في الآخرةِ، ولِيَغْتَبِطُوا بما أُوتُوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]»[1].

٢ ـ تَذَكُّرُ أنَّ الأولادَ لن يَنفَعُوا يومَ القيامةِ إلَّا بإذنِ اللهِ:

دلَّ القُرآنُ الكريمُ على أنَّ الولدَ لن يُغنِيَ عن والدِهِ يومَ القيامةِ، وفي هذا ذِكرَى لِمَنْ كانَ وَلَدُهُ حامِلًا له على معصيةِ اللهِ والإعراضِ عن ذِكرِ رَبِّهِ.

قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ـ مُنذِرًا للنَّاسِ يومَ المعادِ، وآمِرًا لهم بتَقواهُ والخوفِ منه، والخشيةِ من يوم القيامةِ حيث: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾؛ أي: لو أرادَ أن يَفدِيَهُ بنَفسِهِ لَمَا قُبِلَ منه، وكذلكَ الولدُ لو أرادَ فِداءَ والدِهِ بنفسِهِ، لم يُتَقَبَّلْ منه»[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١١٣٤ ـ ١١٣٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٦/ ٣٥١).

وكذلكَ قالَ تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ٣].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: لا يَدْعُوَنَّكُم أرحامُكُم وقراباتُكُم وأولادُكُم إلى الكُفرِ باللهِ، واتِّخاذِ أعدائِهِ أولياءَ تُلقُونَ إليهم بالمودَّةِ؛ فإنَّهُ لن تَنفَعَكُم أرحامُكُم ولا أولادُكُم عندَ اللهِ يومَ القيامةِ؛ فتَدفَعَ عنكم عذابَ اللهِ يومَئِذٍ إنْ أنتُم عَصَيْتُمُوهُ في الدُّنيا، وكَفرتُم به»[١].

٣ ـ تَذَكُّرُ أنَّ الأولادَ لن يُغنُوا من عذابِ اللهِ:

قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يُخبِرُ تعالى عنِ الكُفَّارِ أنَّهُم وَقودُ النَّارِ، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢]، وليسَ ما أُوتُوهُ في الدُّنيا منَ الأموالِ والأولادِ بنافعٍ لهم عندَ اللهِ، ولا بِمُنجِيهِم من عذابِهِ وأليمِ عقابِهِ»[٢].

٤ ـ تَذَكُّرُ الأجرِ العظيمِ لِمَنْ آثَرَ طاعةَ اللهِ على الأولادِ:

قالَ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وقولُهُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: ثوابُهُ وعطاؤُهُ وجنَّاتُهُ خيرٌ لكم منَ الأموالِ والأولادِ؛ فإنَّهُ قد يوجَدُ منهم عَدُوٌّ، وأكثرُهُم لا يُغنِي عنكَ شَيئًا، واللهُ سبحانه هو المُتصرِّفُ المالِكُ للدُّنيا والآخرةِ، ولَديهِ الثَّوابُ الجزيلُ يومَ القيامةِ»[٣].

---

(١) جامع البيان: (٢٢/ ٥٦٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ١٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٤٢).

وقالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وعَطَفَ قولَهُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ على قولِهِ: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٌ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ ما عندَ اللهِ مِنَ الأجرِ على كَفِّ النَّفسِ عنِ المنهيَّاتِ هو خيرٌ منَ المنافِعِ الحاصلةِ عنِ اقتحامِ المناهِي لأَجْلِ الأموالِ والأولادِ»[1].

٥ - الحَذَرُ من طاعةِ الأولادِ في معصيةِ اللهِ:

قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: يا أيُّها الَّذينَ صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ، ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾ يَصُدُّونَكُم عن سبيلِ اللهِ، ويُثَبِّطُونَكُم عن طاعةِ اللهِ ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ أن تَقبَلُوا منهم ما يَأمُرُونَكُم به مِن تَركِ طاعةِ اللهِ»[2].

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا تحذيرٌ منَ اللهِ للمُؤمِنِينَ عن الاغترارِ بالأزواجِ والأولادِ؛ فإنَّ بعضَهُم عَدُوٌّ لكم، والعَدُوُّ هو الَّذي يُريدُ لكَ الشَّرَّ، فوَظِيفَتُكَ الحَذَرُ مِمَّنْ هذه صفتُهُ، والنَّفسُ مجبولةٌ على مَحبَّةِ الأزواجِ والأولادِ؛ فنَصَحَ تعالى عبادَهُ أن تُوجِبَ لهم هذه المَحبَّةُ الانقيادَ لمِطالِبِ الأزواجِ والأولادِ الَّتِي فيها محذورٌ شرعيٌّ، ورَغَّبَهُم في امتثالِ أوامرِهِ، وتقديمِ مَرضاتِهِ بما عندَهُ منَ الأجرِ العظيمِ المُشتَمِلِ على المَطالبِ العاليةِ والمحابِّ الغاليةِ، وأن يُؤثِرُوا الآخرةَ على الدُّنيا الفانيةِ المنقَضِيَةِ، ولَمَّا كانَ النَّهيُ عن طاعةِ الأزواجِ والأولادِ فيما هو ضَرَرٌ على العبدِ، والتَّحذيرُ من ذلكَ قد يُوهِمُ الغِلظَةَ عليهم وعقابَهُم أَمَرَ

---

(١) التحرير والتنوير: (٩/ ٣٢٥).　　(٢) جامع البيان: (٢٣/ ١٤).

تعالى بالحَذَرِ منهم، والصَّفحِ عنهم والعَفوِ؛ فإنَّ في ذلكَ منَ المَصالِحِ ما لا يُمكِنُ حَصْرُهُ؛ فقالَ: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾»[1].

٦ ـ الدُّعاءُ بصَلاحِ الأولادِ:

من صفاتِ المؤمِنِينَ أنَّهُم يَدعُونَ اللهَ بصَلاحِ أولادِهِم؛ فإنَّهُم إذا كانُوا صالِحِينَ؛ فإنَّ ذلكَ سَبَبٌ في أن يكونوا عَونًا لوالدِيهِم على طاعةِ اللهِ.

قالَ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا كما أنَّهُ دُعاءٌ لأزواجِهِم وذُرِّيَّاتِهِم في صلاحِهِم؛ فإنَّهُ دُعاءٌ لأنفُسِهِم لأنَّ نَفعَهُ يَعُودُ عليهم؛ ولهذا جَعَلُوا ذلكَ هِبَةً لهم؛ فقالُوا: ﴿هَبْ لَنَا﴾؛ بل دعاؤُهُم يعودُ إلى نَفعِ عُمومِ المُسلِمِينَ لأنَّ بصَلاحِ مَن ذُكِرَ يكونُ سَبَبًا لصَلاحِ كثيرٍ ممَّن يَتَعَلَّقُ بهم ويَنتَفِعُ بهم»[2].

٧ ـ التَّربيةُ الصَّالحةُ:

الوالدُ مسؤولٌ أمامَ اللهِ عن رَعِيَّتِهِ الَّتِي استرعاهُ اللهُ ﷻ؛ فيَجِبُ عليه أن يَحرِصَ على أن يُرَبِّيَهُم تَربِيَةً إيمانيَّةً؛ حتَّى يكونُوا ذُخرًا له في الدُّنيا والآخرةِ، ومِنَ الآياتِ الَّتِي دلَّتْ على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٤/ ١٨٤١).
(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١٢٠٩).

قالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ: «علِّمُوهُم وأدِّبُوهُم»(١).

قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «فمَن أهمَلَ تعليمَ ولدِهِ ما يَنفَعُهُ، وتَرَكَهُ سُدًى؛ فقد أساءَ إليه غايةَ الإساءةِ، وأكثَرُ الأولادِ إنَّما جاءَ فسادُهُم من قِبَلِ الآباءِ، وإهمالِهِم لهم، وتَرْكِ تعليمِهِم فرائضَ الدِّينِ وسُنَنَهُ؛ فأضاعُوهُم صِغَارًا؛ فلم يَنتَفِعُوا بأنفُسِهِم، ولم يَنفَعُوا آباءَهُم كِبَارًا، كما عاتَبَ بعضُهُم ولدَهُ على العقوقِ؛ فقالَ: يا أبَتِ إنَّكَ عَقَقْتَنِي صَغِيرًا فعَقَقْتُكَ كَبِيرًا، وأَضَعْتَنِي وَلِيدًا فَأَضَعْتُكَ شَيْخًا»(٢).

٨ ـ اختيارُ الأمِّ الصَّالحةِ:

وهذا يُستفادُ من قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]؛ فإنَّهُ لا يَخفَى أنَّ الأُمَّ إذا كانت صالحةً، فإنَّ لها تأثيرًا عظيمًا في صلاحِ أولادِها بإذنِ اللهِ ﷻ.

وقالَ تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وفي هذه الآيةِ الحثُّ على الاختيارِ قبلَ الخِطبةِ، وأنَّهُ يَنبَغِي أن لا يَتَزَوَّجَ إلَّا الجامعةَ للصِّفاتِ المقصودةِ بالنِّكاحِ؛ فإنَّ النِّكاحَ يُقصَدُ لأُمورٍ كثيرةٍ؛ من أهمِّهَا: كفاءةُ البَيتِ والعائلةِ وحُسنُ التَّدبيرِ وحُسنُ التَّربيةِ، وأهمُّ صفة هذا النَّوعِ الدِّينُ والعَقلُ»(٣).

❁ ❁ ❁

(١) جامع البيان: (٢٣/١٠٣).
(٢) تحفة المودود: (ص٣٨٧).
(٣) تيسير اللطيف المنان: (ص١٢٩ ـ ١٣٠).



سُبُلُ الوقايةِ من فتنةِ المُلكِ والجاهِ

والكلامُ عليها من جانبَينِ:

أ ـ سُبُلُ الوقايةِ من فِتنةِ المُلِك والجاهِ:

١ ـ تَذكُّرُ أنَّ الله مالِكُ الدُّنيا والآخرةِ:

عندَما يَتَذكَّرُ مَن وَهَبَهُ اللهُ المُلكَ في الدُّنيا هذه الحقيقةَ؛ وهي زوالُ كلِّ شيءٍ كانَ يَتَمَتَّعُ به الإنسانُ في الدُّنيا؛ فإنَّ هذا رائدٌ له لأن يَستَعمِلَ هذا المُلكَ في رضا اللهِ، وقد ذَكَرَ اللهُ ﷻ في كتابِهِ الكريم أنَّ المُلكَ يَزُولُ يومَ القيامةِ، وأنَّ المُلكَ للهِ وَحدَهُ يومَ القيامةِ؛ قالَ تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فتأويلُ قراءةِ مَن قَرَأَ ذلكَ: «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ»[1]، أنَّ للهِ المُلْكَ يومَ الدِّينِ خالِصًا دونَ جميعِ خَلْقِهِ الَّذينَ كانُوا قبلَ ذلكَ في الدُّنيا مُلوكًا جبابرةً يُنازِعُونَهُ المُلكَ، ويدافعونه الانفرادَ بالكبرياءِ والعظمةِ والسُّلطانِ والجبريَّةِ؛ فأيقَنُوا بلقاءِ اللهِ يومَ الدِّينِ أنَّهُمُ الصَّغَرةُ الأذِلَّةُ، وأنَّ له مِن دُونِهِم ودونِ غَيرِهِمُ المُلكَ والكبرياءَ، والعزَّةَ والبَهاءَ؛ كما قالَ جلَّ ذِكرُهُ وتَقَدَّسَتْ أسماؤُهُ في تنزيلِهِ: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ

---

(١) قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، وأبو جعفر بغير أَلِفٍ: (مَلِكِ)، وقرأ عاصم، والكسائي، ويعقوب، وخلف بالألف: (مالك). انظر: إتحاف فضلاء البشر: (١/ ٣٦٣).

شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فأخبرَ تعالى ذِكرُهُ أنه المنفردُ يومَئذٍ بالمُلكِ دونَ مُلوكِ الدُّنيا الَّذين صارُوا يومَ الدِّينِ مِن مُلكِهِم إلى ذِلَّةٍ وصَغارٍ، ومن دُنياهُم في المَعادِ إلى خَسارٍ»[١].

وقالَ تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحج: ٥٦].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: السُّلطانُ والمُلكُ إذا جاءَتِ السَّاعةُ للهِ وَحدَهُ لا شَرِيكَ له، ولا يُنازِعُهُ يومَئِذٍ مُنازعٌ وقد كانَ في الدُّنيا مُلوكٌ يُدعَونَ بهذا الاسمِ ولا أحدَ يومَئِذٍ يُدعَى مَلِكًا سِواهُ»[٢].

وقالَ تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

قالَ القُرطُبيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «لأنَّ المُلكَ الَّذي يَزولُ ويَنقَطِعُ ليسَ بمُلكٍ؛ فبَطَلَتْ يَومَئِذٍ أملاكُ المالكِينَ، وانقَطَعَتْ دعاوِيهِم، وزالَ كُلُّ مَلِكٍ ومُلكُهُ، وبَقِيَ المُلكُ الحقُّ للهِ وَحدَهُ»[٣].

٢ ـ تَذَكُّرُ أنَّ المُلكَ بِيَدِ اللهِ يَهَبُهُ لِمَن يشاءُ ويَنزِعُهُ ممَّنْ يشاءُ:

قالَ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

قالَ ابنُ عُثَيمِين رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ تامُّ المُلكِ والسُّلطانِ؛ لكونِهِ يُذِلُّ مَن يشاءُ، ولو بَلَغَ ما بَلَغَ منَ العِزَّةِ البشريَّةِ؛ فإنَّ يدَ اللهِ فوقَهُ مَهمَا بَلَغَ الإنسانُ منَ العِزِّ؛ فاللهُ قادِرٌ على إذلالِهِ؛ ولذلِكَ أمثلةٌ كثيرةٌ منها: قصَّةُ فِرعَونَ؛ فإنَّ فِرعَونَ طَغَى، وقالَ: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]،

---

(١) جامع البيان: (١/ ١٥٠).
(٢) جامع البيان: (١٦/ ٦١٨).
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (١٥/ ٤٠٠ ـ ٤٠١).

وافتَخَرَ بما عندَهُ منَ الأنهارِ؛ فأهلَكَهُ اللهُ بمِثلِ ما افتَخَرَ به؛ فأغرَقَهُ بالماءِ، وعادٌ استَكبَرُوا في الأرضِ وقالُوا: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصلت: ١٥]؛ فأهلَكَهُمُ اللهُ تعالى بالرِّيحِ وهي من ألطَفِ الأشياءِ لَكِنَّها من أشدِّ الأشياءِ مع لَطافَتِها؛ فاللهُ ﷻ يُذِلُّ مَن يَّشاءُ»(١).

فعلى صاحبِ المُلكِ أن يَّستَشْعِرَ هذا المَعنَى، ويَعلَمَ أنَّ المُلكَ كُلَّهُ بيَدِ اللهِ ﷻ يَهَبُهُ لِمَنْ يشاءُ ويَنزِعُهُ مِمَّنْ يشاءُ ﷻ.

ولْيُعْلَمْ أنَّ المُلكَ نِعمَةٌ وَهَبَهَا اللهُ إيَّاهُ تَستَحِقُّ الشُّكرَ، وشُكرُها يكونُ باستعمالِها في طاعةِ اللهِ ومَرضاتِهِ.

٣ ـ تَذَكُّرُ أنَّه سَيَأْثَمُ إذا صَدَّ النَّاسَ عن سبيلِ اللهِ:

لا رَيبَ أنَّ مَن كانَ داعِيَةً إلى الضَّلالِ فإنَّه يَتَحَمَّلُ أوزارَ مَن كانَ سَبَبًا في إضلالِهِم.

قالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «فهؤلاءِ عذابُهُم مضاعَفٌ، ولهم عذابانِ: عذابٌ بالكُفرِ، وعذابٌ بصَدِّ النَّاسِ عنِ الدُّخولِ في الإيمانِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ فأحَدُ العَذابَينِ بكُفرِهِم، والعذابُ الآخَرُ بِصَدِّهِم عن سبيلِ اللهِ؛ وقدِ استَقَرَّتْ حِكمةُ اللهِ وعَدلُهُ أن يجعلَ على الدَّاعِي إلى الضَّلالِ مثلَ آثامِ مَنِ اتَّبَعَهُ واستجابَ له، ولا رَيبَ أنَّ عذابَ هذا يَتَضاعَفُ ويَتَزايَدُ بحَسَبِ مَنِ اتَّبَعَهُ وضَلَّ به»(٢).

---

(١) تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين. سورة آل عمران: (١/ ١٦١).
(٢) طريق الهجرتين: (ص٨٩٣).

٤ ـ تَذَكُّرُ عاقبةِ الكُفرِ بآياتِ اللهِ، والاعتبارُ بمَآلِ المُلوكِ الكافِرِينَ:

المُلكُ قد يكونُ سَبَبًا في كُفرِ صاحبِهِ بآياتِ اللهِ، وذلكَ مِثلُ فِرعَونَ؛ فقد كانَ مُلكُهُ سَبَبًا في إعراضِهِ وكُفرِهِ بآياتِ اللهِ، فكانَ عاقبتُهُ أنْ أهلَكَهُ اللهُ وأغرَقَهُ؛ وفي هذا ذِكرَى لِمَنْ كانَ المُلكُ قائِدًا له إلى الكُفرِ بآياتِ اللهِ.

قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ جلَّ ثناؤُهُ لنَبِيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: فانْظُرْ يا محمَّدُ بعَينِ قَلبِكَ: كيفَ كانَ عاقبةُ هؤلاءِ الَّذينَ أفسَدُوا في الأرضِ؟ يَعنِي: فرعونَ ومَلَأَهُ إذ ظَلَمُوا بآياتِ اللهِ الَّتِي جاءَهُم بها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانَ عاقِبَتُهُم أنَّهُم أُغرِقُوا جميعًا في البَحرِ»(١).

٥ ـ الاقتداءُ بالحُكَّامِ الصَّالحِينَ:

من ذلكَ ما ذَكَرَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن مُلكِ داوُدَ وسُليمانَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ في مواضِعَ مُتعدِّدَةٍ لا سِيَّمَا في سورةِ النَّملِ.

قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٥، ١٦].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وداوُدُ وسُليمانُ من خَوَاصِّ الرُّسُلِ، وإنْ كانوا دُونَ درجةِ أُولِي العَزمِ الخمسةِ، لكنَّهُم من جُملَةِ الرُّسُلِ الفُضلاءِ الكرامِ الَّذِينَ نَوَّهَ اللهُ بذِكرِهِم ومَدَحَهُم في كتابِهِ مَدْحًا عَظِيمًا؛ فحَمِدُوا اللهَ على بُلوغِ هذه المَنزلةِ، وهذا عنوانُ سعادةِ العبدِ؛ أن يكونَ شاكِرًا للهِ

(١) جامع البيان: (١٠/٣٤١ ـ ٣٤٢).

على نِعَمِهِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، وأن يَرَى جميعَ النِّعَمِ من رَبِّهِ، فلا يَفخَرُ بها، ولا يُعجَبُ بها؛ بل يَرَى أنَّها تَستَحِقُّ عليه شُكرًا كثيرًا»[١].

وقد ذَكَرَ اللهُ ﷻ في كتابِهِ الكريمِ في سورةِ الكَهفِ قصَّةَ ذِي القَرنَينِ لِمَا فيها منَ الحِكَمِ العظيمةِ والفوائدِ الكثيرةِ، «لقد كانَ ذُو القَرنَينِ مِثالًا طَيِّبًا للحاكمِ الصَّالحِ الَّذي لم يُفْتَنْ بالحُكمِ والسُّلطانِ؛ فلم يَنشَغِلْ بما آتاهُ اللهُ تعالى من قُوَّةِ المُلكِ وأُبَّهَةِ الحُكمِ والتَّمكينِ في الأرضِ عن أُمَّتِهِ الَّتِي حَكَمَهَا، ورسالتِهِ الَّتِي حَمَلَهَا؛ إنَّهُ الحاكمُ الَّذي سَخَّرَ حُكمَهُ وسُلطانَهُ لنَشرِ دِينِ اللهِ وعبادتِهِ في الأرضِ وعمارتِها بطاعةِ اللهِ تعالى، ودَرءِ خَطَرِ المفسدِينَ عنها بكُلِّ وسائلِ التَّمكِينِ الَّتِي آتاهُ اللهُ سبحانه إيَّاهَا»[٢].

٦ ـ تَذَكُّرُ الآخرةِ:

قالَ تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

هذه الآيةُ وإنْ كانت في ذَمِّ علماءِ أهلِ الكتابِ؛ الَّذينَ استَخدَمُوا جاهَهُم في إضلالِ النَّاسِ وفي إخفاءِ الحقِّ؛ إلا أنَّ فيها تَحذيرًا لأهلِ العِلمِ الَّذين وَهَبَهُمُ اللهُ الرِّئاسةَ ألَّا تكونَ هذه الرِّئاسةُ وهذا الجاهُ سَبَبًا لإضلالِ النَّاسِ والفَتوَى بغَيرِ عِلمٍ، وذَكَرَ سبحانه في هذه الآيةِ أنَّ تَذكُّرَ الآخرةِ سَبَبٌ لتَقوَى اللهِ والعَمَلِ بما يُرضِيهِ.

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١٢٤٤).

(٢) العواصم من الفتن في سورة الكهف: (ص١١٤).

قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «فأخبَرَ سبحانه أَنَّهُم أَخَذُوا العَرَضَ الأدنَى مع عِلمِهِم بتَحرِيمِهِ عليهم، وقالُوا: سَيُغفَرُ لنا، وإنْ عَرَضَ لهم عَرَضٌ آخَرُ، أَخَذُوهُ؛ فهم مُصِرُّونَ على ذلكَ، وذلكَ هو الحامِلُ لهم على أن يقولوا على اللهِ غيرَ الحقِّ؛ فيَقُولُونَ: هذا حُكمُهُ وشَرعُهُ ودِينُهُ وهم يَعلَمُونَ أن دِينَهُ وشَرعَهُ وحُكمَهُ خِلافُ ذلكَ، أَوَلَا يَعلَمُونَ أنَّ ذلكَ دِينُهُ وشَرعُهُ وحُكمُهُ؟! فتارةً يقولون على اللهِ مَا لا يَعلَمُونَ، وتارَةً يقولون عليه ما يعلمونَ بُطلانَهُ، وأمَّا الَّذين يَتَّقُونَ فيَعلَمُونَ أنَّ الدارَ الآخِرَةَ خيرٌ مِنَ الدُّنيا؛ فلا يَحمِلُهُم حُبُّ الرِّئاسَةِ والشَّهْوَةِ على أن يُؤْثِرُوا الدُّنيا على الآخرةِ، وطريقُ ذلكَ أن يَتَمَسَّكُوا بالكتابِ والسُّنَّةِ، ويَستعينوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ، ويَتَفَكَّرُوا في الدُّنيا وزوالِها وخِسَّتِها، والآخرةِ وإقبالِهَا ودوامِها.

وهؤلاءِ لا بُدَّ أن يَبتَدِعُوا في الدِّينِ مع الفُجورِ في العملِ؛ فيَجتَمِعُ لهم الأمرانِ؛ فإنَّ اتِّباعَ الهَوَى يُعمِي عينَ القَلبِ؛ فلا يُمَيِّزُ بينَ السُّنَّةِ والبِدعةِ، أو يُنَكِّسُهُ؛ فيَرَى البِدعَةَ سُنَّةً، والسُّنَّةَ بِدعَةً؛ فهذه آفَةُ العُلماءِ إذا آثَرُوا الدُّنيا، واتَّبَعُوا الرِّئاساتِ والشَّهَواتِ»[1].

ب ـ سُبُلُ الوقايةِ من فتنةِ المُلُوكِ الظَّالِمِينَ:

١ ـ إقامةُ الحُجَّةِ الدَّامغةِ خاصَّةً إذا كانَ يَدَّعِي شَيئًا من صفاتِ اللهِ:

وهذا من سبيلِ العُقلاءِ والحُكماءِ؛ فإنَّهُم إذا رَأَوْا مِنَ المُخالِفِ والمعانِدِ جِدَالًا لا فائدةَ من ورائِهِ، أَتَوْا بحُجَّةٍ واضحةٍ لا تقومُ لها شُبهَةٌ، وقدِ استخدَمَ هذا الأسلوبَ أبونا إبراهيمُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ عندَما حاجَّهُ ذلكَ المَلِكُ بحُجَجٍ واهيةٍ؛ فأقامَ له حُجَّةً تُقْطَعُ معها الحُجَجُ.

---

(١) الفوائد: (ص١٥٧).

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «ولهذا قالَ له إبراهيمُ ـ لمَّا ادَّعَى هذه المكابرةَ ـ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾؛ أيْ: إذا كُنتَ كما تَدَّعِي من أنَّكَ أنتَ الَّذِي تُحيِي وتُمِيتُ؛ فالَّذي يُحيِي ويُمِيتُ هو الَّذي يَتَصَرَّفُ في الوُجودِ في خَلقِ ذواتِهِ وتَسخِيرِ كواكبِهِ وحَرَكَاتِهِ؛ فهذه الشَّمسُ تَبدُو كلَّ يومٍ منَ المَشرِقِ؛ فإنْ كنتَ إلٰهًا كما ادَّعَيْتَ تُحيِي وتُمِيتُ؛ ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، فلمَّا عَلِمَ عَجْزَهُ وانقطاعَهُ، وأنَّهُ لا يَقدِرُ على المكابرةِ في هذا المقامِ، بُهِتَ ـ أيْ: أُخرِسَ فلا يَتَكَلَّمُ ـ وقامَتْ عليه الحُجَّةُ»[1].

٢ ـ التَّوكُّلُ على اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

التَّوكُّلُ على اللهِ منَ العباداتِ العظيمةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بها عبادَهُ في كتابِهِ الكريمِ، وهو منَ الأُمورِ الَّتِي يَنبَغِي على العبدِ أن يَحرِصَ عليها خاصَّةً عندَ الضَّعفِ وعندَ تَسلُّطِ الظَّلَمَةِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ ـ مُخبِرًا عن قِيلِ نَبِيِّهِ موسى لقَومِهِ: يا قَومِ إنْ كُنتُمْ أَقرَرْتُمْ بوَحدانيَّةِ اللهِ، وصَدَّقْتُمْ برُبُوبِيَّتِهِ ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ [يونس: ٨٤]، يقولُ: فبِهِ فَثِقُوا، ولأمرِهِ فَسَلِّمُوا؛ فإنَّهُ لن يَخْذُلَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (١/ ٦٨٦).

وَلِيَّهُ، ولن يُسْلِمَ مَن تَوَكَّلَ عليه ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾، يقولُ: إن كُنتُمْ مُذعِنِينَ للهِ بالطَّاعةِ، فعليهِ تَوَكَّلُوا»(١).

وقد تَوَكَّلَ مُوسَى ـ عليه الصلاة والسلام ـ على رَبِّهِ، وتَيَقَّنَ النَّصْرَ من عندِهِ؛ فكانَ عاقِبَتُهُ النَّصرَ والتَّمكينَ من رَبِّهِ؛ حَصَلَ هذا عندَما كانَ في ذلكَ المَوقِفِ الحَرِجِ الَّذي لا يَستَطِيعُ أن يَصمُدَ فيه إلَّا مَن كانَ على مُستوًى كبيرٍ منَ التَّوكُّلِ على اللهِ ﷻ عندَما خَرَجَ هو وقَومُهُ؛ فلَحِقَهُ فِرعَونُ وجُنودُهُ حتَّى وَصَلَ إلى البَحرِ، فكانَ البحرُ من أمامِهِ، وفرعونُ وجنودُهُ من خَلفِهِ.

قالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٣].

قالَ ابنُ عُثَيمين رَحِمَهُ اللهُ: «هكذا يقينُ الرُّسُلِ عليهم الصلاة والسلام، في المقاماتِ الحَرِجَةِ الصَّعبةِ تَجِدُ عندَهم منَ اليقينِ ما يَجعَلُ الأمرَ العَسِيرَ ـ بلِ الَّذي يُظَنُّ أنَّهُ مُتَعَذِّرٌ ـ أمرًا يَسِيرًا سَهْلًا؛ ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾؛ فلَمَّا فَوَّضَ الأمرَ إلى اللهِ ﷻ، أوحَى إليهِ ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ﴾ الأحمرَ، فضَرَبَ البَحرَ بعصاهُ ضربةً واحدةً؛ فانْفَلَقَ البَحرُ اثْنَيْ عَشَرَ طَرِيقًا»(٢).

٣ ـ الدُّعاءُ بالنَّجاةِ مِن فِتنَتِهِم:

قالَ تعالى ـ إخبارًا عن إبراهيمَ والَّذينَ آمنوا معه ـ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٥].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أي: لا تُسَلِّطْهُم علينا بذُنُوبِنا؛ فيَفتِنُونا،

(١) جامع البيان: (١٢/ ٢٥٠) بتصرف. (٢) شرح رياض الصالحين: (١/ ٣٣٨).

ويَمنَعُونا ممَّا يَقدِرُونَ عليه من أُمورِ الإيمانِ، ويَفْتَتِنُونَ أيضًا بأنفُسِهِم؛ فإنَّهُم إذا رَأَوْا لهمُ الغلبةَ، ظَنُّوا أنَّهُم على الحقِّ، وأنَّا على الباطلِ؛ فازْدَادُوا كُفرًا وطُغيانًا»(١).

٤ ـ الصَّبرُ:

قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

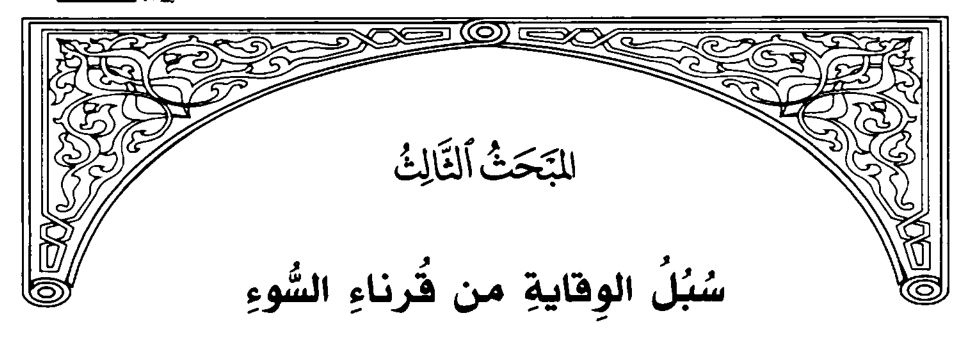
قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «هذه تَسلِيَةٌ للنَّبيِّ ﷺ وتَعزِيَةٌ له فِيمَن كَذَّبَهُ من قَومِهِ، وأَمْرٌ له بالصَّبرِ؛ كما صَبَرَ أُولُو العَزمِ منَ الرُّسُلِ، ووَعْدٌ له بالنَّصرِ؛ كما نُصِرُوا، وبالظَّفَرِ حتَّى كانت لهمُ العاقبةُ بعدَ ما نالَهُم منَ التَّكذيبِ مِن قَومِهِم والأذى البليغِ، ثم جاءَهُمُ النَّصرُ في الدُّنيا، كما لهمُ النَّصرُ في الآخرةِ؛ ولهذا قالَ: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الَّتِي كَتَبَهَا بالنَّصرِ في الدُّنيا والآخرةِ لعبادِهِ المؤمنِينَ؛ كما قالَ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، وقالَ تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقولُهُ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾؛ أي: مِن خَبَرِهِم؛ كيفَ نُصِرُوا وأُيِّدُوا على مَن كَذَّبَهُم مِن قَومِهِم، فلَكَ فيهم أُسوَةٌ وبهم قُدوَةٌ»(٢).

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٤/ ١٨١٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم: (٣/ ٢٥٢).



المَبحَثُ الثَّالِثُ

سُبُلُ الوِقايةِ من قُرناءِ السُّوءِ

أوَّلًا: تَذَكُّرُ أنَّ الخليلَ لا يَنفَعُ يومَ القيامةِ إلَّا بإذنِ اللهِ:

قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

قالَ ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «فإنَّ خليلَ الرَّجُلِ في الدُّنيا قد كانَ يَنفَعُهُ فيها بالنُّصرةِ له على مَن حاوَلَهُ بمَكرُوهٍ وأرادَهُ بسُوءٍ، والمُظاهَرَةِ له على ذلكَ؛ فآيَسَهُم تعالى ذِكرُهُ أيضًا مِن ذلك؛ لأنَّهُ لا أحدَ يومَ القيامةِ يَنصُرُ أحدًا مِن اللهِ»(١).

وقالَ تعالى: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٩٩ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ٩٦ ـ ١٠١].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾؛ أي: قريبٍ مُصافٍ يَنفَعُنا بأدنَى نَفعٍ؛ كما جَرَتِ العادةُ بذَلِكَ في الدُّنيا؛ فأيِسُوا مِن كُلِّ خيرٍ، وأُبْلِسُوا بما كَسَبُوا»(٢).

---

(١) جامع البيان: (٤/ ٥٢٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١٢٢٣).

ثانيًا: تَذَكُّرُ حالِ قُرناءِ السُّوءِ يومَ القِيامَةِ:

قالَ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

قالَ ابنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذه الآيةِ لِكُلِّ ذِي نُهْيَةٍ تَنْبيهٌ على تَجَنُّبِ قَرينِ السُّوءِ»(١).

وقالَ تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

قالَ ابنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثُمَّ وَصَفَ تعالى بعضَ حالِ القيامةِ، وأنَّها لِهَوْلِ مَطلَعِها والخَوفِ المُطبِقِ بالنَّاسِ فيها يَتَعادَى ويَتَباغَضُ كُلُّ خليلٍ كانَ في الدُّنيا على غيرِ تُقًى؛ لأنَّهُ يرى أنَّ الضَّرَرَ دَخَلَ عليهِ من قِبَلِ خَليلِهِ»(٢).

وقالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذا حالُ الخَليلَينِ المتخالَّينَ على خلافِ طاعةِ الرَّسولِ ﷺ، ومآلُ تلكَ الخُلَّةِ إلى العداوةِ واللَّعنةِ»(٣).

ثالثًا: لُزُومُ الرُّفقةِ الصَّالحةِ:

قالَ تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يأمُرُ تعالى نَبيَّهُ محمَّدًا ﷺ - وغيرُهُ أُسوَتُهُ في

---

(١) المحرر الوجيز: (٦/ ٤٣٥). (٢) المحرر الوجيز: (٧/ ٥٦١).
(٣) الرسالة التبوكية: (ص١٤٤).

الأوامرِ والنَّواهِي ـ أن يَصبِرَ نفسَهُ مع المؤمنِينَ العُبَّادِ المُنِيبِينَ ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾؛ أيْ: أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَهُ يُريدُونَ بذلكَ وَجهَ اللهِ؛ فوَصَفَهُم بالعبادةِ والإخلاصِ فيها؛ ففِيها الأمرُ بصُحبَةِ الأخيارِ، ومُجاهدةِ النَّفسِ على صُحبَتِهِم ومخالطتِهِم وإنْ كانُوا فُقراءَ؛ فإنَّ في صُحبتِهِم منَ الفوائدِ ما لا يُحْصَى»[1].

«فالمؤمنُ الصَّادقُ في إيمانِهِ، الكريمُ في أخلاقِهِ هو الَّذي يَحرِصُ على مُخالَطةِ أهلِ الإيمانِ والتَّقوَى، ولا يَمنَعُهُ فَقرُهُم من مُجالَسَتِهِم ومُصاحبتِهِم ومُؤَانَسَتِهِم والتَّواضُعِ لهم، والتَّقدُّمِ إليهم بما يَسُرُّهُم ويَشرَحُ صُدورَهُم»[2].

وقد وَرَدَ في السُّنَّةِ المباركةِ الحثُّ على اختيارِ الصُّحبةِ الصَّالحةِ؛ فقد صَحَّ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: (**مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسُّوءِ كحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ؛ فَحَامِلُ المِسْكِ إمَّا أن يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ إِمَّا أَن يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**)[3].

قالَ النَّوويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وفيهِ فَضِيلَةُ مُجالسةِ الصَّالحِينَ وأهلِ الخَيرِ والمُروءَةِ ومكارِمِ الأخلاقِ والوَرَعِ والعِلمِ والأدَبِ، والنَّهيُ عن مُجالسةِ أهلِ الشَّرِّ وأهلِ البِدَعِ، ومَن يغتابُ النَّاسَ، أو يَكْثُرُ فُجْرُهُ وبَطالَتُهُ»[4].

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ٩٥٧).
(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم: (٨/ ٥٠٩).
(٣) صحيح البخاري: (٤/ ١٧٧٨)، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، حديث رقم: (٥٥٣٣)، صحيح مسلم: (٢/ ١٢١٥)، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، حديث رقم: (٢٦٢٨).
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي: (١٦/ ١٨٤).

رابعًا: الاعتصامُ بحَبلِ اللهِ:

وهو أقوَى سببٍ يَعتَصِمُ به العبدُ، فالحافظُ هو اللهُ ﷻ؛ ولذلكَ قالَ ذلكَ العبدُ عندَما رَأى قرينَهُ الَّذي كادَ أن يُضِلَّهُ في النَّارِ: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧].

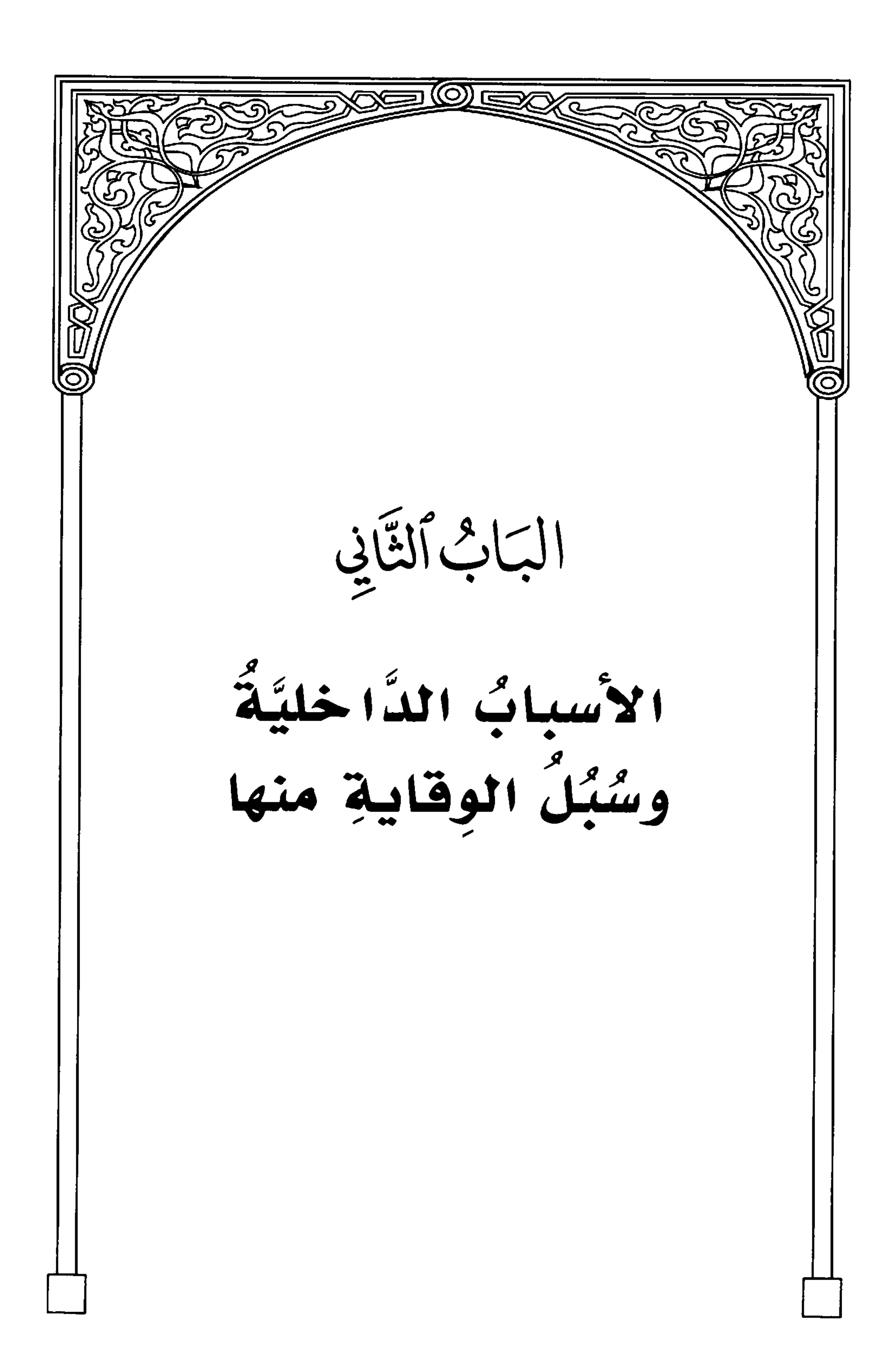
قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ: ولَولَا أنَّ اللهَ أنعَمَ عليَّ بهِدايَتِهِ والتَّوفيقِ للإيمانِ بالبَعثِ بعدَ المَوتِ لكُنتُ مِنَ المُحضَرِينَ معكَ في عذابِ اللهِ»[١].

وقالَ القُرطُبيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى﴾؛ أي: عِصمَتُهُ وتوفيقُهُ بالاستمساكِ بعُروةِ الإسلامِ والبَراءةِ منَ القَرينِ السُّوءِ»[٢].



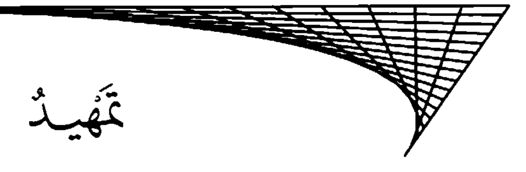
(١) جامع البيان: (١٩/ ٥٥٠).

(٢) المصدر السابق: (١٩/ ٥٥٠).



البَابُ الثَّانِي

الأسبابُ الدَّاخليَّةُ وسُبُلُ الوِقايةِ منها

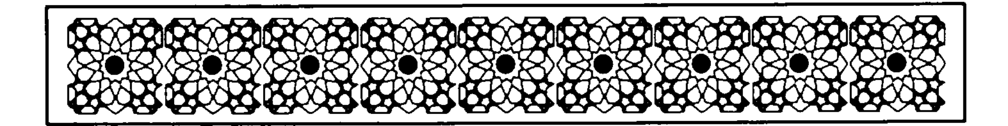


تَمْهِيدٌ

بيانُ المرادِ بالأسبابِ الدَّاخليَّةِ

هي تلكَ الأسبابِ الَّتِي تكونُ من داخلِ نفسِ الإنسانِ وذاتِهِ؛ فهي أسبابٌ داخليَّةٌ تُواجِهُ الإنسانَ وتَجعَلُهُ يُعرِضُ عنِ الحَقِّ ولا يَقبَلُهُ، وهذه الأسبابُ بحَسَبِ تفاوُتِها في قُوَّةِ التَّأثيرِ على الإنسانِ تواجِهُهُ في حياتِهِ اليوميَّةِ، وقد يكونُ أحدُ هذه الأسبابِ أو جميعُها سَبَبًا في إعراضِ الإنسانِ عنِ الحَقِّ.



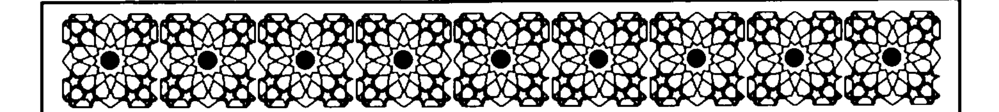


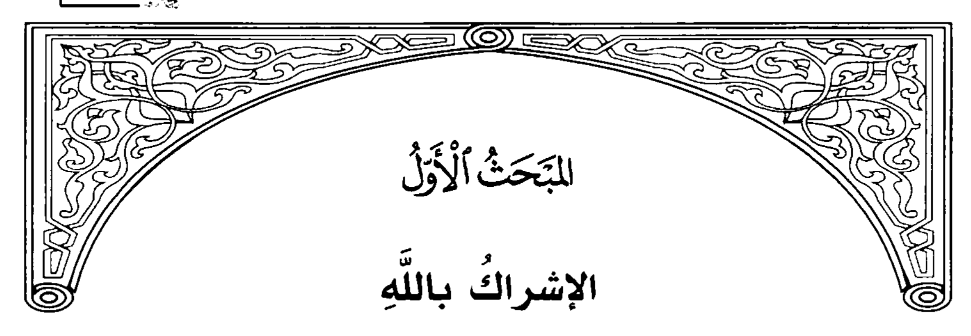
ٱلْفَصْلُ ٱلْأَوَّلُ

الأسبابُ الدَّاخليَّةُ

ويحتوي على تسعة مباحث:

- المبحث الأول: الإشراك بالله.
- المبحث الثاني: عدم قدر الله حق قدره.
- المبحث الثالث: التقليد المذموم.
- المبحث الرابع: اتباع الهوى.
- المبحث الخامس: اتباع الشبهات.
- المبحث السادس: اتباع الشهوات.
- المبحث السابع: النفس الأمارة بالسوء.
- المبحث الثامن: التكبر والغرور والعُجب.
- المبحث التاسع: الغفلة.





المَبْحَثُ الأَوَّلُ

الإشراكُ باللَّهِ

الشِّركُ باللهِ من أعظَمِ الأسبابِ الَّتِي تَصُدُّ الإنسانَ عن دِينِ اللهِ وتُبعِدُهُ عنه.

قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «ومَن يَجعَلْ للهِ في عبادتِهِ شَريكًا؛ فقد ذَهَبَ عن طريقِ الحقِّ، وزالَ عن قَصدِ السَّبيلِ ذَهابًا بَعِيدًا وزَوالًا شَدِيدًا؛ وذلكَ أنَّهُ بإشراكِهِ باللهِ في عبادتِهِ قد أطاعَ الشَّيطانَ، وسَلَكَ طريقَهُ، وتَرَكَ طاعةَ اللهِ ومِنهاجَ دِينِهِ؛ فذَاكَ هو الضَّلالُ البَعِيدُ والخُسرانُ المُبِينُ»(١).

وقالَ تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: اجْتَنِبُوا أيُّها النَّاسُ عِبادَةَ الأوثانِ، وقَولَ الشِّركِ مُستَقِيمِينَ للهِ على إخلاصِ التَّوحيدِ له، وإفرادِ الطَّاعةِ والعبادةِ له خالِصًا دُونَ الأوثانِ والأصنامِ غيرَ مُشرِكِينَ به شَيئًا من دُونِهِ؛ فإنَّهُ مَن يُشرِكْ باللهِ شَيئًا من دُونِهِ؛ فمَثَلُهُ في بُعدِهِ منَ الهُدَى وإصابةِ الحقِّ وهَلاكِهِ وذَهابِهِ عن رَبِّهِ مَثَلُ مَن خرَّ مِنَ السَّماءِ؛ فتَخطَفُهُ الطَّيرُ

(١) جامع البيان: (٧/ ٤٨٥).

فهَلَكَ، أو هَوَتْ به الرِّيحُ في مكانٍ سَحِيقٍ؛ يَعني: بَعِيدٍ»[١].

وانظُرْ إلى قصَّةِ إبراهيمَ عليه السلام مع قومِهِ عندَما رآهُم مُنهمِكِينَ في عبادةِ الأصنامِ فبَيَّنَ لهم أنَّهُم بعبادتِهِمُ الأصنامَ في ضلالٍ مُبينٍ وبُعدٍ عظيمٍ عن نُورِ الحقِّ.

قالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

قالَ ابنُ جريرٍ رحمه الله: «يقولُ: إنِّي أراكَ يا آزَرُ، وقومَكَ الَّذينَ يَعبُدُونَ معكَ الأصنامَ، ويَتَّخِذُونَها آلهةً ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ يقولُ: في زوالٍ عن مَحَجَّةِ الحقِّ، وعُدولٍ عن سبيلِ الصَّوابِ، ﴿مُّبِينٍ ۝٧٤﴾؛ يقولُ: يَتَبَيَّنُ لِمَنْ أبصَرَهُ أنَّهُ جَوْرٌ عن قَصدِ السَّبيلِ، وزَوالٌ عن مَحَجَّةِ الطَّريقِ القَويمِ؛ يَعني بذلكَ: أنَّهُ قد ضَلَّ هو وهم عن توحيدِ اللهِ وعبادتِهِ، الَّذي استَوجَبَ عليهم إخلاصَ العبادةِ له بآلائِهِ عندَهم دُونَ غيرِهِ منَ الآلهةِ والأوثانِ»[٢].

وقد عَلَّلَ إبراهيمُ عليه السلام عندَما دعا اللهَ عز وجل أن يُجنِّبَهُ وبَنِيهِ الأصنامَ بأنَّهُ سببٌ عظيمٌ في ضَلالِ كثيرٍ منَ النَّاسِ.

قالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

قالَ ابنُ جريرٍ رحمه الله: «وقولُهُ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ يقولُ: يا رَبِّ إنَّ الأصنامَ ﴿أَضْلَلْنَ﴾؛ يقولُ: أَضْلَلْنَ كثيرًا منَ النَّاسِ عن طريقِ الهُدَى وسبيلِ الحقِّ حتَّى عَبَدُوهُنَّ، وكَفَرُوا بِكَ»[٣].

---

(١) المصدر السابق: (١٦/٥٣٨).
(٢) جامع البيان: (٩/٣٤٦ ـ ٣٤٧).
(٣) المصدر السابق: (١٣/٦٨٨).

لقد كانَ منَ الصَّعبِ على كثيرٍ ممَّن وَقَعَ في الشِّركِ الانتقالُ عنه أو هَجْرُهُ، بل تَجِدُ الكثيرَ من هؤلاءِ يَبذُلُ ما بِوُسْعِهِ ويَتَحَمَّلُ المَشَاقَّ من أَجْلِ البقاءِ على شِركِهِ.

قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولو لم تكنِ الفتنةُ بعبادةِ الأصنامِ عظيمةً، لَمَا أقدَمَ عُبَّادُها على بَذلِ نُفوسِهِم وأموالِهِم وأبنائِهِم دُونَها؛ فهم يُشاهِدُونَ مَصارِعَ إخوانِهِم، وما حَلَّ بهم ولا يَزِيدُهُم ذلكَ إلا حُبًّا لها وتعظيمًا، ويُوصِي بعضُهُم بعضًا بالصَّبرِ عليها، وتَحَمُّلِ أنواعِ المَكارِهِ في نُصرتِها وعِبادتِها، وهم يَسمَعُونَ أخبارَ الأُمَمِ الَّتِي فُتِنَتْ بعبادتِها، وما حلَّ بهم من عاجلِ العقوباتِ ولا يُثنِيهِم ذلكَ عن عبادتِها»[1].

ومنَ الأمثلةِ الَّتِي ذَكَرَها القُرآنُ الكريمُ في أنَّ الإشراكَ في عبادةِ اللهِ سببٌ في عَدَمِ قَبولِ الحقِّ ـ: قِصَّةُ مَلِكَةِ سَبَإٍ[2]؛ حيثُ كانت عِبادتُها للشَّمسِ من دُونِ اللهِ سَبَبًا في صَدِّها عن دَعوةِ سُليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قالَ تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومنع هذه المرأة صاحبة سبإ ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ وذلكَ عِبادتُها الشَّمسَ أنْ تَعبُدَ اللهَ»[3].

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أيْ: عنِ الإسلامِ، وإلَّا فلها منَ الذَّكاءِ والفِطنةِ ما به تَعرِفُ الحقَّ

(١) إغاثة اللهفان: (٢/ ٩٦٢).

(٢) قد دل القرآن الكريم على إسلام هذه المرأة فيما بعد قال تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

(٣) جامع البيان: (١٨/ ٧٩).

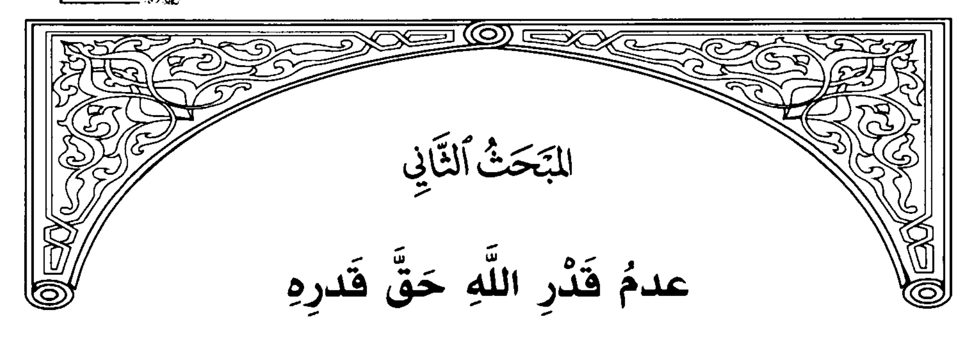
منَ الباطلِ، ولكنَّ العقائدَ الباطلةَ تُذهِبُ بَصِيرَةَ القَلْبِ»[١].

ويَرَى الإنسانُ كمْ ضَلَّ كثيرٌ منَ المُسلِمِينَ اليومَ وابتَعَدُوا عن كتابِ ربِّهِم وسُنَّةِ نَبِيِّهِم وهَدْيِهِ بسَببِ وُقوعِ كثيرٍ منهم في الإشراكِ باللهِ وعبادةِ أهلِ القُبورِ والاستغاثةِ بهم... وغيرِ ذلكَ من أنواعِ الشِّركِ.

فلْيَحْذَرِ الإنسانُ كُلَّ الحَذَرِ منَ الشِّركِ؛ فإنَّ عاقبتَهُ وَخِيمَةٌ في الدُّنيا والآخرةِ.



(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١٢٥١).



المَبْحَثُ الثَّانِي

عدمُ قَدْرِ اللَّهِ حَقَّ قَدرِهِ

إنَّ عدمَ قَدْرِ اللهِ حقَّ قَدْرِهِ، وعدمَ تعظيمِهِ سبحانه حقَّ التَّعظيم سببٌ في إعراضِ الإنسانِ عنِ الحقِّ، وسببٌ في الوُقوعِ في تكذيبِ الرُّسُلِ وردِّ دَعوَتِهِم، وسببٌ في الوقوعِ في الإشراكِ باللهِ، وقد دَلَّتْ على هذا ثلاثُ آياتٍ من كتابِ اللهِ ﷻ.

أمَّا الآيةُ الأُولى فتَدُلُّ على أنَّ عَدَمَ قَدْرِ اللهِ حقَّ قَدْرِهِ سببٌ في تكذيبِ الرُّسُلِ؛ وهي قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما في قولِهِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾؛ قالَ: «همُ الكُفَّارُ لم يُؤمِنُوا بقُدرَةِ اللهِ عليهم؛ فمَن آمَنَ أنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قديرٌ؛ فقد قَدَرَ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ، ومَن لم يُؤمِنْ بذلكَ؛ فلَم يَقْدُرِ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ»(١).

وقالَ ابنُ كَثيرٍ رحمه الله: «يقولُ تعالى: وما عَظَّمُوا اللهَ حَقَّ تَعظِيمِهِ؛ إذ كَذَّبُوا رُسُلَهُ إليهم»(٢).

وقالَ السَّعديُّ رحمه الله: «هذا تَشنِيعٌ على مَن نَفَى الرِّسالةَ منَ اليَهُودِ

---

(١) جامع البيان: (٩/٣٩٦ ـ ٣٩٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٣/٣٠٠).

والمشركِينَ، وزَعَمَ أنَّ اللهَ ما أنزَلَ على بَشَرٍ مِن شَيءٍ؛ فمَن قالَ هذا؛ فما قَدَرَ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ، ولا عَظَّمَهُ حقَّ عَظَمَتِهِ، إذ هذا قَدْحٌ في حِكمَتِهِ، وزَعْمٌ أنَّهُ يَترُكُ عِبادَهُ هَمَلًا لا يَأمُرُهُم ولا يَنهَاهُم، ونَفْيٌ لأعظَمِ مِنَّةٍ امتَنَّ اللهُ بها على عبادِهِ، وهي الرِّسالةُ الَّتِي لا طريقَ للعبادِ إلى نَيلِ السَّعادةِ والكرامةِ والفلاحِ إلَّا بها؛ فأيُّ قَدْحٍ في اللهِ أعظَمُ من هذا؟!»[1].

أمَّا الآيةُ الثَّانيةُ، فقد جاءَتْ في سياقِ ذَمِّ عَبَدَةِ الأوثانِ والأصنامِ؛ فتَدُلُّ على أنَّ عَدَمَ قَدْرِ اللهِ حَقَّ قَدْرِهِ سببٌ في الوقوعِ في الشِّركِ؛ وهي قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وقولُهُ: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾؛ يقولُ: ما عَظَّمَ هؤلاءِ الَّذينَ جَعَلُوا الآلهةَ للهِ شَرِيكًا في العبادةِ حقَّ عَظَمَتِهِ؛ حينَ أَشرَكُوا به غَيرَهُ؛ فلم يُخلِصُوا له العبادةَ، ولا عَرَفُوهُ حقَّ مَعرفتِهِ»[2].

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فهذا ما قَدَرَ اللهَ حقَّ قَدْرِهِ؛ حيثُ سَوَّى الفقيرَ العاجزَ من جميعِ الوُجوهِ، بالغَنِيِّ القَوِيِّ من جميعِ الوُجوهِ، سَوَّى مَن لَّا يَملِكُ لنفسِهِ ولا لغيرِهِ نَفْعًا ولا ضَرًّا، ولا مَوْتًا، ولا حياةً ولا نُشُورًا بمَن هو النَّافعُ الضَّارُّ، المُعطِي المانعُ، مالِكُ المُلكِ، والمُتَصَرِّفُ فيه بجميعِ أنواعِ التَّصريفِ»[3].

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٤٩٠).
(٢) جامع البيان: (١٦/ ٦٣٧).
(٣) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١١١٧).

أمَّا الآيةُ الثَّالثةُ، فجاءت في سياقِ الأمرِ بالتَّوحيدِ والتَّحذيرِ منَ الشِّركِ؛ فتَدُلُّ أيضًا على أنَّ عَدَمَ قَدْرِ اللهِ حَقَّ قَدْرِهِ سَبَبٌ في الوُقوعِ في الشِّركِ.

قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٥ ـ ٦٧].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وقولُهُ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾؛ يقولُ تعالى ذِكرُهُ: وما عَظَّمَ اللهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ هؤلاءِ المشركونَ باللهِ؛ الَّذين يَدعُونَكَ إلى عبادةِ الأوثانِ»(١).

وقالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى: وما قَدَرَ المشركونَ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ؛ حينَ عَبَدُوا معه غَيرَهُ، وهو العظيمُ الَّذي لا أعظَمَ منه، القادرُ على كُلِّ شيءٍ، المالِكُ لكلِّ شيءٍ، وكلُّ شيءٍ تحتَ قَهْرِهِ وقُدرَتِهِ»(٢).

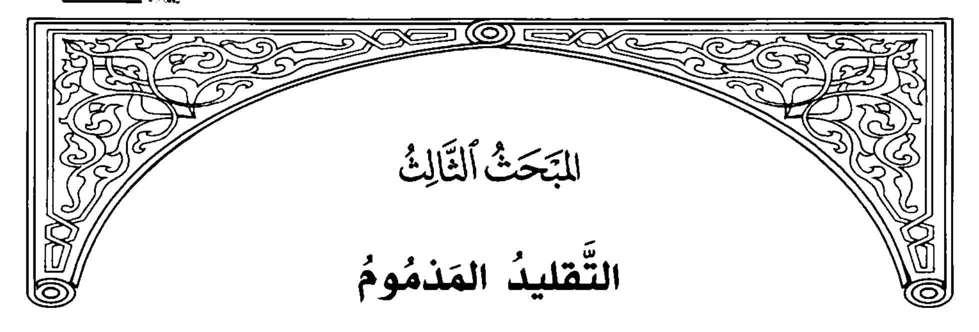
وبهذا يَتَبَيَّنُ أنَّ عَدَمَ قَدْرِ اللهِ حَقَّ قَدْرِهِ، وعَدَمَ تَعظِيمِهِ حَقَّ عَظَمَتِهِ وعَدَمَ مَعرفتِهِ حَقَّ المعرفةِ: سببٌ في الإعراضِ عن دِينِهِ وعَدَمِ قَبولِ هُداهُ.



---

(١) جامع البيان: (٢٠/ ٢٤٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٧/ ١١٣).



المَبْحَثُ الثَّالِثُ

التَّقليدُ المَذمُومُ

التَّقليدُ المَذمُومُ والاتِّباعُ المذمومُ من أعظَمِ الأسبابِ الَّتِي تَجعَلُ الإنسانَ يُعرِضُ عنِ الحَقِّ ولا يَتَّبِعُهُ، بل يَتَّبِعُ ذلكَ الإنسانَ الَّذي أَثَّرَ عليه ومَلَأَ قَلبَهُ حُبًّا وتعظيمًا له؛ فَيَتَّبِعُهُ من غيرِ حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ، وقد بَيَّنَ اللهُ ﷻ هذا الأمرَ في كتابِهِ الكريمِ؛ فأولئكَ الأقوامُ عندَما جاءَتْهُم رُسُلُهم بالآياتِ البيِّناتِ، والحُجَجِ الواضحاتِ، أعرَضُوا عنها، ورَدُّوها، بل آذَوْا مَن جاءَهُم بها، وكانَ من أكبَرِ الأسبابِ في فِعلِهِم ذلكَ ـ: اتِّباعهم لآبائِهِم وكُبَرائِهِم ورُؤسائِهِم، **وهذا هو الاتِّباعُ المَذمُومُ الَّذي يَجعَلُ صاحبَهُ يُعارِضُ الحقَّ، وإليكَ بيانُه:**

أوَّلًا: اتِّباعُ الآباءِ الضَّالِّينَ:

كانَ لاتِّباعِ الآباءِ الضَّالِّينَ وتقليدِهِم أثرُهُ العظيمُ في ردِّ الحقِّ وعَدَمِ قَبولِهِ.

قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «وقد بَيَّنَ القُرآنُ أنَّ الكُفرَ أقسامٌ: أحدُها: كُفرٌ صادرٌ عن جَهلٍ وضلالٍ وتقليدِ الأسلافِ، وهو كفرُ أكثَرِ الأتباعِ والعوامِّ»[1].

قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ

---

(١) مفتاح دار السعادة: (١/ ١٥٠).

ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبَرَ تعالى عن حالِ المشركِينَ إذا أُمِرُوا باتِّباعِ ما أنزَلَ اللهُ على رسولِهِ رَغِبُوا عن ذلكَ، وقالُوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ﴾؛ فاكتَفَوْا بتَقلِيدِ الآباءِ، وزَهِدُوا في الإيمانِ بالأنبياءِ؛ ومع هذا فآباؤُهُم أجهَلُ النَّاسِ، وأَشَدُّهُم ضَلالًا، وهذه شُبهةٌ لرَدِّ الحقِّ واهيةٌ؛ فهذا دليلٌ على إعراضِهِم عنِ الحقِّ، ورغبتِهِم عنه، وعَدَمِ إنصافِهِم؛ فلو هُدُوا لِرُشدِهِم، وحَسُنَ قَصدُهُم؛ لكانَ الحقُّ هو القَصدَ، ومَن جَعَلَ الحقَّ قَصْدَهُ، ووازَنَ بينَهُ وبينَ غيرِهِ تَبَيَّنَ له الحقُّ قَطْعًا، واتَّبَعَهُ إنْ كانَ مُنصِفًا»[(١)].

وقالَ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾؛ أي: لهؤلاءِ المُجادِلِينَ في توحيدِ اللهِ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: على رسولِهِ منَ الشَّرائعِ المُطهَّرةِ ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾؛ أي: لم يكن لهم حُجَّةٌ إلَّا اتِّباعُ الآباءِ الأقدمِينَ، قالَ اللهُ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]؛ أيْ: فما ظَنُّكُم أيُّها المُحتجُّونَ بصنيعِ آبائِهِم، أنَّهم كانُوا على ضلالةٍ، وأنتم خَلَفٌ لهم فيما كانوا فيهِ»[(٢)].

وقد قصَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علينا في كتابِهِ الكريمِ قِصَصَ أقوامٍ كثيرِينَ جاءَتْهُم رُسُلُهُم بالحقِّ من عندِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وجاءَتْهُم على ذلكَ بالآياتِ البيِّناتِ والحُجَجِ الواضحاتِ فرَدَّ كثيرٌ من أولئكَ الأقوامِ ما جاءَتْهُم به الرُّسُلُ مُحتجِّينَ في ذلكَ بأنَّهُ مُخالِفٌ لِمَا كانَ عليه آباؤُهُمُ الضَّالُّونَ.

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ١٢٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم: (٦/ ٣٤٧).

فنُوحٌ ﷺ عندَما دعا قومَهُ إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَهُ احتَجُّوا بهذه الحُجَّةِ الباطلةِ أنَّهُم لم يَسمَعُوا بذلكَ في آبائِهِمُ الأوَّلِينَ.

قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣، ٢٤].

قال الفَخرُ الرَّازيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّهم كانُوا أقوامًا لا يُعَوِّلُونَ في شيءٍ من مَذاهِبِهِم إلَّا على التَّقليدِ والرُّجوعِ إلى قولِ الآباءِ؛ فلمَّا لم يَجِدُوا في نُبُوَّةِ نُوحٍ ﷺ هذه الطريقةَ، حَكَمُوا بفسادِها»[1].

وهذا إبراهيمُ ﷺ عندَما دعا قومَهُ إلى عبادةِ اللهِ وَحدَهُ، وأنكَرَ عليهم عبادَتَهُم للأصنامِ، احتَجُّوا بصَنِيعِ آبائِهِمُ الضَّالِّينَ ويَا لها من حُجَّةٍ واهيةٍ! في مُقابلةِ الحقِّ الدامغِ.

قـالَ تعـالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٥٤].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾: لم يكن لهم حُجَّةٌ سِوَى صنيعِ آبائِهِمُ الضُّلَّالِ؛ ولهذا قالَ: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾؛ أي: الكلامُ مع آبائِكُمُ الَّذينَ احتَجَجْتُمْ بِصَنيعِهِم كالكلامِ معكم؛ فأنتُم وهم في ضَلالٍ على غيرِ الطَّريقِ المستقيمِ»[2].

وقـالَ تـعـالى ـ في سُورةِ الشُّعـراءِ ـ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾

---

(١) مفاتيح الغيب: (٢٣/٩٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٥/٣٤٨).

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٧٧].

قالَ القُرطُبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فزِعوا إلى التَّقليدِ من غيرِ حُجَّةٍ ولا دليلٍ»[(١)].

وقومُ هودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا دَعاهُم إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَهُ، وذَكَّرَهُم بما أنعَمَ اللهُ عليهم، أنكَرُوا عليه ذلكَ، بأنَّهُ كيفَ يَدعُوهُم إلى تَركِ ما كانَ يَعبُدُهُ آباؤُهُم؟!

قالَ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف: ٦٥ - ٧٠].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قبَّحَهُمُ اللهُ! جَعَلُوا الأمرَ الَّذي هو أوجَبُ الواجباتِ، وأكمَلُ الأمورِ منَ الأُمُورِ الَّتي لا يُعارِضُونَ بها ما وَجَدُوا عليه آباءَهُم؛ فقَدَّمُوا ما عليه الآباءُ الضَّالُّونَ منَ الشِّركِ وعبادةِ الأصنامِ على ما دَعَتْ إليهِ الرُّسُلُ من توحيدِ اللهِ وَحدَهُ لا شَريكَ له، وكَذَّبُوا نَبِيَّهُم»[(٢)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٦/ ٣٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن: (٢/ ٥٥٧).

وكذلكَ قَومُ صَالحٍ وَاجَهُوا نَبِيَّهُم بهذه الحُجَّةِ الدَّاحِضَةِ، إذ إنَّ في رأيِهِم وزَعمِهِم أنَّ القَدحَ في عقيدةِ آبائِهِم من أعظَمِ الذُّنُوبِ.

قالَ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦١، ٦٢].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: قد كُنَّا نرجُوكَ ونُؤَمِّلُ فيكَ العقلَ والنَّفعَ، وهذا شَهادةٌ منهم لنَبِيِّهِم صالحٍ أنَّه ما زالَ مَعرُوفًا بمكارِمِ الأخلاقِ ومحاسِنِ الشِّيَمِ، وأنَّهُ من خيارِ قومِهِ، ولكنَّهُ لمَّا جاءَهُم بهذا الأمرِ الَّذي لا يوافِقُ أهواءَهُمُ الفاسدةَ، قالوا هذه المقالةَ الَّتِي مَضمُونُها أنَّكَ قد كُنتَ كامِلًا والآنَ أخلَفْتَ ظَنَّنا فيكَ، وصِرتَ بحالةٍ لا يُرجَى منك خَيرٌ، وذنبُهُ ما قالُوهُ عنه؛ وهو قولُهُم: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، وبزَعمِهِم أنَّ هذا من أعظَمِ القَدحِ في صالحٍ؛ كيفَ قَدَحَ في عقولِهِم، وعقولِ آبائِهِمُ الضَّالِّينَ»(١).

وكذلكَ شُعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا دعا قومَهُ إلى عبادةِ اللهِ وَحدَهُ، أنكَرُوا ذلكَ؛ فإنَّ تَرْكَ ما كانَ عليه آباؤُهُم شيءٌ عظيمٌ في اعتقادِهِم.

قالَ تعالى: ﴿قَالُوا يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

ومُوسَى وهارونُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أرسَلَهُما اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالآياتِ البَيِّناتِ إلى فِرعَونَ ومَلَئِهِ فكانَ من أسبابِ إعراضِهِم عن نورِ الهدايةِ أنَّهم لا يُريدُونَ مخالفةَ آبائِهِمُ الضَّالِّينَ.

---

(١) المصدر السابق: (٢/٧٥٦).

قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٥ ـ ٧٨].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قالُوا لمُوسَى رادِّينَ لقَولِهِ بما لا يَرُدُّهُ: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾؛ أيْ: أَجِئْتَنَا لِتَصُدَّنَا عمَّا وَجَدْنَا عليه آباءَنا منَ الشِّركِ وعبادةِ غيرِ اللهِ، وتَأمُرُنا بأن نَّعبُدَ اللهَ وَحدَهُ لا شَريكَ له؟! فجعَلُوا قَولَ آبائِهِمُ الضَّالِّينَ حُجَّةً يَرُدُّونَ بها الحقَّ الَّذي جاءَهُم به مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ»[1].

وكُفَّارُ قُريشٍ لمَّا جاءَهُم نَبِيُّنا محمَّدٌ ﷺ بالهُدى والبيانِ والدَّلائلِ الواضحةِ، ما كانَ منهم إلَّا أن رَدُّوا ذلكَ؛ لأنَّهُ مخالِفٌ لِمَا كان عليه آباؤُهُم الضَّالُّونَ.

قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُخبِرُ تعالى عنِ الكُفَّارِ أنَّهُم يَستَحِقُّونَ منه العقوبةَ والأليمَ منَ العذابِ؛ لأنَّهم كانُوا إذا تُتْلَى عليهم آياتُهُ بَيِّناتٍ يَسمَعُونَها غَضَّةً طَرِيَّةً من لسانِ رسولِهِ ﷺ ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾؛ يَعنُونَ: أنَّ دِينَ آبائِهِم هو الحقُّ، وأنَّ ما جاءَهُم به الرَّسُولُ ﷺ عندَهم باطلٌ، عليهم وعلى آبائِهِم لعائِنُ اللهِ!»[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٧٢٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٦/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥).

وأخبَرَ تعالى عنهم كذلكَ في سُورةِ الزُّخرفِ؛ فقالَ تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أيْ: ليسَ لهم مُستَنَدٌ فيما هم فيه منَ الشِّركِ سِوَى تقليدِ الآباءِ والأجدادِ بأنَّهم كانُوا على أُمَّةٍ، والمرادُ بها الدِّينُ هاهنا... ثمَّ بَيَّنَ تعالى أنَّ مقالةَ هؤلاءِ قد سَبَقَهُم إليها أشباهُهُم ونظراؤُهُم منَ الأُمَمِ السَّالفةِ المكذِّبَةِ للرُّسُلِ تشابَهَتْ قلوبُهُم؛ فقالُوا مِثلَ مقالَتِهِم: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، وهكذا قالَ هاهنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾»[١].

ومِنَ الأمثلةِ الَّتي تَدلُّ على خَطَرِ اتِّباعِ الآباءِ وتقليدِهِم قصَّةُ أبي طالبٍ عمِّ النَّبيِّ ﷺ؛ عندَما حَضَرَتْهُ الوفاةُ وكانَ النَّبيُّ ﷺ يَطلُبُ منه أن يقولَ: لا إلٰهَ إلَّا اللهُ فأبَى وكانَ من أعظَمِ الأسبابِ في ذلكَ خَوفُهُ من مُخالفةِ الآباءِ[٢].

قالَ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «السَّبَبُ الثَّامنُ[٣]: تَخيُّلُ أنَّ في الإسلامِ ومُتابعةِ الرَّسولِ إزراءً وطَعنًا منه على آبائِهِ وأجدادِهِ، وذَمًّا لهم، وهذا هو الَّذي مَنَعَ أبا طالبٍ وأمثالَهُ عنِ الإسلامِ؛ استَعظَمُوا آباءَهُم وأجدادَهُم

(١) المصدر السابق: (٧/ ٢٢٤) باختصار.
(٢) سبق تخريجه. انظر: (ص١٧٠).
(٣) ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ هذا السبب ضمن الأسباب الَّتي تمنع من الاهتداء مع حصول العلم.

أن يَشهَدُوا عليهم بالكُفرِ والضَّلالِ، وأن يختارُوا خِلافَ ما اختارَ أولئكَ لأنفُسِهِم، ورَأَوْا أنَّهم إن أسلَمُوا، سَفَّهُوا أحلامَ أولئكَ، وضَلَّلُوا عُقولَهُم، ورَمَوْهُم بأقبَحِ القبائحِ؛ وهو الكُفرُ والشِّركُ؛ ولهذا قالَ أعداءُ اللهِ لأبي طالبِ ـ عندَ المَوتِ ـ: أترْغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ؟! فكانَ آخِرَ ما كَلَّمَهُم به: «هو على مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ»؛ فلم يَدْعُهُ أعداءُ اللهِ إلَّا مِن هذا البابِ لعِلمِهِم بتَعظِيمِهِ أباهُ عبدَ المُطَّلِبِ، وأنَّه إنَّما حازَ الفَخرَ والشَّرفَ به؛ فكيفَ يأتِي أمْرًا يَلزَمُ منه غايةُ تَنقِيصِهِ وذَمِّهِ؛ ولهذا قالَ: «لَولَا أن تكونَ مَسَبَّةً على بَنِي عبدِ المُطَّلِبِ، لَأقْرَرْتُ بها عَيْنَكَ» أو كما قال»[1].

فهذه الأمثلةُ تَدُلُّ كلُّها على خَطَرِ اتِّباعِ الآباءِ، وعلى أنَّهُ سببٌ عظيمٌ يَجعَلُ صاحبَهُ يُعرِضُ عنِ الحقِّ.

ثانيًا: اتِّباعُ الكُبَراءِ الضَّالِّينَ:

كما أنَّ تقليدَ الآباءِ الضَّالِّينَ واتِّباعَهُم سببٌ في الضَّلالِ، فكذلكَ اتِّباعُ الكُبَراءِ والوُجَهاءِ الضَّالِّينَ الَّذين لهم مكانةٌ بينَ النَّاسِ، فيَتَّبِعُهُم بعضُ النَّاسِ تقليدًا وجهلًا وضَلالًا.

وقد ذَكَرَ اللهُ ﷻ أمثلةً لهذا في كتابِهِ الكريمِ؛ فقَومُ نُوحٍ ﵇ تَرَكُوا اتِّباعَهُ واتَّبَعُوا أهلَ الأموالِ.

قالَ تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

قالَ ابنُ جَريرٍ ﵀: «وقولُهُ: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾، فخالَفُوا

(١) مفتاح دار السعادة: (١/ ١٥٤).

أمرِي، وردُّوا عليَّ ما دَعوتُهُم إليه منَ الهُدَى والرَّشادِ، ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾؛ يقولُ: واتَّبَعُوا في معصيتِهِم إيَّايَ مَن دعاهُم إلى ذلكَ ممَّن كَثُرَ مالُهُ وولدُهُ؛ فلم يَزِدْهُ كَثرَةُ مالِهِ وولدِهِ إلا خَسارًا، وبُعدًا منَ اللهِ، وذَهابًا عن مَحجَّة الطريقِ»(١).

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «عَصَوُا الرَّسُولَ النَّاصِحَ الدَّالَّ على الخَيرِ، واتَّبَعُوا المَلأَ والأشرافَ الَّذينَ لم تَزِدْهُم أموالُهُم ولا أولادُهُم إلا خَسارًا؛ أيْ: هلاكًا وتَفوِيتًا للأرباحِ؛ فكيفَ بمَنِ انقادَ لهم وأطاعَهُم؟!»(٢).

وكذلكَ قَومُ عادٍ لمَّا جاءَهُم رسولُهُم هودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالآياتِ البيِّناتِ، جَحَدُوا بها، وعَصَوْا رَسولَهُم، وتَرَكُوا اتِّباعَهُ واتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جبارٍ عنيدٍ.

قالَ تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٩، ٦٠].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «تَرَكُوا اتِّباعَ رَسولِهِم الرَّشيدِ، واتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جبَّارٍ عنيدٍ؛ فلهذا أُتبِعوا في هذه الدُّنيا لعنةً منَ اللهِ، ومِن عبادِهِ المؤمنِينَ كُلَّمَا ذُكِرُوا ويُنادَى عليهم يومَ القيامةِ على رُءوسِ الأشهادِ»(٣).

وكذلكَ المَلأُ من قومِ فرعونَ تَرَكُوا اتِّباعَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا جاءَهُم بالآياتِ البيِّناتِ من عندِ اللهِ، واتَّبَعُوا فرعونَ؛ فكانَ في ذلكَ خَسارَتُهُم في الدُّنيا والآخرةِ.

قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

(١) جامع البيان: (٢٣/ ٣٠١).
(٢) تيسير الكريم الرحمن: (٤/ ١٨٨٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم: (٤/ ٣٣١).

وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٦ ـ ٩٩].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى: ولَقَد أرسَلْنا موسى بأدِلَّتِنا على توحيدِنا، وحُجَّةً تُبَيِّنُ لِمَنْ عَايَنَها وتأمَّلَها بفِكرٍ صحيحٍ أنَّها تَدُلُّ على توحيدِ اللهِ، وكَذِبِ كُلِّ مَنِ ادَّعَى الرُّبوبيَّةَ دونَهُ، وبُطولِ قَولِ مَن أشرَكَ معه في الألوهيَّةِ غيرَهُ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾؛ يَعني: إلى أشرافِ جُندِهِ وأتباعِهِ ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَۖ﴾؛ يقولُ: فَكَذَّبَ فرعونُ ومَلَؤُهُ موسى، وجَحَدُوا وَحدانيَّةَ اللهِ، وأَبَوْا قَبولَ ما أتاهُم به موسى من عندِ اللهِ، واتَّبَعَ ملأُ فرعونَ أَمْرَ فِرعونَ دونَ أَمرِ اللهِ، وأطاعُوهُ في تكذيبِ موسى، ورَدِّ ما جاءَهُم به من عندِ اللهِ عليه؛ يقولُ تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾؛ يَعني: أنَّهُ لا يُرشِدُ أمرُ فرعونَ مَن قَبِلَهُ منه في تكذيبِ موسى إلى خيرٍ، ولا يَهدِيهِ إلى صلاحٍ، بل يُورِدُهُ نارَ جَهَنَّمَ»[١].

وممَّا يَدُلُّ على جهلِ ملإِ فرعونَ وسَفَهِ عقولِهِم أنَّهمُ اتَّبَعُوهُ حينَ زَعَمَ أنَّه إلَهٌ؛ قالَ تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فانظُرْ هذه الجَراءَةَ العظيمةَ على اللهِ الَّتِي ما بَلَغَهَا آدميٌّ؛ كَذَّبَ موسى، وادَّعى أنَّهُ اللهُ، ونَفَى أن يكونَ له عِلمٌ بالإلٰهِ الحقِّ، وفَعَلَ الأسبابَ لِيَتَوَصَّلَ إلى إلٰهِ مُوسَى، وكلُّ هذا ترويجٌ؛ ولكنَّ العَجَبَ من هؤلاءِ الملإِ الَّذينَ يَزعُمونَ أنَّهُم كِبارُ المملكةِ، المُدبِّرُونَ

(١) جامع البيان: (١٢/ ٥٦١).

لِشُؤُونِها كيفَ لَعِبَ هذا الرَّجُلُ بعُقولِهِم، واستَخَفَّ أحلامَهُم، وهذا لفِسقِهِمُ[١] الَّذِي صارَ صِفَةً راسخةً فيهم؛ فَسَدَ دِينُهُم، ثم تَبِعَ ذلكَ فسادُ عقولِهِم؛ فنسألُكَ اللَّهُمَّ الثَّباتَ على الإيمانِ، وأن لَّا تُزِيغَ قلوبَنَا بعدَ إذ هَدَيْتَنَا، وتَهَبَ لنا من لَدُنْكَ رحمةً؛ إنَّكَ أنتَ الوَهَّابُ»[٢].

وهذا شأنُ الأتباعِ في الضَّلالِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ يَتَّبِعُونَ كبيرَهُم في كلِّ شيءٍ من غيرِ حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ، ثم يومَ القيامةِ يَعترِفُونَ أنَّهُمُ اتَّبَعُوا كُبَرَاءَهُم فأضَلُّوهُم، وأبعَدُوهُم عن طريقِ الحقِّ.

قالَ تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: وقالَ الكافرونَ يومَ القيامةِ في جهنَّمَ: رَبَّنَا إنَّا أَطَعْنَا أئِمَّتَنَا في الضَّلالةِ وكُبَرَاءَنا في الشِّركِ ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾؛ يقول: فأزَالُونا عن مَحَجَّةِ الحقِّ، وطريقِ الهُدَى، والإيمانِ بِكَ، والإقرارِ بوَحدَانِيَّتِكَ، وإخلاصِ طاعتِكَ في الدُّنيا»[٣].

وقالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأنَّ كُبَرَاءَهُم ما تَأتَّى لهم إضلالُهُم إلَّا بتَسَبُّبِ طاعتِهِمُ العمياءِ إيَّاهُم، واشتغالِهِم بطاعتِهِم عنِ النَّظَرِ والاستدلالِ فيما يَدعُونَهُم إليهِ من فسادٍ ووَخامَةٍ[٤] مَغَبَّةٍ[٥]»[٦].

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥٤].

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/١٢٨٢). (٣) جامع البيان: (١٩/١٨٨ ـ ١٨٩).

(٤) **وخامة**: يقال: هذا الأمر وخيم العاقبة؛ **أي**: ثقيلٌ رديءٌ. **انظر**: لسان العرب: (١٥/٢٤٥).

(٥) **مَغَبَّة**: غِبُّ الأمر ومَغَبَّتُه: عاقبتُهُ وآخِرُهُ، وغَبَّ الأمرُ: صارَ إلى آخِرِهِ. **انظر**: لسان العرب: (١٠/٥).

(٦) التحرير والتنوير: (٢٢/١١٨).

ثالثًا: اتِّباعُ الفِرَقِ الضَّالَّةِ:

جَعَلَ اللهُ ﷻ للحقِّ طريقًا واحدًا، وفي مقابِلِ هذا الطَّريقِ طُرُقٌ كثيرةٌ ضالَّةٌ بعيدةٌ عن نورِ الحقِّ؛ فلِذَلِكَ أَمَرَ سبحانه بلُزُومِ طريقِ الحقِّ المستقيمِ، واجتنابِ ما عداهُ منَ الطُّرُقِ.

قالَ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾؛ يقولُ: ولا تَسلُكُوا طريقًا سِواهُ، ولا تَركَبُوا مَنْهَجًا غيرَهُ، ولا تَبْغُوا دِينًا خلافَهُ منَ اليَهوديَّةِ والنَّصرانيَّةِ والمَجُوسِيَّةِ وعبادةِ الأوثانِ، وغيرِ ذلكَ منَ المِلَلِ؛ فإنَّها بِدَعٌ وضَلالاتٌ ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾؛ يقولُ: فَيُشَتِّتَ بِكُم ـ إنِ اتَّبَعْتُمُ السُّبُلَ المُحدَثَةَ الَّتِي ليسَتْ للهِ بسُبُلٍ ولا طُرُقٍ ولا أديانٍ ـ اتِّباعُكُم إيَّاها ﴿عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾؛ يَعنِي: عن طريقِهِ ودِينِهِ الَّذي شَرَعَهُ لكم وارتضاهُ؛ وهو الإسلامُ الَّذي وَصَّى به الأنبياءَ، وأَمَرَ به الأُمَمَ قبلَكُم»[1].

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾؛ أي: الطُّرُقَ المخالفةَ لهذا الطَّريقِ، ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾؛ أي: تُضِلَّكُمْ عنه، وتُفَرِّقَكُم يَمِينًا وشِمالًا؛ فإذا ضَلَلْتُمْ عنِ الصِّراطِ المستقيمِ؛ فليسَ ثَمَّ إلَّا طُرُقٌ تُوصِلُ إلى الجَحِيمِ»[2].

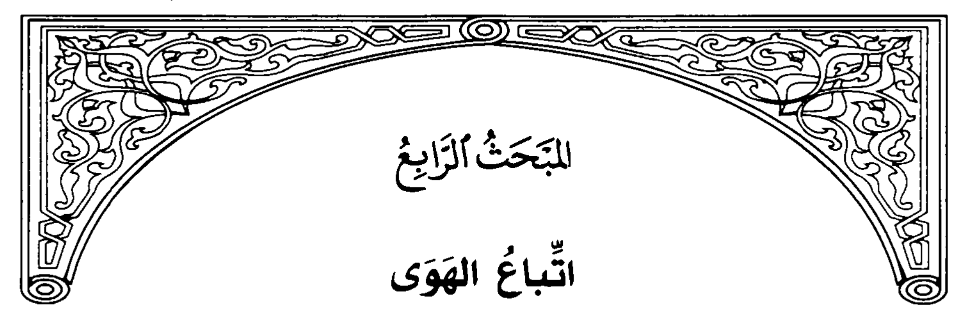
وقالَ ابنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «وهذه الآيةُ تَعُمُّ أهلَ الأهواءِ والبِدَعِ والشُّذُوذِ في الفُروعِ، وغيرَ ذلكَ من أهلِ التَّعمُّقِ في الجَدَلِ والخَوضِ في الكلامِ، هذه كلُّها عُرضَةٌ للزَّلَلِ ومَظِنَّةٌ لسُوءِ المعتقَدِ»[3].

---

(١) جامع البيان: (٩/ ٦٦٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٥٢٤).
(٣) المحرر الوجيز: (٣/ ٤٩٥).

إنَّ طريقَ الحقِّ واضحٌ وهو لُزُومُ الكتابِ والسُّنَّةِ، وما كانَ عليه سَلَفُ الأُمَّةِ؛ فلْيَلْزَمِ المسلمُ هذا الطَّريقَ، ولْيَحْذَرْ من كُلِّ طريقٍ يُخالفُ ذلكَ.





المَبْحَثُ الرَّابِعُ

اتِّباعُ الهَوَى

إنَّ منَ الأسبابِ الَّتِي تَجعَلُ الإنسانَ لا يَقبَلُ الحقَّ ـ: اتِّباعَهُ لهواهُ، فكم أعرَضَ إنسانٌ عنِ الحقِّ مع ظُهورِهِ ووُضوحِهِ، لكنْ صَدَّهُ عن ذلكَ اتِّباعُهُ لهواهُ.

قالَ أبو الحَسَنِ الماوَرْدِيُّ[(١)] رَحِمَهُ اللهُ: «وأمَّا الهَوَى، فإنَّهُ عنِ الخَيرِ صادٌّ، وللعَقلِ مُضادٌّ؛ لأنه يُنتِجُ منَ الأخلاقِ قبائحَها، ويُظهِرُ منَ الأفعالِ فضائحَها، ويَجعلُ سِترَ المُروءَةِ مَهتُوكًا، ومَدخَلَ الشَّرِّ مَسلُوكًا»[(٢)].

ويقولُ الشَّاطبيُّ[(٣)] رَحِمَهُ اللهُ: «وذلكَ أنَّ مخالفةَ ما تَهوَى الأنفُسُ شاقٌّ عليها، وصَعبٌ خُروجُها عنه؛ ولذلكَ بَلَغَ أهلُ الهَوَى في مساعدتِهِ مبالِغَ لا يَبلُغُها غيرُهُم، وكَفَى شاهِدًا على ذلكَ حالُ المحبِّينَ، وحالُ مَن بُعِثَ إليهم رسولُ اللهِ ﷺ منَ المشركِينَ وأهلِ الكتابِ، وغيرِهِم ممَّن صَمَّمَ على ما هو عليه، حتَّى رَضُوا بإهلاكِ النُّفوسِ والأموالِ، ولم يَرضَوْا

---

(١) **أبو الحسن الماوردي**: علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي الشافعي، حدث عنه أبو بكر الخطيب ووثقه، له من التصانيف: الأحكام السلطانية، وقانون الوزارة وسياسة الملك... وغير ذلك توفي سنة: (٤٥٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء: (١٨/ ٦٤ ـ ٦٨).

(٢) أدب الدنيا والدين: (ص٧).

(٣) **الشاطبي**: هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الغرناطي الشهير بالشاطبي، العلامة المؤلف المحقق، الفقيه الأصولي المفسر المحدث، له من المؤلفات: الموافقات والاعتصام، توفي سنة: (٧٩٠هـ). انظر: شجرة النور الزكية: (ص٢٣١).

بمُخالفةِ الهَوَى»[١].

ولِشِدَّةِ خَطَرِ اتِّباعِ الهَوَى، فقد حَذَّرَ منه النَّبيُّ ﷺ؛ فقالَ: **(إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمُضِلَّاتِ الهَوَى)**[٢].

وقد بَيَّنَ اللهُ ﷻ في كتابِهِ الكريمِ أنَّ اتِّباعَ الهَوَى سببٌ للكُفرِ باللهِ والإعراضِ عن دِينِهِ وتكذيبِ رُسُلِهِ؛ فقد ذَكَرَ سبحانه أنَّ من أسبابِ تكذيبِ كُفَّارِ قُريشٍ اتِّباعَهُم لأهوائِهِم.

قالَ تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا۟ وَاتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٢، ٣].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: وكَذَّبَ هؤلاءِ المشركُونَ من قُريشٍ بآياتِ اللهِ بعدَ ما أَتَتْهُم حَقِيقَتُها، وعايَنُوا الدَّلالةَ على صِحَّتِها برُؤيَتِهِمُ القَمَرَ مُنْفَلِقًا فِلْقَتَيْنِ ﴿وَاتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾؛ يقولُ: وآثَرُوا اتِّباعَ ما دَعَتْهُم إليه أهواءُ أنفُسِهِم؛ من تكذيبِ ذلكَ على التَّصديقِ بما قد أَيقَنُوا صِحَّتَهُ من نُبُوَّةِ محمَّدٍ ﷺ، وحقيقةِ ما جاءَهُم به من رَبِّهِم»[٣].

وقد ذَكَرَ ﷻ في كتابِهِ الكريمِ أنَّ من أسبابِ الشِّركِ وعدمِ قَبولِ الحقِّ اتِّباعَ الهَوَى.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم

---

(١) الموافقات: (٢/ ٢٦٤).

(٢) مسند الإمام أحمد: (٣٣/ ٣٣) حديث رقم: (١٩٧٨٧)، قال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الترغيب والترهيب: (١/ ١٣٠).

(٣) جامع البيان: (٢٢/ ١١٤).

بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٨، ٢٩].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا عُلِمَ من هذا المثالِ أنَّ مَنِ اتَّخذَ من دُونِ اللهِ شَرِيكًا يَعبُدُهُ ويَتَوكَّلُ عليه في أُمورِهِ؛ فإنَّه ليسَ معه منَ الحقِّ شيءٌ؛ فما الَّذِي أوجَبَ له الإقدامَ على أمْرٍ باطلٍ تَوَضَّحَ له بطلانُهُ وظَهَرَ برهانُهُ[1]؟ لقد أوجَبَ لهم ذلكَ اتِّباعُ الهَوَى؛ فلِهَذا قالَ: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ هَوِيَتْ أنفُسُهُمُ النَّاقصةُ الَّتِي ظَهَرَ من نَقصِها ما تَعَلَّقَ به هواها، أمرًا يَجزِمُ العقلُ بفسادِهِ والفِطَرُ بردِّهِ بغيرِ علمٍ دَلَّهُم عليه ولا بُرهانٍ قادَهُم إليه»[2].

واتِّباعُ الهَوَى سببٌ أوقَعَ في التَّكذيبِ بالسَّاعةِ؛ قالَ تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٥، ١٦].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: فلا يَصُدَّك ويَشغَلكَ عنِ الإيمانِ بالسَّاعةِ والجزاءِ والعَمَلِ لذلكَ مَن كانَ كافرًا بها، غيرَ معتَقِدٍ لوُقوعِها، يَسعَى في الشَّكِّ فيها والتَّشكيكِ، ويجادِلُ فيها بالباطلِ، ويُقيمُ مِنَ الشُّبَهِ ما يَقدِرُ عليه، مُتَّبِعًا في ذلكَ هواهُ ليسَ قَصدُهُ الوُصولَ إلى الحقِّ، وإنَّما قُصارَاهُ اتِّباعُ هواهُ؛ فإيَّاكَ أن تُصغِيَ إلى مَن هذه حالُهُ»[3].

وقد كانَ اتِّباعُ الهَوَى سببًا في ضلالِ اليهودِ وعَدَمِ اتِّباعِهِم للحَقِّ الَّذي جاءَتْهُم به الرُّسُلُ.

قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا

---

(١) يعني: ظهر برهانه أنه باطل.

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١٣٣٤).

(٣) المصدر السابق: (٣/ ١٠٢١).

تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فكانت بنو إسرائيلَ تعامِلُ الأنبياءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أسوَأَ المعاملةِ؛ ففَرِيقًا يُكذِّبُونَهُ وفريقًا يَقتُلونَهُ، وما ذاكَ إلَّا لأنَّهم كانُوا يَأتونَهم بالأُمورِ المخالفةِ لأهوائِهم وآرائِهم، وبإلزامِهم بأحكامِ التَّوراةِ الَّتِي قد تَصَرَّفُوا في مخالفتِها؛ فلهذا كانَ يَشُقُّ ذلكَ عليهم؛ فيُكَذِّبُونَهُم، ورُبَّما قَتَلُوا بعضَهُم»(١).

وقالَ تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَذكُرُ تعالى أنه أَخَذَ العهودَ والمواثيقَ على بنِي إسرائيلَ على السَّمعِ والطَّاعةِ للهِ ولرسولِهِ؛ فنَقَضُوا تلكَ العُهودَ والمواثيقَ، واتَّبَعُوا آراءَهُم وأهواءَهُم وقَدَّمُوها على الشَّرائعِ؛ فما وافَقَهُم منها، قَبِلُوهُ، وما خالَفَهُم، رَدُّوهُ»(٢).

بل كانَ اتِّباعُ اليهودِ لأهوائِهم سَبَبًا في تكذيبِهم لنَبِيِّنا محمَّدٍ ﷺ؛ قالَ تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾؛ فلم يَأتُوا بكتابٍ أهدَى منهما ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾؛ أي: فاعلَمْ أنَّ تركَهُم اتِّباعَكَ، لَيسُوا ذاهِبينَ إلى حقٍّ يعرفونَهُ، ولا إلى هُدًى، وإنَّما ذلكَ مجرَّدُ اتِّباعٍ لأهوائِهم ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ فهذا

(١) تفسير القرآن العظيم: (١/ ٣٢١). (٢) المصدر السابق: (٣/ ١٥٦).

من أضَلُّ النَّاسِ؛ حيثُ عُرِضَ عليه الهُدَى والصِّراطُ المستقيمُ الموصِلُ إلى اللهِ وإلى دارِ كرامتِهِ؛ فلم يَلتَفِتْ إليه، ولم يُقْبِلْ عليه، ودعاهُ هواهُ إلى سُلوكِ الطُّرقِ المُوصلةِ إلى الهلاكِ والشَّقاءِ؛ فاتَّبَعَهُ وتَرَكَ الهُدَى؛ فهل أَحَدٌ أضلُّ ممَّنْ هذا وَصفُهُ؟»[1].

وكذلكَ المنافقونَ؛ جاءَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ بالحقِّ من عندِ اللهِ؛ فأعرَضُوا عنه، واتَّبَعُوا أهواءَهُم؛ فكانَ ذلكَ سَبَبَ ضلالِهِم.

قالَ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ: ورَفَضُوا أَمْرَ اللهِ، واتَّبَعُوا ما دَعَتْهُم إليه أنفُسُهُم؛ فهم لا يَرجِعُونَ ممَّا هم عليه إلى حقيقةٍ ولا برهانٍ، وسَوَّى جلَّ ثناؤُهُ بينَ صفةِ هؤلاءِ المنافِقينَ وبينَ المشركِينَ؛ في أنَّ جميعَهُم إنَّما يَتَّبِعُونَ فيما هم عليه من فِراقِهِم دِينَ اللهِ الَّذي ابتَعَثَ به محمَّدًا ﷺ أهواءَهُم؛ فقالَ - في هؤلاءِ المنافِقينَ -: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ وقالَ - في أهلِ الكُفرِ به مِن أهلِ الشِّركِ -: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤]»[2].

«واتِّباعُ الهَوَى من أهمِّ أسبابِ نشأةِ كثيرٍ منَ الفِرَقِ الضَّالَّةِ، والطَّوائفِ المنحرفةِ؛ لأنَّ أصحابَ هذه الفِرَقِ قَدَّمُوا أهواءَهُم على الشَّرعِ أوَّلًا، ثم حاوَلُوا جاهدِينَ أن يَستَدِلُّوا بالشَّريعةِ على أهوائِهِم، وحَرَّفُوا النُّصوصَ والأدلَّةَ لِتُوافِقَ ما هم عليه منَ البِدَعِ؛ فلم يأخُذُوا الأدلَّةَ الشَّرعيَّةَ مَأخَذَ الافتقارِ إليها، بلِ اعتَمَدُوا على آرائِهِم وعقولِهِم في تقريرِ ما هم عليه، ثمَّ جَعَلُوا الشَّريعةَ مصدرًا ثانويًا، نَظَرُوا فيها بِناءَ

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١٢٨٥).
(٢) جامع البيان: (٢١/ ٢٠٤ - ٢٠٥).

على ما قَرَّرُوهُ وَأَصلُوهُ»(١).

ومِنَ الأحوالِ الَّتِي حَذَّرَ اللهُ سبحانه منِ اتِّباعِ الهَوَى فيها: الحكمُ بينَ النَّاسِ؛ لأنَّ اتِّباعَ الهَوَى في هذه الحالةِ يَحمِلُ على الظُّلمِ وتَركِ العَدْلِ.

قالَ تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «والقيامُ بالقِسطِ من أعظَمِ الأُمورِ، وأدَلُّ على دِينِ القائمِ به، ووَرَعِهِ ومقامِهِ في الإسلامِ؛ فيَتَعَيَّنُ على مَن نَصَحَ نفسَهُ، وأرادَ نجاتَها أن يهتَمَّ له غايةَ الاهتمامِ، وأن يجعلَهُ نُصْبَ عَينَيهِ ومحلَّ إرادتِهِ، وأن يُزيلَ عن نفسِهِ كل مانعٍ وعائقٍ يَعوقُهُ عن إرادةِ القِسطِ أوِ العملِ به، وأعظَمُ عائقٍ لذلكَ اتِّباعُ الهَوَى، ولهذا نَبَّهَ تعالى على إزالةِ هذا المانعِ بقَولِهِ: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا﴾؛ أي: فلا تَتَّبِعُوا شهواتِ أنفُسِكُم المعارِضَةَ للحقِّ؛ فإنَّكم إنِ اتَّبَعْتُمُوها عَدَلْتُم عنِ الصَّوابِ، ولم تُوَفَّقُوا للعدلِ؛ فإنَّ الهَوَى إمَّا أن يُعمِيَ بصيرةَ صاحبِهِ حتَّى يَرَى الحقَّ باطِلًا والباطلَ حقًّا، وإمَّا أن يَعرِفَ الحقَّ ويَترُكَهُ لأجْلِ هواهُ؛ فمَن سَلِمَ من هَوَى نفسِهِ وُفِّقَ للحَقِّ وهُدِيَ إلى الصِّراطِ المستقيم»(٢).

وأَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ بالعَدلِ بينَ النَّاسِ، ونهاهُ عنِ اتِّباعِ الهَوَى؛ لأنَّهُ يَصُدُّ عنِ العَدلِ.

---

(١) الفتنة وموقف المسلم منها: (ص٤٣٧ ـ ٤٣٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٣٦٩).

قالَ تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾؛ يقولُ: ولا تُؤْثِرْ هواكَ في قضائِكَ بَينَهُم على العدلِ والحقِّ فيه؛ فتَجُورَ عنِ الحقِّ، ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ يقولُ: فيَمِيلُ بكَ اتِّباعُكَ هواكَ في قضائِكَ على العَدلِ والعَمَلِ بالحقِّ عن طريقِ اللهِ الَّذي جَعَلَهُ لأهلِ الإيمانِ به؛ فتكونَ منَ الهالكِينَ بضَلالِكَ عن سبيلِ اللهِ»[1][2].

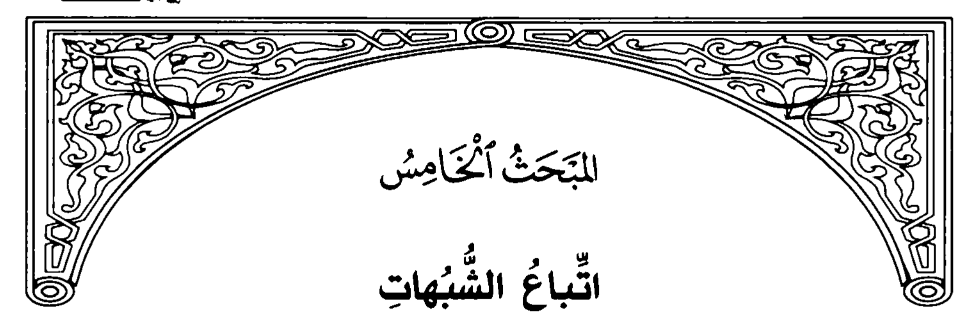
تَبَيَّنَ من ذلكَ أنَّ اتِّباعَ الهَوَى أمرٌ خطيرٌ يُورِدُ الإنسانَ المهالكَ، ويَصُدُّهُ عنِ الحَقِّ، ويُعمِيهِ حتَّى يَرَى الحقَّ باطلًا والباطلَ حقًّا.



---

(١) جامع البيان: (٢٠/٧٧).

(٢) قال ابن عثيمين: «وإنما نهاه عن اتباع الهوى تعظيمًا لهذا الأمر، ولا يلزم من نهيه عنه أن يكون ممكنًا في حقه؛ كما قال الله تعالى للنَّبيِّ ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ولا يلزم من هذا أن يكون الإشراك في حقه ممكنًا، وقد يقال: إنَّ الله نهاه عن اتباع الهوى لقوة الهوى في البشر؛ فإن الهوى في البشر أمر مفطور عليه؛ لأنه يندر أن شخصًا يتقدم إليه أبوه مع شخص آخر عدوٌّ له؛ يندر أن لا يكون له هوى، أو يتقدم إليه شخص من أصدقائه الحميمين مع آخر من أعدائه الألداء ثم لا يميل مع الأول؛ يندر هذا؛ فلقوة الداعي وهو الهوى نهى الله عنه، وإن كان لا يمكن في حقه». انظر: تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين. سورة صٓ: (ص١٢٢).



المَبحَثُ الخَامِسُ

اتِّباعُ الشُّبُهاتِ

اتَّبَعَ بعضُ الأقوامِ الشُّبهاتِ وتَرَكُوا المُحكَمَ؛ فَضَلُّوا في أنفُسِهِم وأضلُّوا كثيرًا منَ النَّاسِ وقد ذَكَرَ اللهُ سبحانه هؤلاءِ في كتابِهِ الكريمِ، وحَذَّرَ منهمُ النَّبيُّ ﷺ.

قالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

أمَّا الَّذينَ في قلوبِهِم زَيغٌ الَّذينَ عُنُوا بهذه الآيةِ؛ فقد وَرَدَتْ في ذلكَ أقوالٌ(١)، ولكنَّ الآيةَ تَعُمُّ كلَّ منِ اتَّبَعَ الشُّبُهاتِ مُضِلًّا نفسَهُ بذلكَ، مُبتَغِيًا بذلكَ إضلالَ النَّاسِ؛ مِن كافرٍ ومنافقٍ ومبتَدِعٍ.

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «فأمَّا الَّذينَ في قلوبِهِم مَيلٌ عنِ الحقِّ وحَيفٌ عنه؛ فيَتَّبِعُونَ من آيِ الكتابِ ما تشابَهَتْ ألفاظُهُ، واحْتَمَلَ صَرْفَهُ في وجوهِ

(١) قيل: إنهم نصارى نجران، الذين قدموا على الرسول ﷺ وحَاجُّوه في عيسى عليه السلام، وقيل: نزلت في أبي ياسر بن أخطب وأخيه حييّ بن أخطب، وقيل: عُني بذلك كل مبتدع في دينه بدعة مخالفة لما ابتعث به رسوله ﷺ، وقيل: إنهم الخوارج، وقيل: إنهم المنافقون، وقيل: إنهم اليهود. انظر: جامع البيان: (٥/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦)، وانظر: زاد المسير: (١/ ٣٥٣).

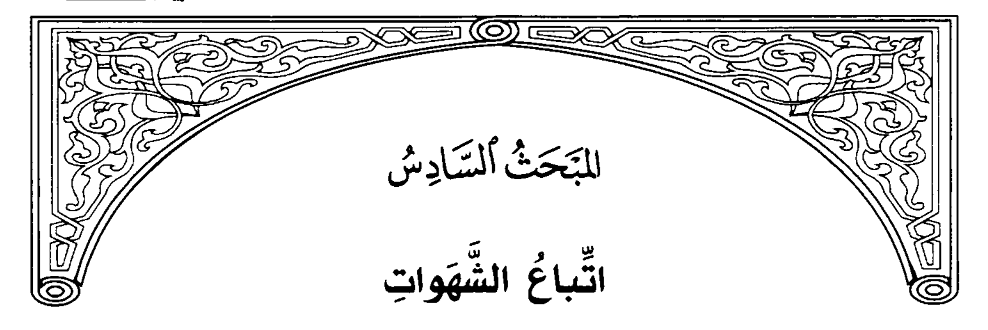
التَّأويلاتِ باحتمالِهِ المعانِيَ المختلفةَ؛ إرادةَ اللَّبْسِ على نفسِهِ وعلى غيرِهِ احتِجَاجًا به على باطِلِهِ الَّذي مالَ إليه قلبُهُ دونَ الحقِّ الَّذي أبانَهُ اللهُ؛ فأَوْضَحَهُ بالمُحكَماتِ من آيِ كتابِهِ، وهذه الآيةُ وإن كانت نزلَتْ فيمَن ذَكَرْنَا أنَّها نَزَلَتْ فيه من أهلِ الشِّركِ؛ فإنَّهُ مَعنِيٌّ بها كلُّ مُبتَدِعٍ في دِينِ اللهِ بِدعَةً؛ فمالَ قلبُهُ إليها؛ تأويلًا منه لبعضِ مُتشابِهِ آيِ القُرآنِ، ثم حَاجَّ به وجادَلَ به أهلَ الحقِّ، وعَدَلَ عنِ الواضحِ من أدلَّةِ آيِهِ المُحكَماتِ؛ إرادةً منه بذلكَ اللَّبْسَ على أهلِ الحقِّ منَ المؤمنِينَ، وطَلَبًا لِعِلمِ تأويلِ ما تشابَهَ عليه من ذلكَ كائِنًا مَن كانَ، وأيَّ أصنافِ البدعةِ كانَ»[1].

وقالَ ابنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾؛ يَعُمُّ كُلَّ طائفةٍ من كافرٍ وزِنديقٍ وجاهلٍ صاحبِ بدعةٍ»[2].

وقالَ ابنُ عُثَيمِين ـ رَحِمَهُ اللهُ، في معنَى الآيةِ ـ: «أيْ: في قلوبِهِم مَيلٌ عنِ الحقِّ؛ فهم لا يريدُونَ الحقَّ، وإنَّما يَتَّبِعُونَ المتشابِهَ؛ فتَجِدُهُم ـ والعياذُ باللهِ ـ يأخُذُونَ آياتِ القُرآنِ الَّتِي فيها اشتباهٌ؛ حتَّى يَضرِبُوا بعضَها ببعضٍ، وما أكثَرَ هؤلاءِ! لِيَصُدُّوا عن سبيلِ اللهِ، ويُشَكِّكُوا النَّاسَ في كلامِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[3].



(١) جامع البيان: (٥/ ٢١٣ ـ ٢١٤).
(٢) المحرر الوجيز: (٢/ ١٥٩).
(٣) تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين، سورة آل عمران: (١/ ٣٣).



المَبْحَثُ السَّادِسُ

اتِّباعُ الشَّهَواتِ

لا يَخفَى ما للشَّهواتِ من أثرٍ عظيمٍ على الإنسانِ على دِينِهِ وعَقلِهِ؛ فإنَّ الإنسانَ إذا اتَّبَعَ هذه الشَّهواتِ، شَغَلَتْهُ عن ذِكرِ اللهِ، وصَدَّتْهُ عن دِينِ اللهِ.

وقد ذَكَرَ اللهُ ﷻ ذلكَ في كتابِهِ الكريمِ؛ فقدِ اتَّبَعَ أقوامٌ الشَّهَواتِ حتَّى صَدَّتْهُم عن أعظَمِ الحقوقِ؛ وهي الصَّلاةُ.

قالَ تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا أضاعُوها، فهم لِمَا سِوَاهَا منَ الواجباتِ أَضْيَعُ؛ لأنَّها عمادُ الدِّينِ وقِوامُهُ، وخيرُ أعمالِ العِبادِ، وأَقبَلُوا على شَهواتِ الدُّنيا ومَلاذِّها، ورَضُوا بالحياةِ الدُّنيا واطمَأَنُّوا بها؛ فهؤلاءِ سَيَلْقَوْنَ غَيًّا؛ أيْ: خَسارًا يومَ القيامةِ»[١].

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لمَّا ذَكَرَ تعالى هؤلاءِ الأنبياءَ[٢] المخلَصُونَ المُتَّبِعُونَ لمراضِي ربِّهِم، المُنِيبُونَ إليهِ، ذَكَرَ مَن أَتَى بعدَهم، وبَدَّلُوا

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٥/ ٢٤٣).

(٢) يقصد: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩﴾ [مريم: ٥٨].

ما أُمِرُوا به، وأنَّهُ خَلَفَ من بعدِهِم خَلْفٌ، رَجَعُوا إلى الخَلْفِ والوراءِ؛ فأضاعُوا الصَّلاةَ الَّتِي أُمِرُوا بالمحافظةِ عليها وإقامتِها؛ فتَهاوَنُوا بها وضَيَّعُوها، وإذا ضَيَّعُوا الصَّلاةَ الَّتِي هي عمادُ الدِّينِ، وميزانُ الإيمانِ والإخلاصِ لربِّ العالمينَ، الَّتِي هي آكَدُ الأعمالِ، وأفضَلُ الخِصالِ، كانوا لِمَا سِوَاها من دِينِهِم أَضْيَعَ، وله أرفَضَ.

والسَّبَبُ الدَّاعي لذلكَ أنَّهمُ اتَّبَعُوا شَهواتِ أنفُسِهِم وإراداتِها؛ فصارَتْ هِمَمُهُم مُنصَرِفَةً إليها، مُقَدَّمَةً لها على حقوقِ اللهِ؛ فنَشَأَ من ذلكَ التَّضييعُ لحقوقِهِ، والإقبالُ على شَهَواتِ أنفُسِهِم، مَهمَا لاحَتْ لهم، حَصَّلُوها، وعلى أيِّ وجهٍ اتَّفَقَتْ، تَناوَلُوها»[1].

بل قد يُصبِحُ المُتَّبِعُ للشَّهواتِ داعيَةً إلى الباطلِ صادًّا عنِ الحقِّ، وهذا يُبَيِّنُ خَطَرَ اتِّباعِ الشَّهواتِ.

قالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾[2]؛ **أي**: يَمِيلُونَ معها حيثُ مالَتْ، ويُقدِّمُونَها على ما فيه رضا محبوبِهِم، ويَعبُدُونَ أهواءَهُم من أصنافِ الكَفَرَةِ والعاصِينَ، المُقدِّمِينَ لأهوائِهِم على طاعةِ ربِّهِم؛ فهؤلاءِ يُريدُونَ ﴿أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾؛ **أي**: أن تَنحَرِفُوا عنِ الصِّراطِ المستقِيمِ إلى صراطِ المغضوبِ عليهم والضَّالِّينَ، يريدُونَ أن

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١٠٠٥).

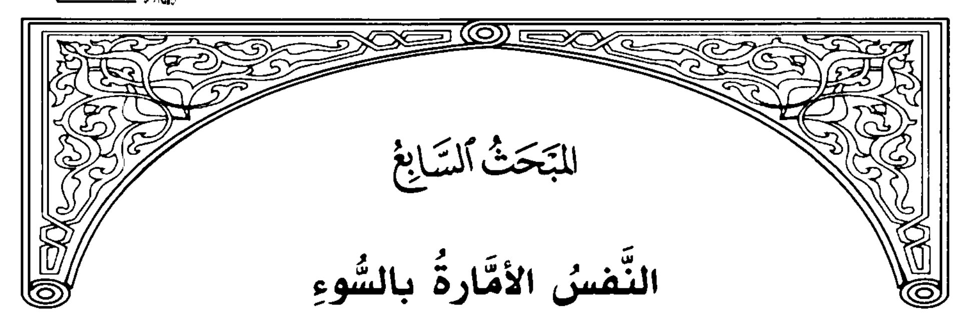
(٢) اختلف المفسرون في المقصود بالذين يتبعون الشهوات: **فقيل**: الزُّناة، **وقيل**: اليهود والنصارى، **وقيل**: اليهود خاصة، **وقيل**: كل متبع شهوةً في دِينِهِ لغيرِ الذي أبيح له، **وعلى كلٍّ**: فالآية تعم كل من اتبع الشهوات وابتغى بذلك إفساد الناس وإضلالهم. **انظر**: جامع البيان: (٦/ ٦٢٢ ـ ٦٢٣).

يَصرِفُوكُم عن طاعةِ الرَّحمٰنِ إلى طاعةِ الشَّيطانِ، وعنِ التزامِ حُدودِ مَنِ السَّعادةُ كُلُّها في امتثالِ أوامِرِهِ، إلى مَنِ الشَّقاوةُ كُلُّها في اتِّباعِهِ؛ فإذا عَرَفْتُم أنَّ اللهَ تعالى يَأمُرُكُم بما فيه صلاحُكُم وفلاحُكُم وسعادتُكُم، وأنَّ هؤلاءِ المُتَّبِعِينَ لشَهَواتِهِم يَأمُرُونَكم بما فيه غايةُ الخسارِ والشَّقاءِ؛ فاختَارُوا لأنفُسِكُم أَوْلَى الدَّاعِيَيْنِ، وتَخَيَّرُوا أحسَنَ الطَّرِيقَتَيْنِ»[1].

وبهذا يَتَبَيَّنُ خَطَرُ اتِّباعِ الشَّهواتِ؛ فإنَّ القلبَ إذا مالَ إليها وأُشْرِبَها، صارَ عزيزًا عليه أن يَتَّبِعَ الحقَّ.



(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٢٩٩).



المَبحَثُ السَّابِعُ

النَّفسُ الأمَّارةُ بالسُّوءِ

النَّفْسُ الأمَّارةُ بالسُّوءِ منَ الأسبابِ الَّتِي تُضِلُّ الإنسانَ وتَصُدُّهُ عنِ الحقِّ، وتَأمُرُهُ بالفَواحِشِ؛ **ولذلكَ سُمِّيَتْ في كتابِ اللهِ**: النَّفْسَ الأمَّارَةَ بالسُّوءِ؛ **أيْ**: كثيرةُ الأمرِ بالسُّوءِ، وقد أخبَرَ اللهُ عن هذا في قصَّةِ يوسُفَ عليه السلام مع امرأةِ العزيزِ؛ حينَ اعتَرَفَتْ وقالَتْ[١]: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٣].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «تقولُ المرأةُ: ولَستُ أُبَرِّئُ نفسِي؛ فإنَّ النَّفْسَ تَتَحَدَّثُ وتَتَمَنَّى؛ ولهذا راوَدَتْهُ لأنَّها أَمَّارَةٌ بالسُّوءِ»[٢].

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾؛ **أي**: لَكَثيرَةُ الأمرِ لصاحبِها بالسُّوءِ؛ **أي**: الفاحشةِ، وسائرِ الذُّنوبِ؛ فإنَّها مَركَبُ الشَّيطانِ، ومنها يَدخُلُ على الإنسانِ»[٣].

«ومِن لُطفِ اللهِ أنْ قالَ عنِ النَّفْسِ: إنَّها أَمَّارَةٌ بالسُّوءِ؛ وفي هذا توضيحٌ كافٍ لطبيعةِ عَمَلِ النَّفْسِ؛ فهي ليسَتْ آمِرَةً بالسُّوءِ، بمَعنَى: أنَّها

---

(١) **قيل**: إن هذا القول من قول يوسف عليه السلام، **وقيل**: إنه من قول امرأة العزيز وهو الراجح لأنه موافق لظاهر القرآن، ولدلالة السياق عليه، ورجح هذا القولَ ابنُ تَيْمِيَّةَ. **انظر**: مجموع الفتاوى: (١٠/ ٢٩٨)، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم: (٤/ ٣٩٥)، ورجحه أيضًا ابن القيم، وذكر أدلة كثيرة لترجيحه. **انظر**: روضة المحبين: (ص٢٢٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٤/ ٣٩٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمٰن.

تَأمُرُ الإنسانَ لِتَقَعَ منه المعصيةُ مرَّةً واحدةً ويَنتَهِي الأمرُ؛ لا، بلِ انْتَبِهْ أيُّها الإنسانُ إلى حقيقةِ عَمَلِ النَّفسِ؛ فهي دائمًا أمَّارَةٌ بالسُّوءِ، وأنتَ تعلَمُ أنَّ التَّكليفاتِ الإلٰهيَّةَ كلَّها إمَّا أوامِرُ أو نَوَاهٍ، وقد تَستَقْبِلُ الأوامرَ كتكليفٍ يَشُقُّ على نفسِكَ، وأنتَ تعلَمُ أنَّ النَّواهِيَ تَمنَعُكَ من أفعالٍ قد تكونُ مرغوبةً لك؛ لأنَّها في ظاهرِها مُمتِعَةٌ، وتُلَبِّي نداءَ غرائزِ الإنسانِ»[1].

ومنَ الأمثلةِ على ذلكَ قصَّةُ ابنَيْ آدَمَ؛ حيثُ أقدَمَ أحدُهُما على قَتلِ أخيهِ مُعرِضًا في ذلكَ عنِ الحقِّ؛ وما ذلكَ إلا بسَبَبِ النَّفْسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ.

قالَ تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠].

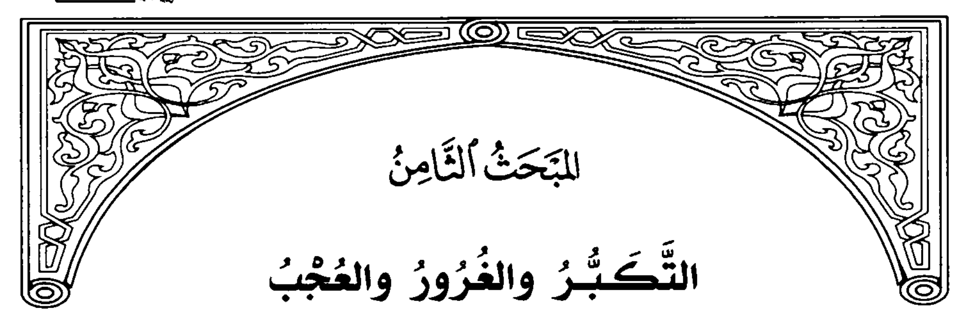
قالَ ابنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «والمعنى: أنَّ القَتلَ في ذاتِهِ مُستَصْعَبٌ عظيمٌ على النُّفوسِ فرَدَّتْهُ هذه النَّفْسُ اللَّجُوجَةُ[2] الأمَّارةُ بالسُّوءِ طائِعًا مُنقادًا حتَّى واقَعَهُ صاحبُ هذه النَّفْسِ»[3].

وكذلكَ إخوَةُ يُوسُفَ عَلَيهِ السَّلامُ لم يَقبَلُوا التَّفضِيلَ الَّذي فُضِّلَ به يوسُفُ عليهِم، حتَّى انتَهَى بهِمُ الأمرُ إلى أن حاوَلُوا قَتْلَ أخِيهِم؛ وذلكَ بسَبَبِ أنفُسِهِمُ الَّتِي زَيَّنَتْ لهم ذلكَ الفِعلَ؛ ولذلكَ قال لهم أبُوهُم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ١٨].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أي: زَيَّنَتْ لكُم أنفُسُكُم أمْرًا قَبِيحًا في التَّفريقِ بَينِي وبَينَهُ»[4].

---

(١) تفسير الشعراوي: (١١/ ٦٩٩٢).
(٢) اللَّجُوجَةُ: الملاجَّةُ: التَّمادِي في الخصومةِ. انظر: الصحاح: (١/ ٣٣٧).
(٣) المحرر الوجيز: (٣/ ١٤٧).
(٤) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٧٨٢).



المَبْحَثُ الثَّامِنُ

التَّكَبُّرُ والغُرُورُ والعُجْبُ

الكِبْرُ صِفَةٌ ذميمةٌ تَحمِلُ صاحبَها على ردِّ الحقِّ واحتقارِ النَّاسِ؛ كما وَرَدَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: (**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**)؛ قالَ رجلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يحبُّ أن يكونَ ثوبُهُ حَسَنًا ونَعلُهُ حَسَنَةً؟ قالَ: (**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ؛ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ**)[(١)].

قالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وأمَّا بَطَرُ الحقِّ: فهو دَفعُهُ وإنكارُهُ؛ تَرَفُّعًا وتَجَبُّرًا»[(٢)].

فبَيَّنَ النَّبيُّ ﷺ في هذا الحديثِ أنَّ الكِبرَ من دوافِعِ إنكارِ الحَقِّ وعدمِ قَبولِهِ، وقد ذَكَرَ ﷻ هذه الصِّفَةَ في كتابِهِ الكريمِ وحَذَّرَ منها، وبَيَّنَ سبحانه أنَّ الكِبرَ يَحمِلُ صاحبَهُ على ردِّ الحقِّ.

فإبليسُ ـ عليه لعنةُ اللهِ ـ عندَما أَمَرَهُ اللهُ تعالى بالسُّجودِ لآدَمَ، حَمَلَهُ الكِبْرُ الَّذي في نفسِهِ، واحتقارُهُ لآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ على عَدَمِ السُّجودِ، ومعصيةِ ربِّهِ تَبارَكَ وتعالى.

قالَ تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [ص: ٧٤].

---

(١) صحيح مسلم: (١/٥٥)، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، حديث رقم: (١٤٧).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: (٢/٩٣).

قالَ ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧٤﴾؛ يقولُ: غيرَ إبليسَ؛ فإنَّهُ لم يَسجُدْ، استكْبَرَ عنِ السُّجودِ له تعظُّمًا وتكبُّرًا»[١].

وقد ذَكَرَ اللهُ سبحانه في كتابِهِ المبارَكِ بعضَ الأقوامِ الَّذينَ أَتَتْهُم رُسُلُهُم بالبيِّناتِ فكانَ الكِبرُ سَبَبًا في عَدَمِ قَبولِهِم للحَقِّ الَّذي جاءَتْهُم به رُسُلُهُم ومِن تلكَ الأقوامِ قَومُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ!

قالَ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ [نوح: ٥ ـ ٧].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقولُهُ: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧﴾؛ يقولُ: وتَكَبَّرُوا؛ فتَعاظَمُوا عنِ الإذعانِ للحقِّ، وقَبولِ ما دَعَوْتَهُم إليهِ منَ النَّصيحةِ»[٢].

وكذلكَ عادٌ قومُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ تَكَبَّرُوا وتَعاظَمُوا فكانَ ذلكَ سَبَبًا في إعراضِهِم عن دعوةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قالَ تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

قالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنَّما ذَكَرَ من مَساوِيهِم الاستكبارَ؛ لأنَّ تَكَبُّرَهُم هو الَّذي صَرَفَهُم عنِ اتِّباعِ رَسولِهِم وعن تَوَقُّعِ عقابِ اللهِ»[٣].

وكذلكَ ثمودُ قَومُ صالحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ آمَنَ به الضُّعَفاءُ، أمَّا الكُبَراءُ فحَمَلَهُم كِبْرُهُم على الكُفرِ ومعارَضةِ صالحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ومَن آمَنَ معهُ.

---

(١) جامع البيان: (٢٠/ ١٤٤).
(٢) جامع البيان: (٢٣/ ٢٩٢).
(٣) التحرير والتنوير: (٢٤/ ٢٥٦).

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٣ ـ ٧٦].

قَالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾؛ حَمَلَهُمُ الكِبرُ أن لَّا يَنقَادُوا للحقِّ الَّذي انقادَ له الضُّعفاءُ»(١).

ومِنَ المُتكبِّرِينَ الَّذينَ وَرَدَ ذِكرُهُم في القُرآنِ كثيرًا ـ: فرعونُ ومَلَؤُهُ الَّذينَ بَلَغُوا منَ الكِبرِ مَبلغًا كَبِيرًا حتَّى تَمَرَّدُوا وتَجَبَّرُوا على موسى وقومِهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥].

قَالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾؛ أي: استَكْبَرُوا عنِ اتِّباعِ الحقِّ والانقيادِ له»(٢).

وقالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمرادُ أنَّهُم تَكَبَّرُوا عن تَلَقِّي الدَّعوةِ من موسى؛ لأنَّهُمُ احتَقَرُوهُ، وأحالُوا أن يكونَ رَسُولًا مِنَ اللهِ وهو مِن قَومٍ

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٥٦٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم: (٤/ ٢٨٥).

مُستعبَدِينَ؛ استَعْبَدَهُم فرعونُ وقَومُهُ»[١].

وقالَ تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ اسْتَكْبَرُوا على عِبادِ اللهِ، وسَامُوهُم سُوءَ العذابِ، واسْتَكْبَرُوا على رُسُلِ اللهِ، وما جاءُوهُم به منَ الآياتِ؛ فكَذَّبُوها، وزَعَمُوا أنَّ ما هم عليه أعلَى منها وأفضَلُ»[٢].

ومِثلُ فِرعونَ في تكذيبِهِ موسى وتَكَبُّرِهِ كذلكَ فَعَلَ قارُونُ وهامانُ؛ فرَدُّوا الحقَّ، وكَذَّبُوا مُوسَى.

قالَ تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكذلكَ قارونُ وفِرعونُ وهامانُ حِينَ بَعَثَ اللهُ إليهم مُوسَى بنَ عِمرانَ بالآياتِ البَيِّناتِ، والبراهينِ السَّاطعاتِ؛ فلم يَنقَادُوا، واستَكْبَرُوا في الأرضِ على عبادِ اللهِ؛ فأَذَلُّوهُم، وعلى الحقِّ فرَدُّوهُ؛ فلم يَقدِرُوا على النَّجاءِ حينَ نَزَلَتْ بِهِمُ العقوبةُ»[٣].

وكذلكَ مخالفُو نَبِيِّنا محمَّدٍ ﷺ كانَ الكِبرُ من أعظَمِ الأسبابِ الَّتِي صَدَّتْهُم عنِ اتِّباعِهِ.

قالَ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ

(١) التحرير والتنوير: (١١/ ٢٤٧).
(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١٢٨٢).
(٣) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١٣١٤).

فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٢، ٤٣].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾؛ وهو محمَّدٌ ﷺ بما أُنزِلَ معه منَ الكتابِ العظيمِ؛ وهو القرآنُ المُبِينُ ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤٢﴾؛ أي: ما ازْدَادُوا إلَّا كُفرًا إلى كُفرِهِم، ثُمَّ بَيَّنَ ذلكَ بقولِهِ: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: استكبَرُوا عنِ اتِّباعِ آياتِ اللهِ»[1].

وقالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يَقولُ تعالى ذِكرُهُ: إنَّ الَّذينَ يُخاصِمُونَكَ يا محمَّدُ فيما أَتَيْتَهُم به من عندِ ربِّكَ منَ الآياتِ ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾؛ يقولُ: بغَيرِ حُجَّةٍ جاءَتْهُم من عندِ اللهِ بمُخاصَمَتِكَ فيها ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾؛ يقولُ: ما في صُدورِهِم إلَّا كِبرٌ يَتَكَبَّرُونَ من أجْلِهِ عن اتِّباعِكَ، وقَبولِ الحقِّ الَّذي أَتَيْتَهُم به حَسَدًا منهم على الفَضْلِ الَّذي آتاكَ اللهُ، والكرامةِ الَّتي أكرَمَكَ بها منَ النُّبُوَّةِ»[2].

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «يُخبِرُ تعالى أنَّ مَن جادَلَ في آياتِهِ لِيُبطِلَها بالباطلِ بغَيرِ بَيِّنَةٍ مِن أمرِهِ ولا حُجَّةٍ أنَّ هذا صادرٌ مِن كِبرٍ في صُدُورِهِم على الحقِّ، وعلى مَن جاءَ به، يُريدُونَ الاستعلاءَ عليه بما معهم مِنَ الباطلِ؛ فهذا قَصدُهُم ومُرادُهُم؛ ولكنَّ هذا لا يَتِمُّ لهم ولَيسُوا ببالِغِيهِ؛ فهذا نَصٌّ صريحٌ، وبِشارةٌ بأنَّ كُلَّ مَن جادَلَ الحقَّ أنَّه مغلوبٌ، وكلُّ مَن تَكَبَّرَ عليه؛ فهو في نهايتِهِ ذَلِيلٌ»[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٦/ ٥٥٩).
(٢) جامع البيان: (٢٠/ ٣٤٨ _ ٣٤٩).
(٣) تيسير الكريم الرحمٰن: (٤/ ١٥٥٤).

وكذلكَ المنافقونَ كانَ الكِبرُ من أسبابِ إعراضِهم عن دعوةِ النَّبيِّ ﷺ.

قالَ تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى مُخبرًا عنِ المنافِقِينَ - عليهم لعائنُ الله - أنَّهُم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾؛ أي: صَدُّوا وأعرَضُوا عمَّا قِيلَ لهم؛ استِكْبَارًا عن ذلكَ، واحتِقَارًا لِمَا قِيلَ لهم، ولهذا قالَ: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾»[1].

وقد كانَ الكِبرُ سَبَبًا في تكذيبِ اليَهودِ بالرُّسُلِ وقَتْلِهِم لبَعضِهِم.

قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

قالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللهُ: «والاستكبارُ الاتِّصافُ بالكِبرِ وهو هنا التَّرفُّعُ عنِ اتِّباعِ الرُّسُلِ وإعجابُ المُتكبِّرِينَ بأنفُسِهِم، واعتقادُ أنَّهُم أعلَى من أن يُطِيعُوا الرُّسُلَ، ويَكُونُوا أتْبَاعًا لهم»[2].

وقالَ تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

قالَ ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وقولُهُ: ﴿فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ يقول: فآمَنَ عبدُ اللهِ بنُ سَلَامٍ رضي الله عنه وصَدَّقَ بمُحمَّدٍ ﷺ، وبما جاءَ به مِن عندِ اللهِ، واستَكْبَرْتُم أنتُم على الإيمانِ بما آمَنَ به عبدُ اللهِ بنُ سَلَامٍ رضي الله عنه

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٨/١٢٦). (٢) التحرير والتنوير: (١/٥٩٨).

مَعشَرَ اليَهُودِ»[١].

وبما أنَّ الكِبرَ من أعظَمِ الأسبابِ الَّتِي تَصُدُّ عنِ الحَقِّ؛ فإنَّ الَّذي ليسَ فيه صِفَةُ الكِبرِ قريبٌ مِنَ الحَقِّ.

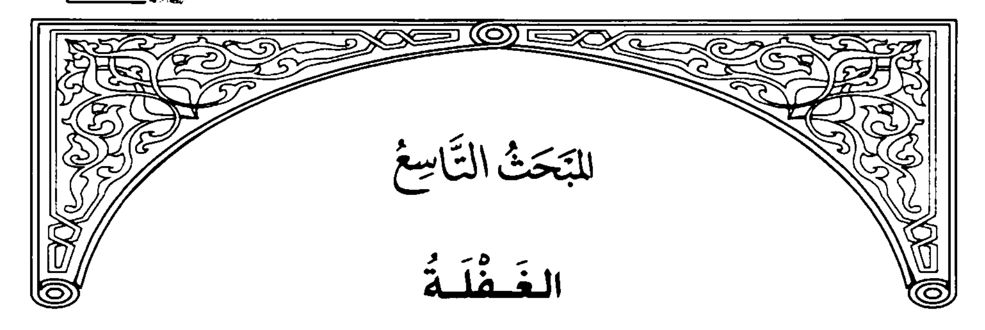
قالَ تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾؛ أيْ: ليسَ فيهِم تَكَبُّرٌ ولا عُتُوٌّ عن الانقيادِ للحقِّ، وذلكَ مُوجِبٌ لقُربِهِم منَ المسلِمِينَ ومِن مَحبَّتِهِم؛ فإنَّ المُتواضِعَ أقرَبُ إلى الخيرِ منَ المُستَكْبِرِ»[٢].

فالكِبرُ من أعظَمِ الأسبابِ الَّتِي تَصُدُّ عن قَبولِ الحقِّ؛ وممَّا يَدخُلُ تحتَ الكِبرِ: العُجبُ والغُرورُ.



(١) جامع البيان: (٢١/ ١٣٢).
(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٤٤١).



المَبْحَثُ التَّاسِعُ

الغَفْلَةُ

من أسبابِ ضلالِ الإنسانِ وإعراضِهِ عن ذِكرِ رَبِّهِ: الغَفْلَةُ.

يقولُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «فإنَّ الضَّلالَ له سَببانِ: إمَّا غفلةٌ عنِ الحقِّ، وإمَّا تقليدُ أهلِ الضَّلالِ»(١).

وقد ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى في كتابِهِ الكريمِ أنَّ الغفلةَ تَصُدُّ عن ذِكرِهِ والاعتبارِ بآياتِهِ.

قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: هؤلاءِ الَّذينَ وَصَفْتُ صِفَتَهُم، القَومُ الَّذينَ غَفَلُوا؛ يعني: سَهَوْا عن آياتِي وحُجَجِي، وتَرَكُوا تَدَبُّرَها والاعتبارَ بها، والاستدلالَ على ما دَلَّتْ عليه من توحيدِ ربِّها، لا البهائمَ الَّتِي قد عَرَّفَها رَبُّها ما سَخَّرَها له»(٢).

---

(١) أحكام أهل الذمة: (٢/ ٩٥٠)، وذكر هذا الكلام عند كلامه على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

(٢) جامع البيان: (١٠/ ٥٩٥).

وقالَ ابنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «ثمَّ بَيَّنَ بقولِهِ تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾؛ الطَّريق الَّذي به صارُوا أَضلَّ منَ الأنعامِ؛ وهو الغفلةُ والتَّقصيرُ»[1].

وقالَ تعالى مُبينًا أنَّ الغفلةَ عنِ اليَومِ الآخِرِ وما فيه منَ الأهوالِ مِن أسبابِ الإعراضِ عن ذِكرِهِ: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: دَنَا حسابُ النَّاسِ على أعمالِهِمُ الَّتي عَمِلُوها في دُنياهُم ونِعَمِهِمُ الَّتي أنعَمَهَا عليهم فيها في أبدانِهِم وأجسامِهِم ومطاعِمِهِم ومَشارِبِهِم وملابِسِهِم، وغيرِ ذلكَ من نِعَمِهِ عندَهُم، ومسألتُهُ إيَّاهُم ماذا عَمِلُوا فيها، وهل أطاعُوهُ فيها؛ فانْتَهَوْا إلى أمرِهِ ونَهيِهِ في جميعِها، أم عَصَوْهُ فخالَفُوا أَمْرَهُ فيها؟ ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾؛ يقولُ: وهُم في الدُّنيا عمَّا اللهُ فاعلٌ بهم من ذلكَ يومَ القيامةِ، وعَن دُنُوِّ محاسَبتِهِ إيَّاهُم، واقترابِهِ لهم في سَهْوٍ وغَفلَةٍ، وقد أعرَضُوا عن ذلكَ؛ فترَكُوا الفِكرَ فيه، والاستعدادَ له، والتَّأَهُّبَ جَهْلًا منهم بما هم لَاقُوهُ عندَ ذلكَ من عظيمِ البَلاءِ، وشديدِ الأهوالِ»[2].

وقالَ تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «والحالُ أنَّهُم في الدُّنيا في غَفلَةٍ عن هذا الأمرِ العظيمِ[3] لا يَخطِرُ بقُلُوبِهِم، ولو خَطَرَ فعَلَى سَبِيلِ الغَفلةِ، قد عَمَّتْهُمُ الغفلةُ، وشَمِلَتْهُمُ السَّكرةُ؛ فهم لا يؤمِنُونَ باللهِ، ولا يَتَّبِعُونَ رُسُلَهُ؛

(١) المحرر الوجيز: (٤/ ٩٥).
(٢) جامع البيان: (١٦/ ٢٢١).
(٣) يقصد: يومَ القيامة وما فيه من الأهوال.

قد أَلْهَتْهُم دُنياهُم، وحالَتْ بَينَهُم وبينَ الإيمانِ شَهَواتُهُمُ المُنقَضِيَةُ الفانِيَةُ»[(١)].

وقد نَهَى اللهُ ﷻ عن اتِّباعِ أهلِ الغفلةِ لأنَّ مَن يَتَّبِعهُم يَتأثَّر بِهِمْ.

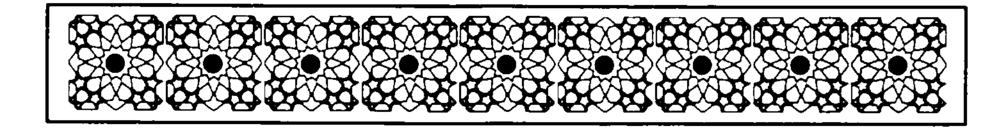
قالَ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾؛ أي: شُغِلَ عنِ الدِّينِ وعبادةِ ربِّهِ بالدُّنيا ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: أعمالُهُ وأفعالُهُ سَفَهٌ وتفريطٌ وضياعٌ، ولا تَكُنْ مُطِيعًا له ولا مُحِبًّا لطَرِيقَتِهِ، ولا تَغْبِطْهُ بما هو فيه»[(٢)].



(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ٩٩٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٥/ ١٥٤).

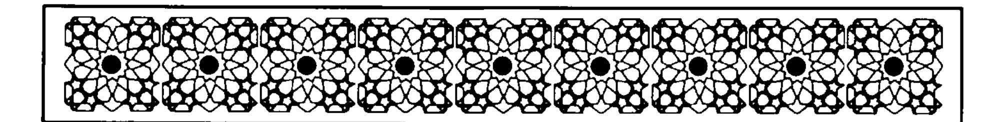


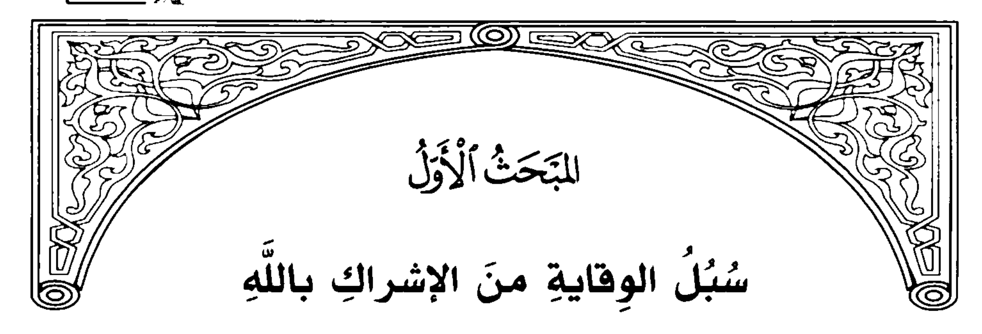
ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي

سُبُلُ الوقايةِ منَ الأسبابِ الدَّاخليَّةِ

ويَحتَوِي على تِسعَةِ مباحِثَ:

- المبحثُ الأوَّلُ: سُبُلُ الوِقايةِ منَ الإشراكِ باللهِ.
- المبحثُ الثَّاني: سُبُلُ الوِقايةِ من عَدَمِ قَدْرِ اللهِ حقَّ قَدْرِهِ.
- المبحثُ الثَّالثُ: سُبُلُ الوِقايةِ منَ التَّقليدِ المَذمُومِ.
- المبحثُ الرَّابعُ: سُبُلُ الوِقايةِ منِ اتِّباعِ الهَوَى.
- المبحثُ الخامسُ: سُبُلُ الوِقايةِ منَ الشُّبُهاتِ.
- المبحثُ السَّادسُ: سُبُلُ الوِقايةِ منَ الشَّهَوَاتِ.
- المبحثُ السَّابعُ: سُبُلُ الوِقايةِ منَ النَّفسِ الأَمَّارَةِ بالسُّوءِ.
- المبحثُ الثَّامنُ: سُبُلُ الوِقايةِ منَ التَّكَبُّرِ والغُرورِ والعُجْبِ.
- المبحثُ التَّاسعُ: سُبُلُ الوِقايةِ منَ الغفلَةِ.





المَبْحَثُ الأَوَّلُ

سُبُلُ الوِقايةِ منَ الإشراكِ باللَّهِ

أوَّلًا: تَذَكُّرُ أنَّ ما يُعْبَدُ مِن دُونِ اللهِ لا يَنفَعُ ولا يَضُرُّ:

فإنَّ الإنسانَ إذا أيقَنَ أنَّ كُلَّ ما يُعبَدُ من دُونِ اللهِ لا يَملِكُ نَفْعًا ولا ضَرًّا؛ فإنَّ العاقِلَ لن يُوقِعَ نَفسَهُ في ذلكَ.

وقد ذَكَرَ اللهُ ﷻ في كتابِهِ المبارَكِ كَثِيرًا منَ الآياتِ الَّتِي بَيَّنَ فيها أنَّ ما يُعبَدُ من دُونِهِ لا يَنفَعُ ولا يَضُرُّ.

منها قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى ـ مُنكِرًا على مَن عَبَدَ غَيرَهُ مِنَ الأصنامِ والأندادِ والأوثانِ، ومُبينًا له أنَّها لا تَستَحِقُّ شَيْئًا منَ الإلٰهيَّةِ ـ: ﴿قُلْ﴾؛ أي: يا مُحمَّدُ لهؤلاءِ العابدِينَ غيرَ اللهِ من سائرِ فِرَقِ بني آدَمَ، ودَخَلَ في ذلكَ النَّصارَى وغيرُهُم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ أيْ: لا يَقدِرُ على إيصالِ ضَرَرٍ إليكم، ولا إيجادِ نَفْعٍ، ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾؛ أيْ: فلِمَ عَدَلْتُمْ عن إفرادِ السَّميعِ لأقوالِ عبادِهِ، العليمِ بكُلِّ شيءٍ إلى عِبادَةِ جَمَادٍ لا يَسمَعُ ولا يُبصِرُ ولا يَعلَمُ شَيْئًا، ولا يَملِكُ ضَرًّا ولا نَفْعًا لِغَيرِهِ ولا لنَفسِهِ»[1].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٣/ ١٥٩).

وقالَ تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

قالَ ابنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذه الآيَةُ مُظهِرَةٌ فسادَ حالِ الأصنامِ، لكنَّ كُلَّ مُمَيِّزٍ أدنى مَيْزٍ يَعرِفُ يَقِينًا أنَّها لا تكشِفُ ضَرًّا ولا تَجْلِبُ نَفْعًا»[(١)].

وقد أنكَرَ إبراهيمُ على قَومِهِ عبادَتَهُم لهذه الأصنامِ الَّتِي لا تَضُرُّ ولا تَنفَعُ، والَّتي تَدُلُّ على سَفَهِ عُقولِهِم.

قالَ تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٦].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَقولُ تعالى ذِكرُهُ: قالَ إبراهيمُ لقَومِهِ: أَفَتَعْبُدُونَ أيُّها القَومُ ما لا يَنفَعُكُم شَيْئًا ولا يَضُرُّكُم؟ وأنتُم قد عَلِمْتُمْ أنَّها لم تَمْنَعْ نَفْسَها ممَّن أرادَها بسُوءٍ، ولا هي تَقدِرُ أن تَنْطِقَ إنْ سُئِلَتْ عمَّنْ يَأتِيهَا بسُوءٍ فتُخبِرُ به، أفلا تَسْتَحْيُونَ من عبادةِ ما كانَ هكذا؟!»[(٢)].

ثانيًا: النَّظَرُ في عاقبةِ المُشرِكِينَ في الدُّنيا:

قالَ تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ لنَبِيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: قُل يا محمَّدُ لهؤلاءِ المُشركِينَ باللهِ مِن قَومِكَ: سِيرُوا في البلادِ؛ فانْظُرُوا إلى مساكِنِ الَّذِينَ كَفَرُوا باللهِ من قَبلِكُم، وكذَّبُوا رُسُلَهُ كيفَ كانَ آخِرُ أمرِهِم، وعاقبةُ تَكذِيبِهِم رُسُلَ اللهِ وكُفرِهِم، ألم نُهْلِكْهُم بعذابٍ منَّا، ونَجْعَلْهُمْ عِبرَةً لمَنْ بَعدَهُم؟ ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾؛ يقولُ: فَعَلْنا ذلكَ بِهِم؛

---

(١) المحرر الوجيز: (٤/ ٥٣٤).

(٢) جامع البيان: (١٦/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤).

لأنَّ أكثرَهُم كانُوا مُشرِكِينَ باللهِ مِثلَهُم»[١].

ثالثًا: النَّظَرُ في ما أَولَاهُ اللهُ منَ النِّعَمِ:

قالَ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «ولكنْ إذا أرادَ التَّخلُّصَ من هذا الشِّركِ[٢]؛ فلْيَنْظُرْ إلى المُعطِي الأوَّلِ مَثَلًا؛ فَيَشْكُرُهُ على ما أولَاهُ منَ النِّعَمِ، ويَنْظُرْ إلى مَن أسدَى إليه المعروفَ؛ فيُكافِئهُ عليه؛ لقولِهِ ﷺ: (مَنْ أَسْدَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا، فَكَافِئُوهُ؛ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ)[٣]؛ لأنَّ النِّعَمَ كُلَّها للهِ تعالى؛ كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقالَ تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠]؛ فاللهُ سبحانه هو المُعطِي على الحقيقةِ؛ فإنَّهُ هو الَّذي خَلَقَ الأرزاقَ وقَدَّرَهَا، وساقَها إلى مَن يشاءُ من عِبادِهِ؛ فالمُعطِي هو الَّذي أعطاهُ، وحَرَّكَ قَلبَهُ لعَطاءِ غيرِهِ؛ فهو الأوَّلُ والآخِرُ»[٤].

رابعًا: الحَذَرُ مِنَ البِيئَةِ المُشرِكَةِ:

لا يَخفَى ما للبيئةِ من تأثيرٍ كبيرٍ على الَّذي يعيشُ فيها؛ ولذلكَ نَهَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عن مُخالطةِ المُشرِكِينَ.

---

(١) المصدر السابق: (١٨/ ٥١٤).
(٢) يقصد: الشرك في الربوبية.
(٣) سنن أبي داود: (٢/ ٢١٢)، كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله، حديث رقم: (١٦٧٢)، سنن النسائي: (٣/ ٦٥)، كتاب الزكاة، باب من سأل بالله، حديث رقم: (٢٣٥٩). مسند أحمد: (٩/ ٢٦٦)، قال الألباني: صحيح. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة: (١/ ٥١٠).
(٤) مجموع الفتاوى: (١/ ٩٢).

قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وفي هذه الآيةِ الدَّلالةُ الواضحةُ على النَّهيِ عن مُجالَسةِ أهلِ الباطِلِ من كُلِّ نَوعٍ منَ المُبتَدِعَةِ والفَسَقَةِ عندَ خَوضِهِم في باطِلِهِم»[(١)]؛ لأنَّ ذلكَ يُؤَثِّرُ على مَن يُخالِطُهُم ويُجالِسُهُم، وقد تَبَيَّنَ هذا فيما مَضَى[(٢)].

خامسًا: تَذَكُّرُ مَصيرِ المُشرِكِ باللهِ يومَ القيامةِ:

ذَكَرَ اللهُ سبحانه في كتابِهِ المُبينِ أنَّهُ حَرَّمَ على المُشرِكِ به الجنَّةَ وجَعَلَ مَأْواهُ النَّارَ والعياذُ باللهِ!

قالَ تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أحدًا منَ المخلوقِينَ، لا عِيسَى ولا غَيرَهُ ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾؛ وذلكَ لأنَّهُ سَوَّى الخلقَ بالخالقِ، وصَرَفَ ما خَلَقَهُ اللهُ له ـ وهو العبادةُ الخالصةُ ـ لغَيرِ مَن هي له؛ فاستَحَقَّ أن يُخَلَّدَ في النَّارِ، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾؛ يُنقِذُونَهُم من عذابِ اللهِ، أو يَدفَعُونَ عنهم بعضَ ما نَزَلَ بهم»[(٣)].

---

(١) جامع البيان: (٧/٦٠٣).
(٢) انظر: (ص٢١١ ـ ٢١٢).
(٣) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/٤٣٧).

سادسًا: التَّوبةُ إلى اللهِ والاستغفارُ:

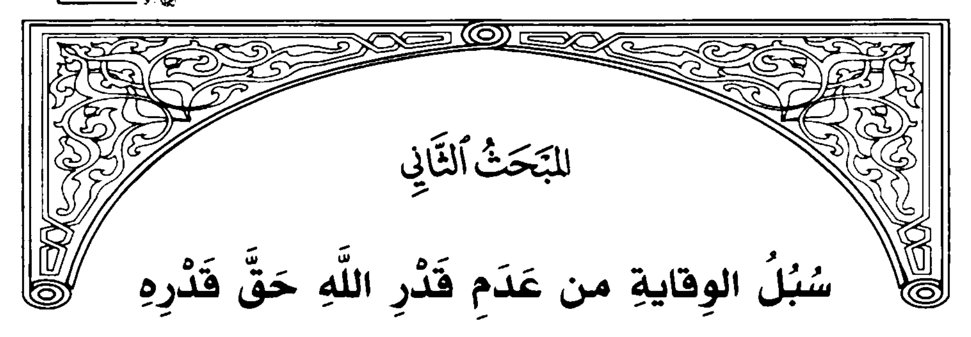
فاللهُ ﷻ حضَّ المشركِينَ على التَّوبةِ والاستغفارِ في سِياقِ الآياتِ الَّتِي بَيَّنَتْ خَطَرَ الشِّركِ باللهِ لأنَّ التَّوبةَ والاستغفارَ يَنفَعَانِهم قبلَ المَماتِ.

قالَ تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤].

قالَ ابنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «ثم رَفَقَ جلَّ وعلا بهم بتَخْصِيصِهِ إيَّاهُم على التَّوبةِ وطَلَبِ المغفرةِ، ثمَّ وَصَفَ نفسَهُ بالغُفرانِ والرَّحمةِ؛ استِجْلَابًا للتَّائِبِينَ، وتَأْنِيسًا لهم؛ لِيَكُونُوا على ثقةٍ من الانتفاعِ بتَوبَتِهِم»[1].



(١) المحرر الوجيز: (٣/ ٢٢٥).



المَبحَثُ الثَّانِي

سُبُلُ الوِقايةِ من عَدَمِ قَدْرِ اللَّهِ حَقَّ قَدْرِهِ

أوَّلًا: التَّأمُّلُ في معانِي أسماءِ اللهِ وصفاتِهِ:

إنَّ معرفةَ أسماءِ اللهِ وصفاتِهِ والتَّأمُّلَ في معانِيها له أثرٌ كبيرٌ في تعظيمِ اللهِ ﷻ ومعرفتِهِ سبحانه حقَّ المعرفةِ، ومِن تلكَ الأسماءِ ما خُتِمَ به قولُهُ تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤﴾؛ يقولُ: إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ على خَلْقِ ما يشاءُ من صغيرِ ما يشاءُ خَلْقَهُ وكبيرِهِ، ﴿عَزِيزٌ﴾: يقولُ: مَنِيعٌ في مُلكِهِ لا يَقدِرُ شيءٌ دونَهُ أن يَسلُبَهُ مِن مُلكِه شَيئًا، وليسَ كآلهتِكُم أيُّها المشركُونَ الَّذينَ تَدعُونَ من دونِهِ الَّذين لا يَقدِرُونَ على خَلقِ ذُبابٍ، ولا على الامتناعِ مِنَ الذُّبابِ إذا اسْتَلَبَهَا شَيْئًا؛ ضَعْفًا ومَهانَةً»[1].

وقالَ ابنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثمَّ أخبرَ بقُوَّةِ اللهِ وعِزَّتِهِ، وهما صفتانِ مناقضتانِ لعَجزِ الأصنامِ»[2].

وقالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولمَّا كانَ أهلُ العلمِ والإيمانِ قد قامُوا من ذلكَ بحَسَبِ قُدرَتِهِم وطاقَتِهِمُ الَّتِي أعانَهُم بها، ووَفَّقَهُم بها لمعرفتِهِ

---

(١) جامع البيان: (١٦/ ٦٣٧ ـ ٦٣٨).

(٢) المحرر الوجيز: (٦/ ٢٧٤).

وعبادتِهِ وتعظيمِهِ، لم يَتَنَاوَلْهُم هذا الوصفُ؛ فإنَّ التَّعظيمَ له سبحانه والمعرفةَ والعبادةَ ووَصْفَهُ بما وَصَفَ به نفسَهُ قد أَمَرَ به عبادَهُ، وأعانَهُم عليه، ورَضِيَ منهم بمَقْدُورِهِم من ذلكَ، وإن كانُوا لا يقدرونَهُ قَدْرَهُ ولا يَقْدِرُ أحدٌ منَ العبادِ قَدْرَهُ؛ فإنَّهُ إذا كانتِ السَّماواتُ السَّبعُ في يدِهِ كالخَردَلَةِ في يدِ أحدِنا، والأَرَضُونَ السَّبعُ في يدِهِ الأُخرى كذلكَ[1]؛ فكيفَ يَقْدُرُهُ حقَّ قَدْرِهِ مَن أنكَرَ أن يكونَ له يدانِ فَضْلًا عن أن يَقبِضَ بهما شَيْئًا؛ فلا يَدَ عندَ المُعطِّلَةِ، ولا قَبْضَ في الحقيقةِ وإنَّما ذلكَ مجازٌ لا حقيقةَ له، وللجهميَّةِ والمعطِّلَةِ نُفاةِ الصِّفاتِ من هذا الذَّمِّ أوفَرُ نصيبٍ وللمُتفلسِفَةِ وأفراخِهِم وأتباعِهِم ذَنُوبٌ مِثْلُ ذَنُوبِ أصحابِهِم وأكثَرُ»[2].

بَيَّنَ رَحِمَهُ اللهُ بهذا أنَّ إثباتَ صفاتِ اللهِ ومعرفتَها سببٌ في تعظيمِ اللهِ ومعرفةِ قَدرِهِ، كما أنَّ إنكارَ صفاتِهِ سببٌ في عَدَمِ قَدْرِ اللهِ حَقَّ قَدرِهِ.

ومِنَ الآثارِ الَّتِي وَرَدَتْ عنِ الصَّحابةِ ممَّا يُبيِّنُ أنَّ معرفةَ صفاتِ اللهِ سببٌ في معرفةِ قَدْرِ اللهِ ـ: ما رُوِيَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّهُ قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾؛ قالَ: «هُمُ الكُفَّارُ؛ لم يُؤمِنُوا بقُدرَةِ الله عليهم؛ فمَن آمَنَ أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ؛ فقد قَدَرَ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ، ومَن لَّمْ يُؤمِنْ بذلكَ، فلم يَقْدُرِ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ»[3].

---

(١) يشير للأثر المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «مَا السَّماواتُ السَّبعُ والأرضُونَ السَّبعُ في يدِ اللهِ إلَّا كخَردَلَةٍ في يدِ أحَدِكُم»، أخرجه ابن جرير في تفسيره: (٢٠/ ٢٤٦)، والذهبي في العلو: (ص١١٧)، قال الشيخ سليمان آل الشيخ: «وهذا الإسناد في نقدي صحيح». انظر: إبطال التنديد: (ص٣٠٧).

(٢) الصواعق المرسلة: (٤/ ١٣٦٤).

(٣) جامع البيان: (٩/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧).

ثانيًا: تَذَكُّرُ أحوالِ اليومِ الآخِرِ:

إنَّ تَذَكُّرَ أحوالِ اليومِ الآخِرِ وما فيهِ منَ الأهوالِ ممَّا يُورِثُ تعظيمَ اللهِ؛ ولذلكَ فإنَّ الله سبحانه لمَّا ذَكَرَ في آيةِ الزُّمَرِ أنَّ المُشرِكِينَ لم يَقْدُرُوهُ حقَّ قَدرِهِ، ذَكَرَ في نفسِ الآيةِ وما بعدَها منَ الآياتِ من أحوالِ يومِ القيامةِ ما يَجعَلُ الإنسانَ يخافُ اللهَ ويُعَظِّمُهُ.

قالَ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

قالَ القُرطُبيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وإنَّما خَصَّ يومَ القيامةِ بالذِّكرِ وإنْ كانَتْ قُدرَتُهُ شاملةً لكلِّ شيءٍ أيضًا؛ لأنَّ الدَّعاوَى تَنقَطِعُ في ذلكَ اليومِ»[1].

وكذلكَ الآياتُ الَّتِي بعدَ هذه الآيةِ؛ فإنَّها تَتحَدَّثُ عن يومِ القيامةِ.

قالَ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ

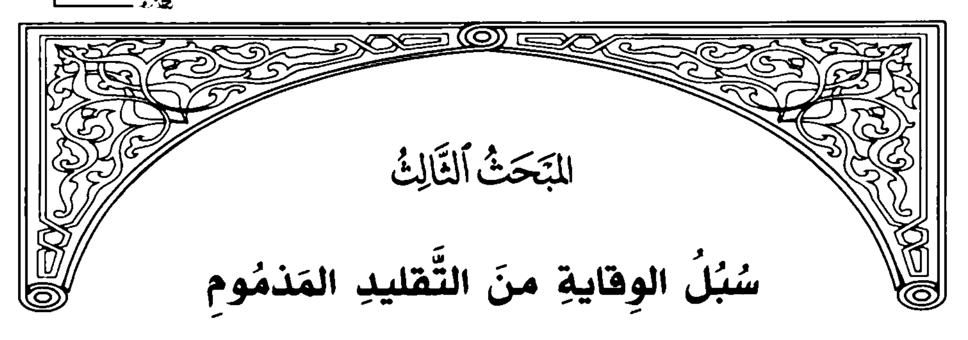
(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٨/ ٣٠٩ ـ ٣١٠).

ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٦٨ ـ ٧٥].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لمَّا خوَّفَهُم تعالى من عَظَمتِهِ، خَوَّفَهُم بأحوالِ يومِ القيامةِ، ورَغَّبَهُم ورَهَّبَهُم»[1].



(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٤/ ١٥٣٠).



المَبْحَثُ الثَّالِثُ

سُبُلُ الوِقايةِ منَ التَّقليدِ المَذمُومِ

أوَّلًا: اتِّباعُ الصِّراطِ المستقيمِ:

أَمَرَ اللهُ تعالى باتِّباعِ صراطِهِ المستقيمِ، ونَهَى عن اتِّباعِ غيرِهِ منَ السُّبُلِ؛ فإن في اتِّباعِ صراطِهِ نجاةً منَ السُّبُلِ الضَّالَّةِ.

قالَ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «ولمَّا بَيَّنَ كثيرًا منَ الأوامرِ الكبارِ، والشَّرائعِ المُهمَّةِ[١] أشارَ إليها وإلى ما هو أعمُّ منها؛ فقالَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾؛ أي: هذه الأحكامُ وما أشبَهَها ممَّا بَيَّنَهُ اللهُ في كتابِهِ، ووَضَّحَهُ لعبادِهِ صراطُ اللهِ المُوصِلُ إليه، وإلى دارِ كرامتِهِ المعتدِلُ السَّهلُ المختَصَرُ، ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾؛ لِتَنالُوا الفَوزَ والفَلاحَ، وتُدرِكُوا الآمالَ والأفراحَ»[٢].

(١) يعني: في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١، ١٥٢].

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/ ٥٢٤).

ثانيًا: عَدَمُ اتِّباعِ أولياءَ مِن دُونِ اللهِ:

إنَّ اتِّخاذَ الأولياءِ من دُونِ اللهِ تعالى سببٌ في ضلالِ الكثيرِ مِنَ النَّاسِ؛ فلِذَلِكَ نَهَى عن اتِّباعِهِم.

قالَ تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ: لا تَتَّبِعُوا أَمْرَ أوليائِكُمُ الَّذينَ يَأمُرُونَكُم بالشِّركِ باللهِ وعبادةِ الأوثانِ؛ فإنَّهم يُضِلُّونَكُم ولا يَهدُونَكُم»[(١)].

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾؛ أي: تَتَوَلَّوْنَهُم، وتَتَّبِعُونَ أهواءَهُم، وتَترُكُونَ لأَجْلِها الحقَّ»[(٢)].

ثالثًا: النَّظَرُ في صفاتِ المَتْبُوعِ:

قالَ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

يقولُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «والمقصودُ أنَّ اللهَ تبارك وتعالى نَهَى عن طاعةِ مَن جَمَعَ هذه الصِّفاتِ؛ فيَنبَغِي للرَّجُلِ أن يَنظُرَ في شَيخِهِ وقُدوَتِهِ ومَتبُوعِهِ؛ فإنْ وَجَدَهُ كذلكَ؛ فَلْيُبْعِدْ عنه، وإنْ وَجَدَهُ مِمَّن غَلَبَ عليه ذِكرُ اللهِ تعالى وعزَّ وجلَّ واتِّباعُ السُّنَّةِ، وأَمْرُهُ غيرُ مَفروطٍ عليه؛ بل هو حازمٌ في أَمْرِهِ؛ فلْيَسْتَمْسِكْ بغَرْزِهِ»[(٣)(٤)].

---

(١) جامع البيان: (١٠/٥٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/٥٣٤).

(٣) غرزه: غرز الإبرة في الشيء غرزًا، وغرَّزها: أدخلها؛ ومنه حديث أبي بكر رضي الله عنه: أنه قال لعمر رضي الله عنه: «اسْتَمْسِكْ بغَرزِهِ»؛ أي: اعْتَلِقْ به وأَمسِكْهُ واتَّبِعْ قولَهُ وفِعلَهُ ولا تخالِفْهُ. انظر: القاموس المحيط: (ص٥١٩).

(٤) الوابل الصيب: (ص٩٥).

رابعًا: تَذَكُّرُ أنَّ المتبوعِينَ لا يُغنونَ عن أتباعِهِم شيئًا يومَ القيامةِ:

قالَ تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يُخبِرُ تعالى عن تَحَاجِّ أهلِ النَّارِ في النَّارِ، وتخاصُمِهِم، وفرعونُ وقَومُهُ من جُملتِهِم: ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾؛ وهمُ الأتباعُ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ وهمُ القادةُ والسَّادةُ والكُبَراءُ ـ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾؛ أيْ: أطَعْنَاكُم فيما دَعَوْتُمونا إليهِ في الدُّنيا منَ الكُفرِ والضَّلالِ، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾؛ أي: قِسطًا تَتحَمَّلُونَهُ عنَّا، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾؛ أيْ: لا نَتحَمَّلُ عنكم شيئًا كَفَى بنا ما عندَنا، وما حَمَلْنا منَ العذابِ والنَّكالِ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾؛ أي: يَقْسِمُ بَينَنَا العذابَ بقَدْرِ ما يَستَحِقُّهُ كلٌّ مِنَّا»(١).

بل إنَّ المتبوعِينَ يَتَبَرَّؤُونَ من أتباعِهِم يومَ القيامةِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ اللهَ جلَّ ثناؤُهُ أخبَرَ أنَّ المتَّبَعِينَ على الشِّركِ باللهِ يَتَبَرَّءُونَ من أتباعِهِم حينَ يُعايِنُونَ عذابَ اللهِ، ولم يُخَصِّصْ بذلكَ منهم بَعضًا دونَ بعضٍ، بل عَمَّ جميعَهُم؛ فداخِلٌ في ذلكَ كلُّ مَتبوعٍ على الكُفرِ باللهِ والضَّلالِ؛ أنَّه يَتَبَرَّأُ من تُبَّاعِهِ الَّذِينَ كانُوا يتَّبِعُونَهُ على الضَّلالِ في الدُّنيا إذا عايَنُوا عذابَ اللهِ في الآخِرَةِ»(٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٧/١٤٩).　(٢) جامع البيان: (٣/٢٤ ـ ٢٥).

خامسًا: تَذَكُّرُ مصيرِ الأتباعِ في الضَّلالِ يومَ القيامةِ:

وَرَدَ الوَعيدُ الشَّديدُ للَّذينَ اقْتَفَوْا آثارَ مَتبوعِيهم في الضَّلالِ.

قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦، ٦٧].

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقولُ تعالى ذِكرُهُ: لا يَجِدُ هؤلاءِ الكافرونَ وَلِيًّا ولا نَصِيرًا في يَومِ تُقَلَّبُ وُجوهُهُم في النَّارِ حالًا بعدَ حالٍ يقولون ـ وتلكَ حالُهُم في النَّارِ ـ: يا لَيْتَنا كُنَّا أَطَعْنَا اللهَ في الدُّنيا، وأَطَعْنَا رَسولَهُ فيما جاءَنا به عنه من أَمْرِهِ ونَهْيِهِ؛ فكُنَّا مع أهلِ الجنَّةِ في الجنَّةِ، يا لها حَسْرَةً وندامةً، ما أعظَمَها وأَجَلَّها»[1].

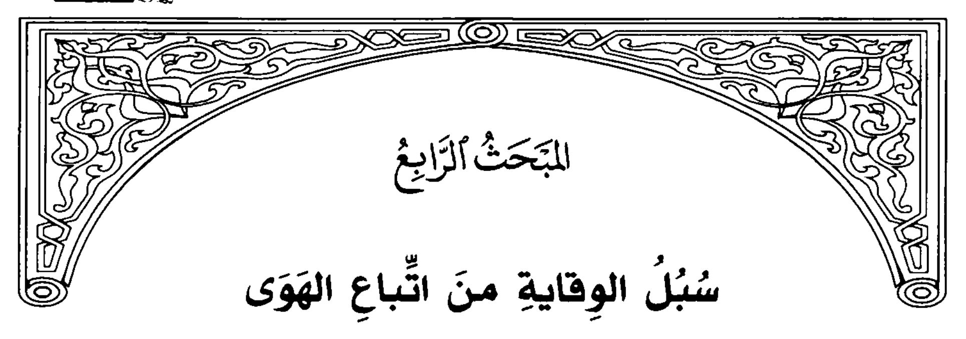
وقالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَمَنَّى القَومُ طاعةَ اللهِ ورسولِهِ حينَ لا يَنفَعُهُم ذلكَ، واعتَذَرُوا بأَنَّهُم أطاعُوا كُبَرَاءَهُم ورُؤَساءَهُم، واعتَرَفُوا بأَنَّهُم لا عُذرَ لهم في ذلكَ، وأَنَّهم أطاعُوا السَّاداتِ والكُبَراءَ وعَصَوُا الرَّسولَ، وآلَتْ تلكَ الطَّاعةُ والمُوالاةُ إلى قَولِهِم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٨]، وفي بعضِ هذا عِبرةٌ للعاقلِ ومَوعِظَةٌ شافيةٌ، وباللهِ التَّوفيقُ»[2].

وقالَ عَزَّ وَجَلَّ ـ في حقِّ الَّذينَ يَتَّبِعُونَ آباءَهُم في الضَّلالِ ـ: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٨ ـ ٧٠].

قال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: إنَّما جازَيْنَاهُم بذلكَ؛ لأَنَّهم وَجَدُوا آباءَهُم على الضَّلالةِ؛ فاتَّبَعُوهُم فيها بمُجَرَّدِ ذلكَ من غيرِ دليلٍ ولا بُرهانٍ»[3].



(١) جامع البيان: (١٩/ ١٨٨).
(٢) الرسالة التبوكية: (ص١٤٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم: (٧/ ٢١).



سُبُلُ الوِقايةِ منَ اتِّباعِ الهَوَى

أَوَّلًا: الخَوفُ منَ اللهِ ﷻ:

ذَكَرَ اللهُ ﷻ في كتابِهِ الكريمِ أنَّ خَشْيَتَهُ تَمنَعُ منَ اتِّباعِ الهَوَى.

قالَ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

قالَ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «والخَشيةُ تَمنَعُ اتِّباعَ الهَوَى»(١).

وقالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «وهو مقامُ الرَّبِّ على عبدِهِ بالاطِّلاعِ والقُدرةِ والرُّبوبِيَّةِ؛ فخَوفُهُ من هذا المقامِ يُوجِبُ له خُشوعَ القلبِ لا محالةَ، وكُلَّما كانَ أشَدَّ استِحْضارًا له، كانَ أشدَّ خُشوعًا، وإنَّما يُفارِقُ القلبَ إذا غَفَلَ عنِ اطِّلاعِ اللهِ عليهِ ونَظَرِهِ إليهِ»(٢).

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أيْ: خافَ القيامَ عليهِ ومُجازاته بالعَدلِ؛ فأَثَّرَ هذا الخوفُ في قَلبِهِ؛ فنَهَى نفسَهُ عن هواها الَّذي يُقَيِّدُها عن طاعةِ اللهِ، وصارَ هواهُ تَبَعًا لِمَا جاءَ به الرَّسولُ ﷺ، وجاهَدَ الهَوَى والشَّهوةَ الصَّادَّيْنِ عنِ الخيرِ»(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٥٤٥).
(٢) مدارج السالكين: (١/ ٥٢٢).
(٣) تيسير الكريم الرحمٰن: (٤/ ١٩٣٥).

ثانيًا: تَذَكُّرُ أنَّ الجنَّةَ مَأْوَى مَن نَهَى نفسَهُ عن هَواهَا:

قالَ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «أيْ: خافَ القيامَ بينَ يَدَيِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وخافَ حُكْمَ اللهِ فيه، ونَهَى نفسَهُ عن هواها، وردَّها إلى طاعةِ مَولَاها ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾؛ أي: مُنْقَلَبُهُ ومَصِيرُهُ ومَرجِعُهُ إلى الجنَّةِ الفَيْحاءِ»[1].

ثالثًا: الحَذَرُ منَ الهَوَى ومجاهدةُ النَّفسِ:

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «يَنبَغِي للحاكمِ أن يَحذَرَ الهَوَى، ويَجعَلَهُ منه على بالٍ؛ فإنَّ النُّفوسَ لا تَخلُو منه، بل يُجاهِدُ نفسَهُ بأن يكونَ الحقُّ مَقصودَهُ، وأن يُلقِيَ عنه وقتَ الحُكمِ كلَّ محبَّةٍ أو بُغضٍ لأحدِ الخَصمَينِ»[2].

والآيةُ أيضًا تَدُلُّ على: أنه يَنبَغِي للإنسانِ أن يَحذَرَ مِن اتِّباعِ الهَوَى في جميعِ الأحوالِ، وأن يَقصِدَ الحقَّ ويُجاهِدَ نفسَهُ على ذلكَ.

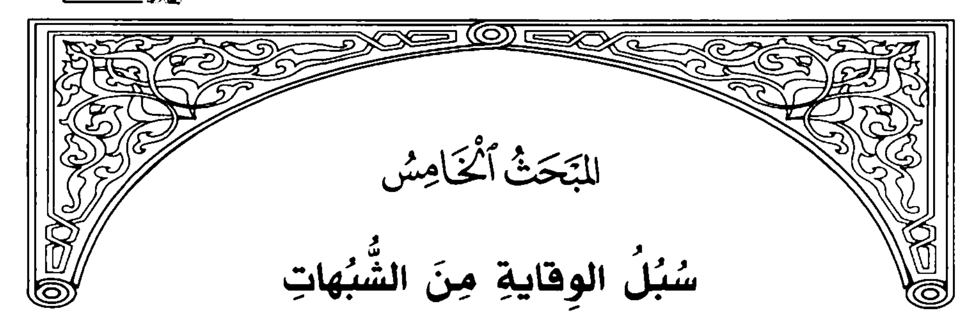
«وقد كانَ أهلُ الحَزمِ يُعَوِّدُونَ أنفُسَهُم مُخالفةَ هواها وإن كانَ مُباحًا؛ لِيَقَعَ التَّمرينُ للنَّفسِ على تَركِ الهَوَى مُطلقًا، ولِيَطلُبَ الأرباحَ في المعاملةِ بتَركِ المُباحِ»[3].

---

(١) **الفيحاء**: فاحَ المِسكُ فَوْحًا وفُؤُوحًا وفَوَحانًا وفَيْحًا وفَيَحانًا: انتشَرَتْ رائحتُهُ، ولا يقالُ في الكريهة، والفيحاءُ: الواسعةُ منَ الدُّورِ. انظر: القاموس المحيط: (ص٢٢٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (١٤٩٧/٤). ذكر رَحِمَهُ اللهُ هذه الفائدة ضمن فوائد ذكرها تحت قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ۝٢٦﴾ [ص: ٢٦]، وهذا يدل على دقة استنباطه من الآيات.

(٣) ذم الهوى: (ص٧٧).



المَبحثُ الخَامِسُ

سُبُلُ الوِقايةِ مِنَ الشُّبُهاتِ

أوَّلًا: رَدُّ المُتشابِهِ إلى المُحكَمِ:

إنَّ اللهَ ﷻ ذَكَرَ أنَّ في الكتابِ آياتٍ مُحْكَماتٍ وهُنَّ أكثَرُ ما في الكتابِ؛ فمَن رَدَّ المُتشابِهَ إلى المُحكَمِ، فقدِ اهْتَدَى.

قالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يُخبِرُ تعالى أنَّ في القُرآنِ آياتٍ مُحكماتٍ، هُنَّ أُمُّ الكتابِ؛ أيْ: بَيِّناتٍ واضحاتِ الدَّلالةِ لا الْتِبَاسَ فيها على أحدٍ منَ النَّاسِ، ومنه آياتٌ أُخَرُ فيها اشتباهٌ في الدَّلالةِ على كثيرٍ منَ النَّاسِ أو بعضِهِم؛ فمَن رَدَّ ما اشْتَبَهَ عليه إلى الواضحِ منه، وحَكَّمَ مُحكَمَهُ على مُتشابِهِهِ عندَهُ؛ فقدِ اهتَدَى، ومَن عَكَسَ انْعَكَسَ؛ ولهذا قالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾؛ أي: أصلُهُ الَّذي يُرجَعُ إليهِ عندَ الاشتباهِ»[1].

وقالَ ابنُ عُثَيمِين رَحِمَهُ اللهُ: «يَجِبُ الرُّجوعُ إلى المُحكَمِ إزاءَ المُتشابِهِ؛

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٢/٦ ـ ٧).

لِقَولِهِ: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ يَعنِي: مَرجِعُهُ، وهذا لا يَختَصُّ بالقُرآنِ بل حتَّى في السُّنَّةِ إذا وَجدتَّ أحاديثَ مُتشابِهَةً وأحاديثَ واضحةً؛ فالواجبُ ردُّ المُتشابِهِ إلى المُحكَمِ؛ لِيَكُونَ الجميعُ مُحْكَمًا»[1].

ثانيًا: الرُّسوخُ في العِلمِ:

مَدَحَ اللهُ ﷻ الرَّاسِخِينَ في العِلمِ، وبَيَّنَ أنَّهم لا يَضِلُّونَ بالمُتشابِهِ بتَوفِيقِ اللهِ إيَّاهُم ثُمَّ بفَضلِ رُسُوخِهِم في العِلمِ.

قالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وأمَّا أهلُ العِلمِ الرَّاسِخُونَ فيه الَّذينَ وَصَلَ العِلمُ واليَقِينُ إلى أفئِدَتِهِم؛ فأثمَرَ لهمُ العَمَلَ والمعارِفَ؛ فيعلَمُونَ أنَّ القُرآنَ كُلَّهُ من عندِ اللهِ، وأنَّهُ كُلَّهُ حَقٌّ مُحكَمُهُ ومُتشابِهُهُ، وأنَّ الحقَّ لا يَتَنَاقَضُ ولا يختلفُ؛ فلِعِلمِهِمْ أنَّ المُحكماتِ معناها في غايةِ الصَّراحةِ والبيانِ يَرُدُّونَ إليها المُشتَبِهَ الَّذي تَحصُلُ فيه الحَيْرَةُ لناقِصِ العِلمِ وناقِصِ المعرفةِ؛ فيَرُدُّونَ المتشابِهَ إلى المُحكَمِ فيَعُودُ كُلُّهُ مُحْكَمًا»[2].

ثالثًا: الدُّعاءُ:

أخبَرَ تبارَكَ وتعالى في كتابِهِ المجيدِ أنَّ الرَّاسِخِينَ في العِلمِ يَدْعُونَ ربَّهُم أن يَحفَظَهُم من أن تَزِيغَ قُلوبُهُم باتِّباعِ المُتشابِهِ.

---

(١) تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين، سورة آل عمران: (١/ ٤٤).
(٢) تيسير الكريم الرحمن: (١/ ٢٠٨).

قالَ تعالى: ﴿...وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٧، ٨].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «ثمَّ قالَ تعالى عنهم ـ مُخبِرًا أنَّهم دَعَوْا رَبَّهم قائلينَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾؛ أيْ: لا تُمِلْهَا عنِ الهُدَى بعدَ إذ أَقَمْتَهَا عليهِ، ولا تَجعَلْنَا كالَّذِينَ في قُلوبِهِم زَيغٌ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ما تشابَهَ منَ القُرآنِ، ولكنْ ثَبِّتْنَا على صراطِكَ المستقيمِ، ودِينِكَ القَويمِ ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾؛ أيْ: مِن عندِكَ ﴿رَحْمَةً﴾؛ تُثَبِّتُ بها قُلوبَنا، وتَجمَعُ بها شَمْلَنا، وتَزِيدُنا بها إيمانًا وإيقانًا؛ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾»[1].

وفي هذا حَثٌّ للمُسلِمِ أن يَدعُوَ رَبَّهُ بهذا الدُّعاءِ؛ رجاءَ أن يَحمِيَهُ منَ الزَّيغِ والضَّلالِ، وأن يُثَبِّتَهُ على الحقِّ.

رابعًا: تَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

يقولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى من فضائلِ التَّقوَى في هذه الآيةِ وهي قولُهُ: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾؛ «أيْ: هِدايةً في قُلوبِكُم تُفَرِّقُونَ بها بينَ الحقِّ والباطلِ، ونَصْرًا تَعلُو به كَلِمَتُكُم على أعدائِكُم، ومَخْرَجًا منَ الشُّبُهاتِ الَّتِي تُقلِقُ النُّفوسَ ونَجاةً مِمَّا تَخافُونَ»[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ١٣).

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم: (٦/ ٨٣).

خامسًا: القُرآنُ الكريمُ:

قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

يقولُ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ففيهِ منَ البيِّناتِ والبَراهِينِ القَطعيَّةِ ما يُبيِّنُ الحقَّ منَ الباطلِ؛ فتَزُولُ أمراضُ الشُّبَهِ المُفسِدَةِ للعِلمِ والتَّصوُّرِ والإدراكِ بحيثُ يَرَى الأشياءَ على ما هي عليه، **وليسَ تحتَ أديمِ السَّماءِ كتابٌ مُتضمِّنٌ للبراهينِ والآياتِ على المطالِبِ العاليةِ**: مِنَ التَّوحيدِ، وإثباتِ الصِّفاتِ، وإثباتِ المَعادِ، والنُّبوَّاتِ، وردِّ النِّحَلِ الباطلةِ والآراءِ الفاسدةِ مِثْلُ القُرآنِ؛ فإنَّهُ كَفِيلٌ بذلكَ كلِّهِ مُتضَمِّنٌ له على أتَمِّ الوُجوهِ وأحسَنِها، وأقرَبِها إلى العقولِ، وأفصَحِها بَيَانًا؛ فهو الشِّفاءُ على الحقيقةِ من أدواءِ الشُّبَهِ والشُّكوكِ؛ ولكنَّ ذلكَ مَوقُوفٌ على فَهمِهِ ومَعرفةِ المُرادِ منه»[(١)].

فعلى المُسلِمِ أن يُعْنَى بالقُرآنِ الكريمِ؛ قِرَاءةً، وتَدَبُّرًا، وتَعَلُّمًا، وعَمَلًا، وتَعلِيمًا؛ حتَّى يكونَ بإذنِ اللهِ ﷻ منَ السَّالِمِينَ منَ الشُّبُهاتِ.

سادسًا: تجريدُ المتابعةِ للرَّسولِ ﷺ:

يقولُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا يُنجِي من هذه الفتنةِ إلَّا تجريدُ اتِّباعِ الرَّسولِ ﷺ وتحكيمُهُ في دِقِّ الدِّينِ وجِلِّهِ؛ ظَاهِرِهِ وباطِنِهِ، عقائدِهِ وأعمالِهِ، حقائقِهِ وشرائعِهِ؛ فيَتَلَقَّى عنه حقائقَ الإيمانِ، وشرائعَ الإسلامِ، وما يُثبِتُهُ للهِ منَ الصِّفاتِ والأفعالِ والأسماءِ، وما يَنفِيهِ عنه، كما يَتَلَقَّى عنه وُجوبَ الصَّلواتِ وأوقاتَها وأعدادَها، ومقاديرَ نُصُبِ الزَّكاةِ

(١) إغاثة اللهفان: (١/ ٩٩).

ومُستَحِقِّيهَا، ووجوبَ الوُضوءِ والغُسلِ منَ الجنابةِ، وصَومِ رمضانَ؛ فلا يَجعَلُهُ رَسُولًا في شيءٍ دونَ شيءٍ من أُمورِ الدِّينِ؛ بل هو رسولٌ في كلِّ شيءٍ تحتاجُ إليهِ الأُمَّةُ في العِلمِ والعَمَلِ، لا يُتَلَقَّى إلا عنه، ولا يُؤخَذُ إلا منه؛ فالهُدَى كلُّهُ دائرٌ على أقوالِهِ وأفعالِهِ، وكلُّ ما خَرَجَ عنها؛ فهو ضَلالٌ»(١).

وقد حَذَّرَ اللهُ ﷻ في كتابِهِ الكريمِ من مُشَاقَّةِ الرَّسُولِ ﷺ ومُخالفتِهِ؛ لأنَّ ذلكَ يُؤَدِّي إلى الضَّلالِ البَعيدِ، ومن ذلك الضَّلالِ الوُقوعُ في الشُّبُهاتِ.

قالَ تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أيْ: ومَن يُخالِفِ الرَّسُولَ ﷺ، ويُعانِدْهُ فيما جاءَ به ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾؛ بالدَّلائلِ القُرآنيةِ والبَراهِينِ النَّبويَّةِ، ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ وسَبِيلُهُم هو طريقُهُم في عقائِدِهِم وأعمالِهِم ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾؛ أيْ: نَترُكُهُ وما اختارَهُ لنفسِهِ، ونَخْذُلُهُ؛ فلا نُوَفِّقُهُ للخَيرِ؛ لكَونِهِ رَأى الحقَّ وعَلِمَهُ وتَرَكَهُ؛ فجزاؤُهُ منَ اللهِ عَدْلًا أن يُبقِيَهُ في ضَلالِهِ حائرًا ويَزدادَ ضَلالًا إلى ضلالِهِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾ [الصف: ٥]، وقالَ تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ١١٠].

ويَدُلُّ مفهومها على أنَّ مَن لَم يُشاقِقِ الرَّسُولَ، واتَّبَعَ سَبِيلَ المؤمنِينَ؛ فكانَ قَصدُهُ وَجْهَ اللهِ واتِّباعَ رسولِهِ ولُزومَ جماعةِ المسلِمِينَ، ثُمَّ صَدَرَ منه منَ الذُّنُوبِ أو الهَمِّ بها ما هو من مقتضياتِ النُّفوسِ،

---

(١) إغاثة اللهفان: (٢/ ٨٨٧).

وغَلَباتِ الطِّباعِ، فإنَّ اللهَ لا يُوَلِّيهِ نفسَهُ وشيطانَهُ؛ بل يَتَدارَكُهُ بلُطفِهِ، ويَمُنَّ عليه بحِفظِهِ، ويَعصِمُهُ منَ السُّوءِ»(١).

سابعًا: الحَذَرُ من أهلِ البِدَعِ:

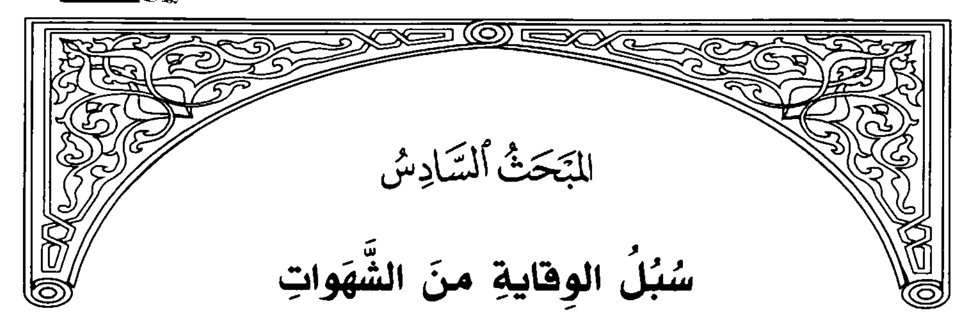
يَدُلُّ على هذا الحديثُ الَّذِي رَوَتْهُ عائشةُ رضي الله عنها قالت: تَلا رسولُ اللهِ ﷺ هذه الآيةَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]، قالت: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (**فَإِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ**)(٢).

فالنَّبيُّ ﷺ قد حَذَّرَ أُمَّتَهُ من هؤلاءِ؛ والسَّببُ في ذلكَ أنَّهم يُضِلُّونَ الإنسانَ بِبِدَعِهِم وشُبُهَاتِهِم.

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (١/٣٥٦).

(٢) صحيح البخاري: (٣/١٣٧٧ ـ ١٣٧٨)، كتاب التفسير، باب ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ حديث رقم: (٤٥٤٧)، صحيح مسلم: (٢/١٢٢٩)، كتاب العلم، باب النهي عن متشابه القرآن والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف في القرآن، حديث رقم: (٢٦٦٥).



المَبحَثُ السَّادِسُ

سُبُلُ الوِقايةِ منَ الشَّهواتِ

أوَّلًا: تَذكُّرُ مصيرِ أتباعِ الشَّهَواتِ يومَ القيامةِ:

ذَكَرَ اللهُ ﷻ في كتابِهِ المبارَكِ مَصِيرَ الَّذينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهواتِ يومَ القيامةِ؛ وفي ذلكَ تحذيرٌ شديدٌ لِمَنْ يَتَّبعُ الشَّهَواتِ.

قالَ تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩﴾؛ أيْ: عذابًا مُضاعَفًا شديدًا»(١).

وقال محمَّدُ طنطاوي رَحِمَهُ اللهُ: «﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩﴾؛ بيانٌ لسُوءِ عاقِبَتِهِم؛ أيْ: فسَوفَ يَلقَى هؤلاءِ المضيِّعُونَ للصَّلاةِ، المُتَّبِعُونَ للشَّهَواتِ خُسرانًا وشَرًّا في دُنياهُم وآخِرَتِهِم؛ بسَبَبِ ضَلالِهِم وتَنَكُّبِهِمُ الصِّراطَ المستقيمَ»(٢).

ثانيًا: التَّوبةُ والعَمَلُ الصَّالحُ:

اسْتَثْنَى اللهُ ﷻ أهلَ التَّوبةِ والعَمَلِ الصَّالحِ، بعدَ أن تَوَعَّدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ.

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٣/ ١٠٠٥).

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم: (٩/ ٥١).

قالَ تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠].

قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقولُهُ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾؛ أي: إلَّا مَن رَجَعَ عن تَركِ الصَّلواتِ واتِّباعِ الشَّهَوَاتِ؛ فإنَّ اللهَ يَقبَلُ تَوبَتَهُ، ويُحسِنُ عاقِبَتَهُ، ويَجعَلُهُ من وَرَثَةِ جنَّةِ النَّعيمِ؛ ولهذا قالَ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ۝٦٠﴾؛ وذلكَ لأنَّ التَّوبةَ تَجُبُّ ما قَبلَهَا»(١).

ثالثًا: القُرآنُ الكريمُ:

كما أنَّ القُرآنَ شِفاءٌ منَ الشُّبُهاتِ؛ فهو أيضًا شفاءٌ منَ الشَّهواتِ.

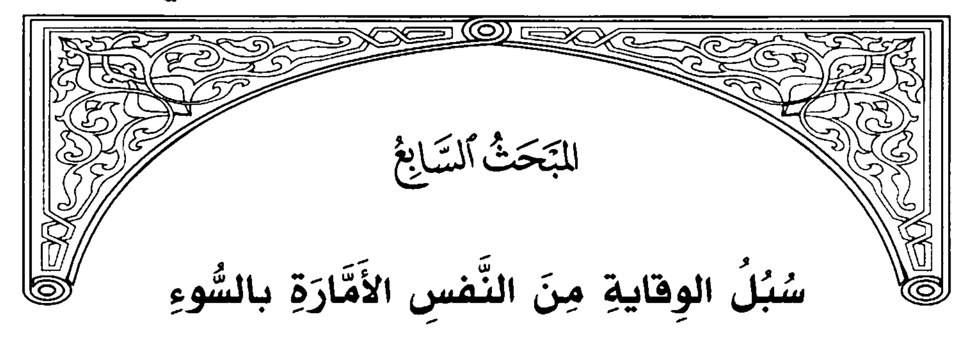
قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

يقولُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا شِفاؤُهُ لمَرَضِ الشَّهَوَاتِ؛ فذلكَ بما فيه منَ الحِكمةِ والمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ بالتَّرغِيبِ والتَّرهِيبِ، والتَّزهِيدِ في الدُّنيا، والتَّرغِيبِ في الآخِرَةِ، والأمثالِ والقِصَصِ الَّتِي فيها أنواعُ العِبَرِ والاستِبصارِ؛ فيَرغَبُ القَلبُ السَّليمُ إذا أبصَرَ ذلكَ فيما يَنفَعُهُ في معاشِهِ ومَعادِهِ، ويَرغَبُ عمَّا يَضُرُّهُ؛ فيَصِيرُ القَلبُ مُحِبًّا للرُّشْدِ مُبغِضًا للغَيِّ؛ فالقُرآنُ مُزِيلٌ للأمراضِ المُوجِبَةِ للإراداتِ الفاسدةِ؛ فيُصلِحُ القَلبَ؛ فتَصلُحُ إرادتُهُ، ويَعودُ إلى فِطرَتِهِ الَّتِي فُطِرَ عليها»(٢).



(١) تفسير القرآن العظيم: (٥/٢٤٦).

(٢) إغاثة اللهفان: (١/١٠١).



سُبُلُ الوِقايةِ مِنَ النَّفسِ الأَمَّارَةِ بالسُّوءِ

أوَّلًا: طَلَبُ العِصمةِ منَ اللهِ:

لمَّا اعترَفَتِ امرأةُ العزيزِ بما اقْتَرَفَتْهُ منَ الذَّنبِ، وأنَّ ذلكَ إنَّما كانَ بسَبَبِ النَّفْسِ الأَمَّارةِ بالسُّوءِ، استَثْنَتْ وقالَتْ: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: ٥٣].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «تقولُ المرأةُ: ولَستُ أُبَرِّئُ نَفسِي؛ فإنَّ النَّفسَ تَتَحَدَّثُ وتَتَمَنَّى؛ ولهذا راوَدَتْهُ لأنَّها أمَّارةٌ بالسُّوءِ، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾؛ أيْ: إلَّا مَن عَصَمَهُ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾»[1].

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾؛ فنَجَّاهُ من نَفسِهِ الأمَّارةِ حتَّى صارَتْ نفسُهُ مُطمَئِنَّةً إلى ربِّها، مُنقادَةً لدَاعِي الهُدى، متعاصِيَةً عن داعِي الرَّدَى؛ فذلكَ ليسَ منَ النَّفسِ، بل مِن فَضلِ اللهِ ورَحمتِهِ بِعَبدِهِ»[2].

فيَنبَغِي للمُسلِمِ أن يَعتَصِمَ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ منَ النَّفْسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ، وأن يَدعُوَ اللهَ دائِمًا أن يَعصِمَهُ ويُثَبِّتَهُ على دِينِهِ.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٤/ ٣٩٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٧٩٤ ـ ٧٩٥).

ثانيًا: مُجاهَدَةُ النَّفْسِ:

قالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَلَّقَ سبحانه الهدايةَ بالجِهادِ؛ فأكمَلُ النَّاسِ هِدايةً أعظَمُهُم جِهادًا، وأفرَضُ الجهادِ جهادُ النَّفْسِ، وجهادُ الهَوَى، وجهادُ الشَّيطانِ، وجهادُ الدُّنيا؛ فمَن جاهَدَ هذه الأربعةَ في اللهِ، هداهُ اللهُ سُبُلَ رِضاهُ المُوصِلَةَ إلى جَنَّتِهِ، ومَن تَرَكَ الجهادَ، فاتَهُ مِنَ الهُدَى بحَسَبِ ما عَطَّلَ منَ الجهادِ»(١).

ثالثًا: تَزكِيَةُ النَّفسِ:

إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَصَفَ مَن زَكَّى نفسَهُ بالفَلاحِ وفي هذا حَثٌّ على تَزكِيَةِ النَّفسِ.

قالَ تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ٩].

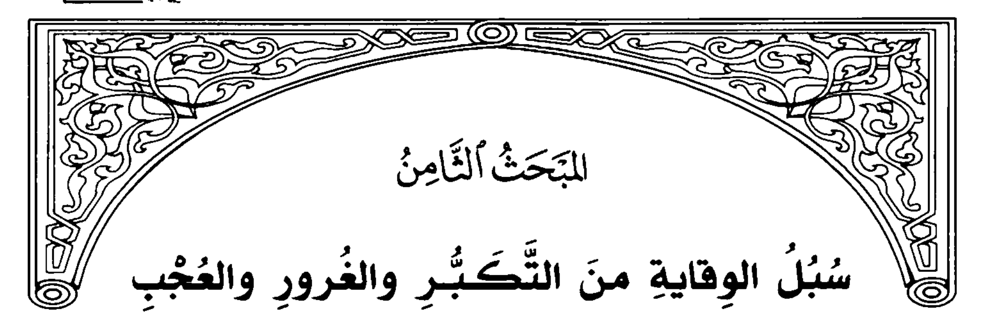
قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أيْ: طَهَّرَ نفسَهُ منَ الذُّنوبِ، ونَقَّاها منَ العُيوبِ، ورَقَّاهَا بطاعةِ اللهِ، وعَلَّاها بالعِلمِ النَّافِعِ والعَمَلِ الصَّالحِ»(٢).



---

(١) الفوائد: (ص٩٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٤/ ١٩٧٢).



المَبْحَثُ الثَّامِنُ

سُبُلُ الوِقايةِ منَ التَّكبُّرِ والغُرورِ والعُجْبِ

أوَّلًا: التَّأمُّلُ في عَظَمَةِ اللهِ ﷻ:

يَدُلُّ على هذا ما ذَكَرَهُ اللهُ تعالى عن قومِ هُودٍ أنَّهمُ اسْتَكْبَرُوا وتَعاظَمُوا بقُوَّتِهِم؛ ولو نَظَرُوا إلى قُوَّةِ اللهِ وعَظَمَتِهِ، لكانَ ذلكَ سَبَبًا في تَركِهِم لتَكَبُّرِهِم.

قالَ تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؛ أيْ: مَنُّوا بشِدَّةِ تَركِيبِهِم وقُواهُم، واعتَقَدُوا أنَّهُم يَمتَنِعُونَ به من بأسِ اللهِ، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؛ أي: أفَما يَتَفَكَّرُونَ فِيمَن يُبارِزُونَ بالعَداوةِ؟! فإنَّهُ العظيمُ الَّذي خَلَقَ الأشياءَ، ورَكَّبَ فيها قُواهَا الحاملةَ لها، وإنَّ بَطشَهُ شَدِيدٌ»(١).

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قالَ تعالى ـ رَدًّا عليهم بما يَعرِفُهُ كُلُّ أحدٍ ـ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؛ فلَوْلَا خلقُهُ إيَّاهُم، لم يُوجَدُوا؛ فلو نَظَرُوا إلى هذه الحالِ نَظَرًا صَحِيحًا، لم يَغْتَرُّوا بقُوَّتِهِم»(٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٧/ ١٦٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن: (٤/ ١٥٦٧).

ثانيًا: تَذَكُّرُ أنَّ اللهَ يَصرِفُ المُتكَبِّرِينَ عن آياتِهِ:

قالَ تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قالَ ابنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «سَأجْعَلُ الصَّرفَ عنِ الآياتِ عُقوبةً للمُتَكَبِّرِينَ؛ على تَكبُّرِهِم»[١].

وقالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «أيْ: سَأمْنَعُ فَهْمَ الحُجَجِ والأدِلَّةِ على عَظَمَتِي وشَرِيعَتِي وأحكامِي قُلُوبَ المُتَكَبِّرِينَ عن طاعتي، و: ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾؛ على النَّاسِ بغيرِ حقٍّ؛ أيْ: كما اسْتَكْبَرُوا بغيرِ حقٍّ أذَلَّهُمُ اللهُ بالجَهلِ»[٢].

وقالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أيْ: عن الاعتبارِ في الآياتِ الأفقيَّةِ والنَّفْسِيَّةِ، والفَهمِ لآياتِ الكتابِ، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أيْ: يَتَكَبَّرُونَ على عبادِ اللهِ وعلى الحقِّ، وعلى مَن جاءَ به؛ فمَن كانَ بهذه الصِّفةِ حَرَمَهُ اللهُ خَيرًا كثيرًا، وخَذَلَهُ، ولم يَفْقَهْ من آياتِ اللهِ ما يَنتَفِعُ به، بل رُبَّما انْقَلَبَتْ عليه الحقائقُ، واسْتَحْسَنَ القَبِيحَ»[٣].

ثالثًا: الاستعاذةُ منَ الكِبرِ:

قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

---

(١) المحرر الوجيز: (٤/ ٤٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٣/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٥٨١).

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولم يَذكُرْ ما يَستَعِيذُ منه؛ إرادةً للعمومِ؛ أي: اسْتَعِذْ باللهِ منَ الكِبرِ الَّذي يُوجِبُ التَّكبُّرَ على الحقِّ، واسْتَعِذْ باللهِ من شياطينِ الإنسِ والجنِّ، واستَعِذْ باللهِ من جميعِ الشُّرورِ»(١).

رابعًا: تَذَكُّرُ أنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُتَكبِّرِينَ:

قالَ تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾(٢) [النحل: ٢٣].

لا شَكَّ أنَّ مِن أعظَمِ ما يَتَمَنَّاهُ المسلمُ أن يكونَ مَحبُوبًا عندَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فمِنَ الحِرمانِ والخُسرانِ العظيمِ أن يكونَ المَرءُ مِنَ الَّذين لا يُحِبُّهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ فعَلَى المسلمِ أن يَحذَرَ من هذا الدَّاءِ الخطيرِ.

خامسًا: النَّظَرُ في عاقبةِ الأقوامِ المُتَكَبِّرِينَ:

أَمَرَنَا اللهُ تبارَكَ في كتابِهِ المباركِ أن نَنظُرَ في أحوالِ الأُمَمِ الَّتِي مَضَتْ؛ لأنَّهُ يَحصُلُ به الاتِّعاظُ والاعتبارُ.

قالَ تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

ومن هؤلاءِ عادٌ قَومُ هُودٍ الَّذين تَكَبَّرُوا وتَجَبَّرُوا حتَّى ظَنُّوا أنَّهُ لا يوجَدُ أحدٌ أقوَى منهم؛ فكانَ عاقِبَتُهُم ما ذَكَرَ اللهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٤/ ١٥٥٤).

(٢) قال ابن عَطِيَّةَ: «وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ عامٌّ في الكافرين والمؤمنين؛ فأخذ كل واحد منهم بقسطه». انظر: المحرر الوجيز: (٥/ ٣٤٣).

فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥، ١٦].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «فإنَّها كانت رِيحًا شديدةً قويَّةً؛ لِتَكُونَ عُقُوبَتُهُم من جنسِ ما اغْتَرُّوا به من قُواهُم، وكانت بارِدَةً شديدةَ البَرْدِ جِدًّا»(١).

سادسًا: تَذَكُّرُ مَصِيرِ المُتكَبِّرِينَ يومَ القيامةِ:

وَرَدَتْ آياتٌ كثيرةٌ في القُرآنِ الكريمِ تَدُلُّ على سُوءِ عاقبةِ المُتكَبِّرِينَ؛ منها.

قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

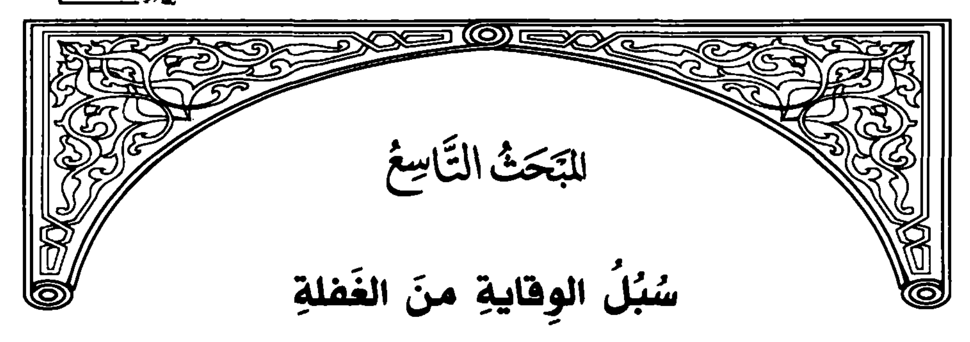
قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «هذا مِن لُطفِهِ بعبادِهِ، ونِعمَتِهِ العظيمةِ؛ حيثُ دَعاهُم إلى ما فيه صلاحُ دِينِهِم ودُنياهُم، وأَمَرَهُم بدُعائِهِ دُعاءَ العِبادةِ، ودُعاءَ المسألةِ، ووَعَدَهُم أن يَستَجِيبَ لهم، وتَوَعَّدَ مَنِ اسْتَكْبَرَ عنها؛ فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾؛ أي: ذَلِيلِينَ حَقِيرِينَ، يَجتَمِعُ عليهمُ العذابُ والإهانةُ؛ جزاءً على استكبارِهِم»(٢).

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «أي: أَلَيْسَتْ جَهَنَّمُ كافيةً لهم سِجنًا ومَوْئِلًا، لهم فيها دارُ الخِزْيِ والهوانِ؛ بسَبَبِ تَكَبُّرِهِم وتَجَبُّرِهِم، وإبائِهِم عن الانقيادِ للحَقِّ»(٣).

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٧/ ١٦٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٤/ ١٥٥٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم: (٧/ ١١١).



المَبحَثُ التَّاسِعُ

سُبُلُ الوِقايةِ منَ الغَفلةِ

أوَّلًا: الوَعظُ:

قالَ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾ [يس: ٦].

قالَ ابنُ عُثَيمين رَحِمَهُ اللهُ: «غافلُونَ لأنَّهم ما أتاهُم نذيرٌ، ومعلومٌ أنَّ النُّذُرَ تُوجِبُ حياةَ القُلوبِ والانتباهَ؛ ولهذا تَجِدُ الإنسانَ نفسَهُ إذا لم يَأتِهِ واعظٌ يَغفُلُ، وتَكثُرُ فيه الغفلةُ؛ فإذا أتاهُ واعظٌ؛ فكأنَّما أيقَظَهُ من نومٍ؛ هؤلاءِ لمَّا تَطاوَلَ عليهِمُ الأمَدُ، ولم يَأتِهِمْ نَذيرٌ، غَفَلُوا، وكأنَّهم ما خُلِقُوا لعبادةِ اللهِ، وجَعَلُوا لهم أصنامًا يَعبُدُونَها من دونِ اللهِ، ويَركَعُونَ لها، ويَسجُدُونَ، ويَنذُرُونَ ويُوفُونَ؛ فهم غافلُونَ؛ لعَدَمِ مَن يُوقِظُهُمْ»(١).

فيَنبَغِي للمَرءِ أن يَعِظَ نفسَهُ ويُذَكِّرَها باللهِ واليومِ الآخِرِ؛ حتَّى لا تَقَعَ في الغَفلةِ، ويَنبَغِي على أهلِ العلمِ أن يَعِظُوا النَّاسَ، ويُوقِظُوهُم من غَفلَتِهِم؛ فالوَعظُ أمرٌ عظيمٌ وسببٌ من أسبابِ إصلاحِ الأُمَّةِ، وحِفظِها منَ الغَفلةِ بإذنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين، سورة يس: (ص٢١).

ثانيًا: الإكثارُ مِن ذِكرِ اللهِ تعالى:

قالَ تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «المرادُ الحَضُّ على كَثرةِ الذِّكرِ منَ العبادِ بالغُدُوِّ والآصالِ؛ لِئَلَّا يكونُوا منَ الغافِلِينَ؛ ولهذا مَدَحَ الملائكةَ الَّذينَ يُسَبِّحُونَ اللَّيلَ والنَّهارَ لا يفتُرُونَ؛ فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وإنَّما ذَكَرَهُم بهذا؛ لِيُتَشَبَّهَ بهم في كثرةِ طاعتِهِم وعبادتِهِم»(١).

ثالثًا: تَذَكُّرُ مصيرِ أهلِ الغَفلةِ يومَ القيامةِ:

قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

قالَ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ۝١٧٩﴾؛ الَّذين غَفَلُوا عن أنفَعِ الأشياءِ؛ غَفَلُوا عنِ الإيمانِ باللهِ وطاعتِهِ وذِكرِهِ، خُلِقَتْ لهُمُ الأفئدةُ والأسماعُ والأبصارُ؛ لتكونَ عَوْنًا لهم على القيامِ بأوامِرِ اللهِ وحُقوقِهِ؛ فاستَعانُوا بها على ضِدِّ هذا المقصودِ؛ فهؤلاءِ حقيقُونَ بأن يكونُوا ممَّنْ ذَرَأَ اللهُ لجهنَّمَ وخَلَقَهُم لها؛ فخَلَقَهُم للنَّارِ، وبأعمالِ أهلِها يعملونَ»(٢).

وقالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٣/ ٥٣٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمٰن: (٢/ ٥٩٤).

قالَ ابنُ جَريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الَّذينَ هم عن آياتِ اللهِ؛ وهي أدِلَّتُهُ على وَحدَانِيَّتِهِ، وحُجَجُهُ على عبادِهِ في إخلاصِ العبادةِ له ﴿غَٰفِلُونَ ۝٧﴾؛ مُعرِضُونَ عنها لَاهُونَ، لا يَتَأَمَّلُونَها تَأَمُّلَ ناصِحٍ لنفسِهِ؛ فيَعلَمُوا بها حقيقةَ ما دَلَّتْهُم عليه، ويَعرِفُوا بها بُطُولَ ما هم عليه مُقِيمُونَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ يقولُ جلَّ ثناؤُهُ: هؤلاءِ الَّذينَ هذه صِفَتُهُم ﴿مَأْوَىٰهُمُ﴾؛ مَصِيرُهُم إلى النَّارِ؛ نارِ جهنَّمَ في الآخِرَةِ»[1].

رابعًا: مُجانَبَةُ أهلِ الغَفلةِ:

لأنَّ الإنسانَ يَتَأَثَّرُ بمَن يُخالِطُهُ ويُجالِسُهُ؛ ومُجالَسَةُ أهلِ الغفلةِ قد تُؤَدِّي بمَن يُجالِسُهُم إلى أن يكونَ مِثلَهُم؛ ولذلكَ نَهى اللهُ ﷻ عن طاعتِهِم، وفي ضِمنِ ذلكَ الأمرُ بمُجانَبَتِهِم والنَّهيُ عن مُخالَطَتِهِم.

قالَ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

قالَ القاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أيْ: جَعَلْنَاهُ غَافِلًا لِبُطلانِ استعدادِهِ للذِّكرِ بالمَرَّةِ، أو وَجَدْناهُ غافِلًا عنه؛ وذلكَ لِئَلَّا يُؤَدِّيَكَ إلى الغَفلةِ عنه»[2].



(١) جامع البيان: (١٢/ ١٢١).
(٢) محاسن التأويل: (٧/ ٣٧).

الخَاتِمَة

في نهايةِ هذا البَحثِ في الأسبابِ الَّتِي تَصُدُّ عن قَبولِ الحقِّ وسُبُلِ الوِقايةِ منها أحمَدُ ربِّي على ما مَنَّ به عليَّ في هذا البحثِ من تَوفِيقٍ وإعانةٍ، وأسألُهُ ﷻ أن يَجعَلَهُ خالِصًا لوَجهِهِ الكريمِ، وأن يَنفَعَنِي به يومَ لا يَنفَعُ مالٌ ولا بَنُونَ، وأسألُهُ أن يتجاوَزَ عمَّا كانَ من خَلَلٍ وتَقصيرٍ منَ العَبدِ الفقيرِ؛ إنَّه هو السَّميعُ البَصيرُ.

ومِن خلالِ بحثي في هذا الموضوعِ، وتَطَرُّقِي لمسائلِهِ وأحكامِهِ، ظَهَرَتْ لي بعضُ النَّتائجِ والتَّوصياتِ الَّتِي أَذكُرُها في الأسطُرِ التَّاليةِ:

• ضرورةُ الاهتمامِ بهذا الكتاب المبارك، والرُّجوعِ إليه، واستنباطِ ما فيه منَ الفوائدِ العظيمةِ، والحِكَمِ الإلـٰهيَّةِ، والمواهبِ الرَّبانيَّةِ، وجَعلِهِ مَنْهَجًا ونِبراسًا للحياةِ.

• بما أنَّ فَهْمَ القُرآنِ الكريمِ ضَرُورِيٌّ في حياةِ المُسلِمِ، فإنَّ التَّفسيرَ الموضوعيَّ أحدُ ألوانِ التَّفسيرِ؛ وهو يُعِينُ المسلِمَ على فَهمِ القُرآنِ الكريمِ وحُسنِ تَدَبُّرِهِ، واستنباطِ ما فيه منَ الهداياتِ القرآنيَّةِ الَّتِي تُنَوِّرُ القَلبَ وتَهدِي البَصيرَةَ إلى ما فيه الخيرُ والصَّلاحُ.

• أنَّ الأسبابَ الَّتِي تَصُدُّ الإنسانَ عن قَبولِ الحقِّ كثيرةٌ، وقد وَرَدَ في القُرآنِ الكريمِ كثيرٌ من هذه الأسبابِ، وهي مُنتَشِرَةٌ بكَثرةٍ في هذا الزمانِ الَّذي كَثُرَتْ فيه الصَّوارِفُ والمُلهِيَاتُ والفِتَنُ.

• أنَّ أعظَمَ هذه الأسبابِ وأبلَغَها تأثيرًا على الإنسانِ الشَّيطانُ؛

فأعظَمُ أهدافِهِ إضلالُ الإنسانِ وصَدُّهُ عنِ الحَقِّ؛ فمُنذُ أنْ خَلَقَ اللهُ أبانا آدَمَ عليه السلام والشَّيطانُ يَسعَى لتَحقِيقِ هذا الهَدَفِ، ويَبذُلُ كلَّ ما بوُسعِهِ وتحتَ طاقتِهِ من أجْلِهِ؛ ولذلكَ حَذَّرَنَا اللهُ عز وجل في كتابِهِ الكريم منَ الشَّيطانِ الرَّجيم أيَّمَا تحذيرٍ؛ قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] وهذا يَدلُّ على عظيمِ أثرِهِ وشِدَّةِ خَطَرِهِ؛ فعلى العبدِ أن يَحذَرَ من هذا العَدُوِّ اللَّدُودِ، وأن يَتَّخِذَ الأسبابَ الَّتِي تَقِيهِ بإذنِ اللهِ عز وجل من مكائدِهِ ومصائدِهِ.

• أنَّ مِنَ الأسبابِ الَّتِي تَصُدُّ عنِ الحَقِّ؛ الفِتَنَ بشَتَّى أنواعِها، **وهي**: فتنةُ البيئةِ المُشركَةِ الَّتِي يعيشُ فيها الإنسانُ، وفتنةُ النِّساءِ، وفتنةُ المالِ، وفتنةُ الأزواجِ والأولادِ، وفتنةُ المُلكِ والجاهِ؛ وقد بَيَّنَ القُرآنُ الكريمُ أنَّ هذه الفِتَنَ كانت سَبَبًا في صَدِّ بعضِ النَّاسِ عنِ الحقِّ.

• وهناك أسبابٌ أُخرَى تَصُدُّ عنِ الحقِّ بَيَّنَهَا القُرآنُ الكريمُ، **وهي**: قُرَناءُ السُّوءِ، والإشراكُ باللهِ، وعَدَمُ قَدْرِ اللهِ حقَّ قَدْرِهِ، والتَّقليدُ المَذمُومُ، واتِّباعُ الهَوَى، واتِّباعُ الشُّبُهاتِ، واتِّباعُ الشَّهَوَاتِ، والنَّفْس الأمَّارة بالسُّوءِ، والتَّكَبُّرُ، والغفلةُ.

• بما أنَّ الأسبابَ الَّتِي تَصُدُّ عن قَبولِ الحقِّ كثيرةٌ؛ وخاصَّةً في زمانِنا هذا ـ وهذا أمرٌ ظاهرٌ ومشاهَدٌ ـ فإنَّهُ يجبُ على أهلِ العلمِ والدَّعوةِ أن يَقُومُوا بواجبِهم تُجاهَ هذا الأمرِ بالبيانِ والتَّوضيحِ؛ فإنَّ مِنَ السُّبُلِ الَّتِي يَتَحَصَّنُ بها العبدُ من هذه الأسبابِ معرفتَهُ بهذه الأسبابِ؛ فإنَّه إذا عَرَفَ أثرَهَا وعظيمَ خَطرِها فسوفَ يَتَجَنَّبُها بإذنِ اللهِ عز وجل.

هذا مع بيانِ السُّبُلِ الَّتِي يَتَّقِي بها العبدُ هذه الأسبابَ، وقد بَيَّنَ القُرآنُ الكريمُ سُبُلَ النَّجاةِ منها.

أَمَّا التَّوْصِيَاتُ، فهي:

- إجراءُ المَزِيدِ منَ الدِّراساتِ والبُحوثِ حولَ هذا الموضوعِ على وجهِ الإجمالِ والتَّفصيلِ لعِظَمِ حاجةِ النَّاسِ إليه.
- أقتَرِحُ أن يَكثُرَ طَرحُ هذا الموضوعِ في المحاضراتِ والنَّدواتِ والمقالاتِ والخُطَبِ وغَيرِها؛ فقدِ اسْتَبَانَتْ خُطورةُ هذا الموضوعِ وشِدَّةُ حاجةِ النَّاسِ إليه.

والحمدُ للهِ أوَّلًا وآخِرًا، وظاهِرًا وباطِنًا...

وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا محمَّدٍ، وعلى آلِهِ وصَحبِهِ أجمَعِينَ.



فِهرِسُ المَصَادِرِ والمَرَاجِع

١ ـ **إبطال التنديد باختصار شرح كتاب التوحيد**، حمد بن علي بن محمد بن عتيق، تحقيق: عبد الإله بن عثمان الشايع، دار طيبة الخضراء، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٢ ـ **الاتباع المذموم أنواعه وآثاره في بيان القرآن**، محمد بن مصطفى السيد، المنتدى الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ، ١٩٩٧م.

٣ ـ **إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربع عشر**، أحمد بن محمد البنا، تحقيق: شعبان محمد إسماعيل، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٤ ـ **أحكام أهل الذمة**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري، شاكر بن توفيق العاوري، رمادي للنشر، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

٥ ـ **إحياء علوم الدين**، محمد بن محمد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٦ ـ **أدب الدنيا والدين**، علي بن محمد بن حبيب الماوردي، هذبه وعلق عليه: أبو حذيفة إبراهيم بن محمد، دار الصحابة للتراث، طنطا، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

٧ ـ **أصول في التفسير**، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ.

٨ ـ **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

٩ - **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، قرأه وعلق عليه وخرج أحاديثه: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٠ - **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن حسن بن علي الأثري، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

١١ - **آيات للسائلين تفسير تحليلي موضوعي لسورة يوسف**، ناصر بن سليمان العمر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

١٢ - **البحر المحيط**، محمد بن يوسف بن علي ابن حيان الأندلسي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

١٣ - **بدائع التفسير الجامع لما فسره الإمام ابن قيم الجوزية**، جمعه وخرج أحاديثه: يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

١٤ - **بدائع الفوائد**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

١٥ - **البرهان في علوم القرآن**، محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: زكي محمد أبو سريع، دار الحضارة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

١٦ - **بهجة المجالس وأنس المجالس**، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي، تحقيق: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العالمية، بيروت، الطبعة الثانية.

١٧ - **تاج العروس من جواهر القاموس**، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

١٨ - **التبرج وخطره**، عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

١٩ - **التحرير والتنوير**، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

٢٠ - **التذكرة في الوعظ**، عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: أحمد عبد الوهاب فتيح، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٢١ - **التسهيل لعلوم التنزيل**، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، ضبطه وصححه: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٢٢ - **تفسير الشعراوي**، محمد متولي الشعراوي.

٢٣ - **تفسير القرآن العظيم**، إسماعيل بن كثير القرشي، تحقيق: سامي محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٢٤ - **تفسير القرآن الكريم**، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٢٥ - **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، محمد سيد طنطاوي، دار المعارف، القاهرة.

٢٦ - **تلبيس إبليس**، عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٢٧ - **تهذيب الأسماء واللغات**، محيي الدين بن شرف النووي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٨ - **تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، اعتنى به: سعد فواز الصميل، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٩ - **تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمٰن بن معلا اللويحق، دار ابن الهيثم، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

٣٠ - **تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن**، عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٣١ - **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: عبد الله ابن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٣٢ - **الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السُّنَّة وآي القرآن**، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

٣٣ - **الجامع لشعب الإيمان**، أحمد بن الحسين البيهقي، أشرف على تحقيقه: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

٣٤ - **الداء والدواء**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن حسن الأثري، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

٣٥ - **دليل المواقع الجغرافية بالمملكة العربية السعودية**، ـ إعداد: الجمعية الجغرافية السعودية، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٣٦ - **دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها**، عبد الرحمٰن ابن يوسف الملاحي، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

٣٧ - **ذم الهوى**، عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: خالد عبد اللطيف العلمي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

٣٨ - **الرسالة التبوكية**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، مكتبة الخراز، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٣٩ - **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، السيد محمود الألوسي، ضبطه وصححه: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

٤٠ ـ **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، خرَّج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٤١ ـ **زاد المسير في علم التفسير**، عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ، ١٩٧٨م.

٤٢ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٤٣ ـ **سراج الملوك**، محمد بن الوليد الطرطوشي، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٤٤ ـ **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٤٥ ـ **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ على الأمة**، محمد بن ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٤٦ ـ **سنن ابن ماجه**، محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة العالمية، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٤٧ ـ **سنن أبي داود**، سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: عزت عبيد الدعاس، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

٤٨ ـ **سنن الترمذي**، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة العالمية، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٤٩ ـ **سنن النسائي الكبرى**، أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

٥٠ ـ **سير أعلام النبلاء**، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

٥١ ـ **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، محمد بن محمد مخلوف، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٤٩هـ.

٥٢ ـ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، عبد الحي بن أحمد العكري، تحقيق: محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

٥٣ ـ **شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين**، محمد بن صالح العثيمين، مدار الوطن للنشر، عنيزة، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ.

٥٤ ـ **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، إسماعيل بن محمد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ، ١٩٩٧م.

٥٥ ـ **صحيح البخاري**، محمد بن إسماعيل البخاري، راجعه وضبطه وفهرسه: محمد علي القطب، هشام البخاري، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

٥٦ ـ **صحيح سنن أبي داود**، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٥٧ ـ **صحيح سنن الترمذي**، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

٥٨ ـ **صحيح مسلم بشرح النووي**، محيي الدين بن شرف النووي، تحقيق: رضوان جامع رضوان، مؤسسة المختار، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

٥٩ ـ **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: نظر محمد الفاريابي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

٦٠ ـ **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد الدخيل، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٦١ ـ **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، محمد بن عبد الرحمٰن السخاوي، دار مكتبة الحياة، بيروت.

٦٢ - **عالم الجن والشياطين**، عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار النفائس، الأردن، الطبعة الخامسة عشرة، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٤م.

٦٣ - **عداوة الشيطان للإنسان كما جاءت في القرآن**، عبد العزيز بن صالح العبيد، رابطة العالم الإسلامي، ١٤٢١هـ.

٦٤ - **عداوة الشيطان للإنسان وعلاجها في ضوء القرآن الكريم دراسة موضوعية**، عبد المنعم بن حواس الحواس، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٦٥ - **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

٦٦ - **العزلة**، حمد بن محمد الخطابي، تحقيق: ياسين محمد السوَّاس، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

٦٧ - **العلو للعلي الغفار**، محمد بن أحمد الذهبي، اعتنى به: أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٦٨ - **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، محمود بن أحمد العيني، ضبطه وصححه: عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

٦٩ - **العواصم من الفتن في سورة الكهف**، عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٧٠ - **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي العسقلاني، اعتنى به: نظر بن محمد الفاريابي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.

٧١ - **فتح المنان في جمع كلام شيخ الإسلام عن الجان**، مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة التوحيد، المنامة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

٧٢ - **الفتنة وآثارها المدمرة وموقف المسلم منها وطرق التثبت فيها**، أحمد بن إبراهيم بن أحمد، دار لينا، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٧٣ ـ **الفتنة وموقف المسلم منها في ضوء القرآن**، عبد الحميد بن عبد الرحمٰن السحيباني، دار القاسم للنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

٧٤ ـ **الفوائد**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٧٥ ـ **قاعدة في المحبة**، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٧٦ ـ **القاموس المحيط**، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، إعداد وتقديم: محمد عبد الرحمٰن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٧٧ ـ **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي بن محمد معوّض، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

٧٨ ـ **الكلام على مسألة السماع**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: راشد بن عبد العزيز الحمد، دار العاصمة، الرياض، النشرة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٧٩ ـ **اللباب في تهذيب الأنساب**، عز الدين بن الأثير الجزري، دار صادر، بيروت، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

٨٠ ـ **لسان العرب**، محمد بن مكرَّم بن علي ابن منظور، اعتنى بتصحيحها: أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٨١ ـ **مجاز القرآن**، معمر بن المثنى التيمي، عارضه بأصوله وعلق عليه: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٨٢ ـ **مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية**، جمع عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٨٣ ـ **محاسن التأويل**، محمد جمال الدين القاسمي، وقف على طبعه وتصحيحه ورقمه وخرج آياته وأحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

٨٤ ـ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق: الرحالة الفاروق، عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، السيد عبد العال، محمد الصادق الشافعي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٨٥ ـ **المستدرك على الصحيحين**، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الحرمين، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٨٦ ـ **مسند الإمام أحمد**، أحمد بن حنبل الشيباني، أشرف على تحقيقه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٨٧ ـ **مصائب الإنسان من مكائد الشيطان**، إبراهيم بن أبي عبد الله بن محمد بن مفلح المقدسي، خرج أحاديثه وعلق عليه: ياسر بن محمد آل أبو ميز، دار الإيمان، الإسكندرية.

٨٨ ـ **المصنف لابن أبي شيبة**، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: محمد عوَّامة، شركة دار القبلة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

٨٩ ـ **معالم التنزيل**، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد بن عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرشي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٩٠ ـ **معاني القرآن وإعرابه**، إبراهيم بن السري الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٩١ ـ **معجم البلدان**، ياقوت بن عبد الله الحموي، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩٢ ـ **المعجم الكبير**، سليمان بن أحمد الطبراني، ضبط نصه وخرَّج أحاديثه: أبو محمد الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٩٣ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٩٤ ـ **معجم مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت.

٩٥ - **مفاتيح الغيب**، محمد بن عمر بن الحسين الرازي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٩٦ - **مفتاح دار السعادة**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

٩٧ - **المفردات في غريب القرآن الكريم**، الحسين بن محمد الأصفهاني، تحقيق: مركز البحوث والدراسات بمكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

٩٨ - **الموافقات**، إبراهيم بن موسى الشاطبي، ضبط نصه وقدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، الخبر، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٩٩ - **موسوعة أسماء الأماكن في المملكة العربية السعودية**، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

١٠٠ - **موقف المسلم من الفتن في ضوء الكتاب والسُّنَّة**، حسين بن محمد الحازمي، أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

١٠١ - **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر**، عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

١٠٢ - **الوابل الصيب من الكلم الطيب**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، عني به: صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

١٠٣ - **الوافي بالوفيات**، صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرنؤوط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

١٠٤ - **الوجوه والنظائر لألفاظ الكتاب العزيز**، الحسين بن محمد الدامغاني، تحقيق: محمد حسن أبو العزم الزفيتي، القاهرة، لجنة إحياء التراث، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

١٠٥ ـ وقاية الإنسان من الجن والشيطان، وحيد عبد السلام بالي، مكتبة الصحابة، الشارقة، الطبعة السابعة عشر، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

فِهرِسُ المَوْضُوعَات

الموضوع | الصفحة

الباب الأول

الأسبابُ الخارجيَّةُ وسُبُلُ الوِقايةِ منها

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الباب الثاني
الأسبابُ الدَّاخليَّةُ وسُبُلُ الوِقايةِ منها

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**